

دولة فلسطين
دار الإفتاء الفلسطينية

الرسول الأُسوة

محمد

صلى الله عليه وسلم

(الجزء السادس)

القدس

1434هـ - 2013م

من إصدارات

دار الإفتاء الفلسطينية

هدية

سنة 1434هـ - 2013م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه من الصحابة والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد؛

ففي غمرة انشغال الناس بالدنيا وحرصهم الشديد على زخرفها الخادع، وإبان الحملة الشرسة من أعداء الإسلام لإطفاء نور الله بأفواههم، وتكالبهم على الدين ورموزه، ومحاربتهم لرسول الله وإساءتهم إليه، ولما أصبح العمل للذود عن الدين ورموزه واجباً أكبر وفريضة أعظم، فإن دار الإفتاء الفلسطينية تصدر الجزء السادس من كتاب **(الرسول الأسوة محمد ﷺ)**، الذي يعرض جوانب من هدي المصطفى ﷺ وسيرته الطاهرة، بطريقة ميسرة، تميزت ببساطة العرض، ووضوح الفكرة، ودقة المعلومة، مما يساهم في نشر الوعي الديني الصحيح، ويستفيد من قراءته المسلمون على اختلاف مستوياتهم الثقافية والعمرية.

ويسرني في هذا المقام أن أتقدم بالشكر والتقدير من الذين ساهموا في إنجاز هذا العمل المتميز، سائلاً المولى عز وجل أن يجعله في ميزان حسناتهم، وأن ينفع الله بعملهم المسلمين، كما أسأله ﷻ أن يديم دار الإفتاء الفلسطينية منهلاً للعلم والخير والهداية، إنه الموفق إلى سبيل الرشاد.

فإن أصبنا في هذا الكتاب وغيره من الأعمال، فبنعمة من الله وفضل، وإن أخطأنا فمن عند أنفسنا، سائلين الله العفو والعافية، وقبول الأعمال الصالحة، بفضل جوده وكرمه.

الشيخ محمد أحمد حسين
المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية
خطيب المسجد الأقصى المبارك

القدس
1434هـ / 2013م

الفصل الأول

عقيدة

5	يُبشِرُ مَنْ آثَرَ الآخِرَةَ ﷺ	.1
12	يُكْرِرُ تَمَنِّيَ الشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷺ	.2
18	يُحَدِّثُ عَنْ بَعْضِ آيَاتِ اللَّهِ الْبَاهِرَةِ فِي إِسْرَائِهِ ﷺ	.3
23	كَفَاهُ اللَّهُ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﷺ	.4

الرسول الأُسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يبشر من أثر الآخرة

روي (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ إِلَى الْبَحْرَيْنِ يَأْتِي بِجِزْيَتِهَا، وَكَانَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هُوَ صَالِحَ أَهْلِ الْبَحْرَيْنِ، وَأَمَرَ عَلَيْهِمُ الْعَلَاءَ بْنَ الْحَضْرَمِيِّ، فَقَدِمَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِمَالٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ، فَسَمِعَتْ الْأَنْصَارُ بِقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ، فَوَافَتْ صَلَاةَ الصُّبْحِ مَعَ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا صَلَّى بِهِمُ الْفَجْرَ انْصَرَفَ، فَتَعَرَّضُوا لَهُ، فَتَبَسَّمَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حِينَ رَأَاهُمْ، وَقَالَ: أَظُنُّكُمْ قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدْ جَاءَ بِشَيْءٍ، قَالُوا: أَجَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَأَبَشِّرُوا وَأَمَلُوا مَا يَسْرُكُمْ، فَوَاللَّهِ لَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بَسِطَتْ عَلَيَّ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكُكُمْ كَمَا أَهْلَكْتَهُمْ⁽¹⁾).

يتعرض هذا الحديث الشريف إلى تسجيل وقائع حادثة، تحورت جوانبها حول الانجذاب لمال الدنيا، والتهذيب النبوي لهذا السلوك من خلال ربطه بصلب العقيدة، ونظرتها لأموال الدنيا والآخرة، وجاء في فتح الباري أن المراد بالبحرين البلد المشهور بالعراق، وهي بين البصرة وهجر، وكان غالب أهلها إذ ذاك المجوس، وكان النبي، صلى الله عليه وسلم، صالح أهل البحرين في سنة الوفود سنة تسع من الهجرة، وجعل عليهم العلاء بن الحضرمي الصحابي الشهير أميراً، وكان من أهل حضرموت، فقدم أبو عبيدة مبعوث النبي، صلى الله عليه وسلم، إليهم من البحرين بمال من جزية أهلها، فسمعت الأنصار بقدمه بالمال، فاجتمعوا إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، في صلاة الفجر، فسألوه بالإشارة والتعريض، ليعطيهم من ذلك المال⁽²⁾.

1- صحيح البخاري، أبواب الجزية والمواذعة، باب الجزية والمواذعة مع أهل الذمة والحرب.

2- فتح الباري: 263/6.

فبشرهم صلى الله عليه وسلم بإعطائهم ما يريدون من ذاك المال، وطلب منهم أن يرجوا ما يسرون ويأملون بتحصيله، غير أنه عقب بإخبارهم عما يخشى عليهم، حيث نبههم إلى أنه لا يخشى عليهم الفقر الذي يشكون منه ويعانون، رغم قسوته وضيق حال صاحبه، ولكنه يخشى عليهم أن تبسط لهم الدنيا كما بسطت لمن كان قبلهم وتيسرت، فصارت أكبر همهم، وشغلهم الشاغل، وصار جل عملهم، ومعظم مقصدهم لها، وصاروا يتنافسون عليها، ويتحاسدون بسببها، ومن أجلها يتباغضون، ويتناحرون ويتدابرون، فهلكوا بسبب ذلك، وقد يحصل لمن يصنع صنيعهم من الهلاك ما حصل لهم.

ويستنتج ابن حجر العسقلاني من هذا الحديث أن طلب العطاء من الإمام لا غضاضة فيه، وفيه البشرى من الإمام لأتباعه وتوسيع أملهم منه، وفيه من أعلام النبوة إخباره صلى الله عليه وسلم بما يفتح عليهم، وفيه أن المنافسة في الدنيا قد تجر إلى هلاك الدين، ووقع في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عند مسلم مرفوعاً تتنافسون، ثم تتحاسدون، ثم تتدابرون، ثم تتباغضون، أو نحو ذلك، وفيه إشارة إلى أن كل خصلة من المذكورات مسببة عن التي قبلها. (1)

إيثار الآخرة لا يعني هجر الدنيا ورفض العيش فيها

معلوم أن الإسلام يوازن بين مطالب الدنيا والآخرة والعمل لهما، والنصوص في هذا المجال ثابتة وصریحة في دلالاتها، فالله تعالى يقول: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} (2).

غير أن معظم الناس ينجذبون للعمل للدنيا، وتلهيهم مشاغلها عن العمل للآخرة، فاحتاجوا لتذكيرهم بالحرص على الآخرة، وبخاصة أنها الأبقى، وهي دار الخلود والمقام الدائم، بعكس الدنيا التي مهما طال عمر ساكنها من الناس، فإنه يعيش بضع عشرات

1- المرجع السابق.

2- القصص: 77.

من السنين، وقليل من يتجاوزها، ويقضي نصيباً وافراً من تلك السنين في أحضان الضعف والمرض والهَم والمقت والغم، بينما الآخرة لمن سعى لها سعيها، ففيها الخلود الأبدي، والنعيم الذي تفوق حقيقته مدارك الخلق وتخيلاتهم، لأن في جنتها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ومن الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة التي حثت على جعل الآخرة في المكانة الأفضل، والكفة الأرحح في ميزان أهداف المؤمن وتطلعاته، ما جاء في القرآن الكريم من وعيد لمن فضل الدنيا، ووعد بالخير لمن آثر الآخرة، فيقول تعالى: {فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى}. (1)

ولما أكد الله على حقيقة تزين الحياة الدنيا وتجملها بالمال والبنين، فإنه سبحانه أكد في المقابل على أن الباقيات الصالحات خير وأبقى، فقال تعالى: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً} (2)، وورد في التفسير أن المراد (بالباقيات الصالحات) قول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، زاد بعضهم ولا حول ولا قوة إلا بالله (3)، ففضل الباقيات الصالحات يفوق عند الله وفي عاقبة الأمور ونهايتها الحقيقية، جمال المال ونعمة البنين، وهي من أبرز متعلقات الدنيا لدى معظم الناس، ويبدلون من أجل تحصيلها الجهود المضنية والسعي الدؤوب، إضافة إلى العمل على أحكام التخطيط والتدبير للنجاح فيها.

وقد أرشد الله عباده المؤمنين إلى ما يساعدهم في التغلب على التنافس على الحياة الدنيا وزينتها، فخطب رسوله الكريم، صلى الله عليه وسلم، قائلاً: {وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ

1- النازعات: 41-37.

2- الكهف: 46.

3- التفسير المبرر: 258/15.

إِلَى مَا مَتَّعَنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى. (1)

وقرر الله تعالى أن المتاع الذي يحصله المحظوظون في الدنيا، بغض النظر عن نوعه وشكله ومقداره، فإنه إلى زوال، بينما ما عند الله من النعيم هو الخير والأبقى، فيقول تعالى: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ}. (2)

وخير الآخرة الأبقى يكون للمؤمنين بربهم، ويتوكلون عليه سبحانه، مصداقاً لقوله تعالى: {فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}. (3)

وتتفوق الآخرة قطع الله بذلك وعداً في الصحف الأولى، فقال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى * بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى * إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى}. (4)

وعن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، قال: (أَخَذَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَمَنَكِيي، فَقَالَ: كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ، وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ: إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرُ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرُ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرْضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ). (5)

وفي صحيح البخاري باب (في الأمل وطوله، وقول الله تعالى: {فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} (6)، وقوله: {ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا

1- طه: 131.

2- القصص: 60.

3- الشورى: 36.

4- الأعلى: 14-19.

5- صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل).

6- آل عمران: 185.

وَيَتَمَتُّوْا وَيُلْهِهْمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُوْنَ} (1)، وقال عليُّ بن أبي طالبٍ: ارتَحَلْتُ الدُّنْيَا مُدْبِرَةً، وَارْتَحَلْتُ الْآخِرَةَ مُقْبِلَةً، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُوْنَ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ، وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابَ، وَغَدًا حِسَابٌ وَلَا عَمَلٌ، يَمْزَحِجُهُ بِمَبَاعِلِهِ. (2)

البشرى التي قبلها نفر اليمن ولم يقبلها نفر تميم

من أخبار السيرة النبوية التي تعرضت للتنبيه إلى مقام إيثار الآخرة على الدنيا، ما جاء عن عمرآن بن حصين، رضي الله عنهما، قال: (أتى نفرٌ من بني تميم النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: أقبَلُوا البُشْرَى يَا بَنِي تَمِيمٍ، قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ قَدْ بَشَرْتَنَا، فَأَعْطِنَا، فَرُئِيَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، فَجَاءَ نَفَرٌ مِنَ الْيَمَنِ، فَقَالَ: أَقْبَلُوا البُشْرَى إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ، قالوا: قَدْ قَبَلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ). (3)

وفي تحفة الأحوزي: أن قوله (نفر من بني تميم): يعني وفدهم، وكان قدومهم في سنة تسع، والمراد بالبشارة أن من أسلم نجا من الخلود في النار، ثم بعد ذلك يترتب جزاؤه وفق عمله، إلا أن يعفو الله. وقال الكرمانى: بشرهم بما يقتضي دخول الجنة، حيث عرفهم أصول العقائد التي هي المبدأ والمعاد وما بينهما.

وقوله صلى الله عليه وسلم للوفدين (اقبلوا البشرى): أي اقبلوا مني ما يقتضي إذا أخذتم به أن تبشروا بالجنة؛ كالفقه في الدين والعمل به.

وقوله (فلم يقبلها بنو تميم): قيل: إنهم قبلوها حيث قالوا: بشرتنا، غاية ما في الباب أنهم سألوا شيئاً، وأجيب بأنهم لم يقبلوها، حيث لم يهتموا بالسؤال عن حقائقها، وكيفية المبدأ والمعاد. ولم يعتنوا بضبطها وحفظها، ولم يسألوا عن موجباتها وعن الموصلات إليها، وقال الطيبي: لما لم يكن جل اهتمامهم إلا بشأن الدنيا، والاستعطاء دون دينهم، قالوا:

1- الحجر: 3.

2- صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب في الأمل وطوله.

3- صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب وفد بني تميم.

بشرتنا للتفقه، وإنما جئنا للاستعطاء، فأعطينا، ومن ثم قال رسول الله: فلم يقبلها بنو تميم.⁽¹⁾

وفي عمدة القاري أن قوله (فتغير وجهه): أي وجه النبي، صلى الله عليه وسلم، إما للأسف عليهم كيف آثروا الدنيا، وإما لكونه لم يحضره ما يعطيهم، فيتألفهم به. وقوله (فجاء أهل اليمن): هم الأشعريون، قوم أبي موسى الأشعري.⁽²⁾

فالنبي، صلى الله عليه وسلم، ميز بين موقف بني تميم الذين كان همهم متعلقاً بالمال في ذلك الموقف أكثر من الاهتمام بأمر الآخرة، وما ينتظرهم فيها، بينما نفر اليمن الذين جاءوا من بعدهم قبلوا بشرى الرسول، صلى الله عليه وسلم، وأصغوا لما قاله بشأن خيرهم في آخرتهم.

يبشر أمته بحظها من الجنة

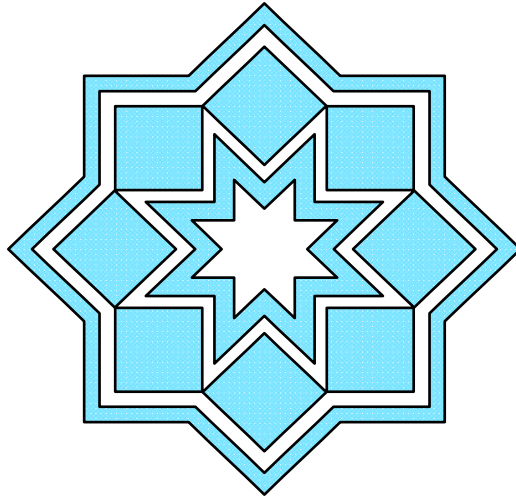
حرص الرسول، صلى الله عليه وسلم، في أحاديثه الشريفة على أن يؤكد لأُمَّته على ما فيه صلاحها وخيرها وفوزها، فعمل على حثها بما ينسجم مع التوجيهات الربانية التي تحث على السعي للنجاة في الآخرة، والفوز بها، بتقديم صالح القول والعمل، مؤثرة بذلك الآخرة على الدنيا الزائلة وما فيها، وبشر الرسول، صلى الله عليه وسلم، أمته إن اهتدت بهديه بجنة عرضها السماوات والأرض، أعدها للمتقين من عباد الله الصالحين، فعن أبي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (يقول الله تَعَالَى: يَا آدَمُ! فَيَقُولُ: لَبَيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعَثَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعَثَ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَإِنَّا ذَلِكَ الْوَاحِدُ؟ قَالَ: أَبْشِرُوا! فَإِنْ مِنْكُمْ رَجُلٌ، وَمِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ إِنْ أَرَجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: أَرَجُو أَنْ

1- تحفة الأحوذى: 313-312/10.

2- عمدة القاري: 108/15.

تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَبْيَضٍ، أَوْ كَشَعْرَةِ بَيْضَاءٍ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَسْوَدٍ. (1)

هدانا الله إلى حسن القول وخير العمل، حتى نكون من الذين أنعم الله عليهم، ورحمهم، وجعلوا الآخرة نصب أعينهم، وأكبر همهم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا المصطفى محمد بن عبد الله، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.



1- صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج.

الرسول الأُسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يكرتمني الشهادة في سبيل الله

عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ وَدِدْتُ أَنِّي أُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَأُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا، فَكَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ يَقُولُهُنَّ ثَلَاثًا: أَشْهَدُ بِاللَّهِ).⁽¹⁾

يقسم الرسول، صلى الله عليه وسلم، برب العزة الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، المحيي المميت على حقيقة رغبته في أن ينال الشهادة في سبيل الله، لا بل يقسم على رغبته العجيبة في تكرار نيل الشهادة، وذلك أمر خارج عن نطاق الممكنات الطبيعية والمألوفة؛ إذ إن الإنسان لا يعود إلى الحياة الدنيا بعد فراقها، إلا أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، في هذا التمني الواضح لنيل الشهادة عن طريق تجرع القتل في سبيل الله، يؤكد على منزلة الشهادة وأصحابها، فهم في عليين، ومقام كريم، أحياء عند ربهم يرزقون، مصداقاً لقوله تعالى: {وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ} ⁽²⁾، وقوله تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} ⁽³⁾، ففي سورة البقرة ينهى الله تعالى عن وصف الذين يقتلون في سبيله بالأموات، بل هم أحياء، والناس لا يلمسون بحكم طبيعتهم البشرية، ورؤياهم المحدودة حقيقة تلك الحياة التي يتمتع بها الذين قتلوا في سبيل الله، وأكد الله هذه الحقيقة في سورة آل عمران، من خلال نفي وصف الموت عن الذين قتلوا في سبيله، وإثبات الحياة لهم عند ربهم التي يرزقهم من خلالها بخير الرزق وأحسنه، وفي صحيح مسلم، باب بَيَانِ أَنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَنَّهُمْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، وفيه عن مَسْرُوقٍ، قال: (سَأَلْنَا عَبْدَ اللَّهِ

1- صحيح البخاري، كتاب التمني، باب ما جاء في التمني ومن تمنى الشهادة.

2- البقرة: 154.

3- آل عمران: 169.

- هو ابن مسعود- عن هذه الآية { وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ }⁽¹⁾ قال: أما إننا قد سألنا عن ذلك، فقال: أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأتي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا، قالوا: يا رب؛ نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا؛ حتى نُقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا.⁽²⁾

وفي سياق عرض مزايا الشهداء وخصائصهم عند ربهم، يأتي ذكر ميزة اختص بها الشهيد عن الذين فازوا بنعيم الله ورضاه وجنته، فالذي يتحقق من نيل نعيم الله في الآخرة لا يخطر بباله العودة إلى الدنيا، حتى لو كان يعيش فيها سيداً، ينعم بالخيرات، وحظي بزینتها من المال والنساء والبنين، فلا وجه للمقارنة بين نعيم الدارين، حتى لو تم نيل تمام عز الدنيا وزینتها وهو من الحال، وفي الآخرة يرضى الذين يفوزون بنعيم الآخرة بمقامهم عند ربهم، فرحين بما آتاهم ربهم من فضله، إلا أن الشهيد يزداد بما يجد في الآخرة تعلقاً بحب العودة إلى الدنيا، ولكن ليس ليحني مزيداً من خيراتها وملذاتها، وإنما ليعاود الرحيل عنها بشهادة أخرى كالتى نالها من قبل؛ وذلك لما يدركه ويلمسه من خيرات الله التي تفضل بها على الشهداء، وفي الحديث الصحيح عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (ما من نفسٍ تموتُ لها عند الله خيرٌ يسرهاُ أنها ترجعُ إلى الدنيا، ولا أن لها الدنيا وما فيها، إلا الشهيد؛ فإنه يتمنى أن يرجع فيقتل في الدنيا؛ لما يرى من فضل الشهادة).⁽³⁾

1- آل عمران: 169.

2- صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون.

3- صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى.

فراق الدنيا حق ولكن ...

كتب الله على خلقه فراق الحياة الدنيا، فذلك حق واجب لا مفر منه، إذ يقول تعالى: **{إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ}** (1)، ويقول سبحانه وتعالى: **{كُلُّ نَفْسٍ دَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ}** (2)، ويقول جل شأنه: **{كُلُّ نَفْسٍ دَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ}**. (3)

ومع هذا؛ فشتان بين فراق الدنيا بموت يجر صاحبه إلى حساب عسير، ومصير صعب، وبين فراقها إلى حياة أبدية في كنف الرحمن، ونعيمه الخالد، والله تعالى يقول في كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل: **{وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَن فِي الْقُبُورِ}** (4)، فالذين كتب الله لهم الحياة بالشهادة هم الفائزون ورب الكعبة، هم الذين تمنى الرسول، صلى الله عليه وسلم، منازلهم على الرغم من مقامه الرفيع، ومكانته السامية عند ربه، بخلاف الذين يمشون على تراب الدنيا على غير هدى الله، وخارج صراطه المستقيم، فهم في نظر المخدوع أحياء يتمتعون بما يتلذذ به الناس ويشتهون، غير أنهم في الحقيقة أموات يلبسون ثياب الأحياء، والله تعالى قال في أمثالهم: **{أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ}**. (5)

وما دام الموت حقاً، فلماذا نحرص على حياة أمر بقائها ليس بيد أحد منا؟! سلطاناً كان أم رقيقاً، غنياً أم فقيراً، ولا بأيدي مجموع الخلق، فما هم يرادّي موت استحق ولو اجتمعوا له، وقد بكت الله عتاة المنافقين حين طلب منهم محاولة القيام بدفع الموت عن أنفسهم، فقال تعالى: **{الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أِطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}**. (6)

1- الزمر: 30.

2- الأنبياء: 35.

3- العنكبوت: 57.

4- فاطر: 22.

5- النحل: 21.

6- آل عمران: 168.

فالموت إذا حانت ساعته، لا يملك أحد تأخيرها، كما لم يملك استعجالها، والله تعالى يقول: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} (1)، حتى إن الرسول، صلى الله عليه وسلم، لم يعط حق تحديد أجله، فقال تعالى: {قُلْ لَا أَمَلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} (2)، ولا يعجل بالموت الاستبسال في قتال، أو التعرض له، ولا تؤخره كذلك أساليب الوقاية، ووسائل الحرص، والحذر، والحماية، مهما بلغت تقنياتهما، فإله تعالى يقول وقوله الحق: {...يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}. (3)

ومما ورد في أسد الغابة عن رحيل القائد المغوار الصحابي الجليل خالد بن الوليد، سيف الله المسلول، أنه لما حضرته الوفاة قال: (لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها، وما في بدني موضع شبر إلا وفيه ضربة، أو طعنة، أو رمية، وها أنا أموت على فراشي كما يموت العير، فلا نامت أعين الجبناء، وما من عمل أرجو منه لا إله إلا الله، وأنا متترس بها). (4)

فطوبى للذين يقتلون في سبيل الله، فهم عند ربهم أحياء يرزقون، وهم الذين تأتي جراحهم تشخب دمًا، يشبه طبيعة الدماء في اللون، لكنه يختلف عن سائرهما بالرائحة الزكية التي تفوح منه، وعن هذه الحقيقة يخبر الصحابي الجليل أبو هريرة، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (لَا يُكَلِّمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَاللَّهِ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِهِ، إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجَرْحُهُ يَتَّعَبُ، اللَّوْنُ لَوْ نُ دَمٌ، وَالرِّيحُ رِيحُ مِسْكِ). (5)

1- الأعراف: 34.

2- يونس: 49.

3- آل عمران: 154.

4- أسد الغابة، 137/2-138.

5- صحيح مسلم، كتاب الإمامة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله.

تاريخ القتل يعيد نفسه

تعرض القرآن الكريم في سياق آياته الكريمة التي سردت قصص بني إسرائيل، وما واجهوه من ظلم فرعون وزبانيته، حيث كان بنو إسرائيل وقتها في صف الإيمان، وفرعون في صف الظلم والطغيان، فقتل رجالهم، واستحيا نساءهم، فبين القرآن الكريم حقائق بني إسرائيل التاريخية والواقعية؛ لتذكيرهم بها، حيث قال تعالى: {وَإِذْ أَخْبَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ}.⁽¹⁾

ويبدو أن العبرة لم تؤخذ على الوجه المطلوب، فها هي مجازر الظلمة تنال من وجود الأطفال، والشيوخ، والنساء، والأمينين في بيوتهم ومسكنهم، فتزهق أرواحهم، وتُراق دماؤهم الزكية على مرأى من أعين العالمين وسمعهم، دون أن يجد الظالمون رادعاً يلجم استسهالهم ممارسة القتل البشع دون رادع من قانون ولا قيم، والله تعالى كتب على بني إسرائيل تبعات قتل النفس البريئة في صورة تقشعر من خشيتها الأبدان، فقال تعالى: {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ}.⁽²⁾

فما هي الجريمة التي اقترفتها عائلة الدلو في غزة حتى تباد عن بكرة أبيها؟! وأين العالم الحر والمتشدقون بحقوق الإنسان، والأطفال، والنساء من الجرائم التي تقترف ضدهم في وضح النهار، وأمام الفضائيات؟! حيث حصد القصف الأعمى في بضعة أيام أرواح ما يزيد عن 164 شهيداً، بينهم 42 طفلاً، و12 امرأة، و15 مسناً، فيما زاد عدد الجرحى عن الألف جريح، أكثر من ربعهم من الأطفال، وعدد من النساء، وما يزيد عن سبعين جريحاً مسناً.

1- الأعراف: 141.

2- المائدة: 32.

ومن المؤكد حسب سيرة أصحاب هذا العدوان الغاشم أن استهداف أرواح الأبرياء، وإزهاق أرواح الأطفال لم يبدأ بمحمد الدرة، ولن يقف عند عائلة الدلو، التي استشهد أحد عشر نفرًا من أفرادها، معظمهم من الأطفال، حيث تبعها عائلة حجازي، وعشرات الأطفال والنساء والشبان والشيخ، فيشيب قلب الناظر البريء قبل شعره من مشاهدة صورهم، وقد فقدوا الحياة الدنيوية مضرجين بدمائهم، إلا أن الذين قست قلوبهم، وفاق الحجارة في قسوتها، يبدو أنهم يشاهدون جرائم قتل الأطفال والنساء، دون أن يشعروا بألم أو حسرة، وبالتالي يبررون هذه الجرائم، ويدافعون بجرارة عن مقترفيها؛ لأنهم كما يبدو لم يعودوا يفرقون بين تلك المشاهد وبين أفلام الكرتون، أو مسلسلات التسلية والرعب، التي يحرص على مشاهدتها بعض الناس من هواة أفلام الرعب والإثارة، على سبيل الاستمتاع، وقضاء أوقات الفراغ، أو بدوافع أخرى، كما أن فئات من أناس هذا الزمان أعماهم الحقد، وأضلهم الشيطان إلى أبعد الحدود التي وصلوا فيها إلى استساغة الظلم، ومساعدة الطغاة والجبابة، غير أن الله ليس بغافل عما يعملون، ويكيدون، ويمكرون، وهو القائل سبحانه في علاه: **{وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ}**.⁽¹⁾

فحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا الكريم، الذي تمنى الشهادة في سبيل الله، وأبان فضل الذين يقتلون في هذا السبيل القويم، وصلى الله على آله الكرام، وأزواجه الطاهرات، وعلى أصحابه الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

الرسول الأُسوة محمد صلى الله عليه وسلم يُحَدِّثُ عَنْ بَعْضِ آيَاتِ اللَّهِ الْبَاهِرَةِ فِي إِسْرَائِهِ

ورد في صحيح البخاري باب حديث الإسراءِ وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى} (1)، وفيه عن جَايِرَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، رضي الله عنهما، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: (لَمَّا كَذَبَنِي قُرَيْشٌ؛ قُمْتُ فِي الْحِجْرِ، فَجَلَا اللَّهُ لِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ، فَطَفِقْتُ أُخْرِجُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ، وَأَنَا أَنْظَرُ إِلَيْهِ). (2)

يُذَكِّرُ عِنْوَانَ هَذَا الْبَابِ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ بِالْإِخْبَارِ الْقُرْآنِيِّ عَنْ مَعْجَزَةِ الْإِسْرَاءِ، الَّتِي جَاءَتْ فِي فَاتِحَةِ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ، أَمَا الْحَدِيثُ الْمَذْكُورُ أَعْلَاهُ، الَّذِي وَرَدَ تَحْتَ هَذَا الْبَابِ، فَيُخْبِرُ عَنْ بَعْضِ تَدَاعِيَاتِ الْإِخْبَارِ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ الرَّبَّانِيِّ الْعَظِيمِ، فَغَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ اسْتَصْعَبُوا تَصَدِيقَ خَبْرِهِ، فَطَلَبُوا مِنَ الرَّسُولِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الدَّلِيلَ عَلَيْهِ، فَأَظْهَرَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، فَأَخَذَ يُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ، وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ بِقُدْرَةِ اللَّهِ وَعَوْنِهِ.

ويذكر العيني في عمدة القاري أن هذه الرواية جاءت بلفظ كذبتني، وورد في روايات أخرى بلفظ كذبتني؛ بزيادة تاء التانيث؛ أي كذبتني في الإسراء، وقوله: (قُمْتُ فِي الْحِجْرِ) بكسر الحاء، وهو ما تحت ميزاب الرحمة، وهو من جهة الشام.

وقوله: (فَجَلَا اللَّهُ لِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ): أي كشف الحجب بيني وبينه حتى رأيتَه. وفي صحيح مسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: (قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَقَدْ رَأَيْتَنِي فِي الْحِجْرِ وَقُرَيْشٌ تَسْأَلُنِي عَنْ مَسْرَائِي، فَسَأَلْتَنِي عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لَمْ أُثْبِتْهَا، فَكُرِبْتُ كُرْبَةً مَا كُرِبْتُ مِثْلَهُ قَطُّ، قَالَ: فَرَفَعَهُ اللَّهُ لِي أَنْظَرُ إِلَيْهِ مَا يَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْبَأْتَهُمْ بِهِ...). (3)

1- الإسراء: 1.

2- صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب حديث الإسراء.

3- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب ذكر المسيح بن مريم والمسيح الدجال.

وقوله: (فَرَفَعَهُ اللهُ)، يدل قطعاً على أن الله رفع بيت المقدس ووضعه بين يدي رسوله الكريم، صلى الله عليه وسلم، ولا استحالة في ذلك، فقد أحضر عرش بلقيس في طرفة عين. فَطَفِقُ - بكسر الفاء وسكون القاف، وهو من أفعال المقاربة - ومعناه الأخذ في الفعل، أي شرع عليه الصلاة والسلام يخبرهم عن علامات بيت المقدس وأوضاعه وأحواله. (1)

فهذه آية عظيمة دالة على قدرة الله تعالى من ناحية، ودالة من ناحية أخرى على تكريم الله لرسوله، صلى الله عليه وسلم، وتأييده بالآيات الباهرة التي تفوق مدارك البشر وتصوراتهم وقدرات عقولهم، فإن يأتي الله ببيت المقدس ويضعه بين يدي رسوله، صلى الله عليه وسلم، ليتمكن من وصفه، والإجابة عن أسئلة الممتحنين لصدق إخباره عن الإسراء إليه، لا شك أن في ذلك آية لكل صاحب بصر وبصيرة، إلا المعاندين الجاحدين، ممن لا تنفع معهم الآيات، ولا تلين لدلالاتها عقولهم.

وعن ابن عباس، رضي الله عنهما، في قوله تَعَالَى: {وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ} قال: (هِيَ رُؤْيَا عَيْنٍ أَرِيهَا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَيْلَةَ أُسْرِي بِهِ إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ. قال: {وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ} قال: هِيَ شَجَرَةُ الرُّقُومِ). (2)

فمعجزة الإسراء كانت آية من الآيات الربانية، ساند بها الله دعوة رسوله محمد، صلى الله عليه وسلم، الذي بعثه للعالمين بشيراً ونذيراً.

شق صدره قبيل الإسراء

ومن الآيات الربانية الباهرة التي جاءت في مرحلة التمهيد لرحلة الإسراء والمعراج، تلك الآية الخاصة بشق صدره، صلى الله عليه وسلم، بما تمثله من حقيقة ورمزية في آن واحد؛ لإخراج حظ الشيطان منه، وقد تكرر حدوث هذه الآية ثلاث مرات في حياته، صلى الله عليه وسلم، إذ وقعت له وهو طفل في بيت مرضعته حليلة السعدية، وقبل بعثته بالرسالة الربانية، وقبل إسرائه ومعراجه، فورد في صحيح البخاري، باب المِعْرَاجِ، وفيه عن أنس ابن

1- عمدة القاري، 20/17، بتصرف.

2- صحيح البخاري، كتاب القدر، باب {وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ}.

مَالِكٍ، عَنْ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَدَّثَهُمْ عَنْ لَيْلَةِ أُسْرِي بِهِ، بَيْنَمَا أَنَا فِي الْحَطِيمِ - وَرَبَّمَا قَالَ: فِي الْحِجْرِ - مُضْطَجِعًا، إِذْ أَتَانِي آتٍ، فَقَدَّ قَالَ وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: فَشَقَّ مَا بَيْنَ هَذِهِ إِلَى هَذِهِ، فَقُلْتُ لِلْجَارُودِ وَهُوَ إِلَى جَنِّي: مَا يَعْنِي بِهِ؟ قَالَ: مِنْ ثُعْرَةٍ نَحَرِهِ إِلَى شِعْرَتِهِ، وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: مَنْ قَصَّهِ إِلَى شِعْرَتِهِ، فَاسْتَخْرَجَ قَلْبِي، ثُمَّ أُتِيَتْ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءَةٍ إِيمَانًا، فَعُسِلَ قَلْبِي، ثُمَّ حُشِيَ، ثُمَّ أُعِيدَ...⁽¹⁾).

جاء في عمدة القاري: أن المراد بالخطيم هنا الحجر على الأصح، وقال النضر: إنما سمي الحجر حطيماً؛ لأن البيت رفع وترك ذلك محطوماً، فجاءه جبريل، عليه الصلاة والسلام، فشق صدره، ويصف الراوي للجارود - بضم الراء وهو أحد التابعين - عملية الشق هذه، فيبين أنها كانت من ثغرة النحر التي بين الترقوتين إلى عانته. وقوله: (من قَصَّهِ) - بفتح القاف وتشديد الصاد - وهو رأس الصدر.

وقد استنكر بعضهم وقوع شق الصدر ليلة المعراج، وقال: إنما كان ذلك وهو صغير في بني سعد، وردَّ بأنه ثبت شق الصدر أيضاً عند البعثة، ثم وقع أيضاً عند إراحة العروج إلى السماء، ولا إنكار في ذلك؛ لكونه من الأمور الخارقة للعادة؛ لصلاحية القدرة، وإظهار المعجزة، ثم الحكمة في الأول وهو في حال الطفولة لينشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان، ولهذا قال في حديث أنس عند مسلم: (... فَقَالَ: هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ ...) ⁽²⁾، وذلك العلقة التي أخرجها، وفي الثاني - أي عند البعث - ليتلقى ما يوحي إليه بقلب قوي في أكمل الأحوال. وفي الثالث - عند العروج إلى السماء - ليتأهب للمناجاة.

قوله: (بِطَسْتٍ) - بفتح الطاء وكسرها، وسكون السين - وإنما خص الطست لكونه أشهر آلات الغسل عرفاً، وخص الذهب لكونه أغلى الأواني الحسية وأصفاها، ولأن للذهب خواص ليست لغيره، وهي أنه لا تأكله النار، ولا يبليه التراب، ولا يلحقه الصدأ، وهو

1- صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب المعراج.

2- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلى السماوات وفرض الصلوات.

أثقل الجواهر، فناسب ثقل الوحي، وقيل: إنه مخصوص بأحوال الدنيا، وما وقع في تلك الليلة يلحق بأحكام الآخرة؛ لأن الغالب أنه من أحوال الغيب.

وقوله: (مَمْلُوءَةٌ) صفة الطست، فهو يؤنث باعتبار الآنية، وتعقيماً على قوله عن الطست بأنها مملوءة، قال النووي: معناه أن الطست كان فيه شيء تحصل به زيادة في كمال الإيمان، وكمال الحكمة. وقال البيضاوي: لعل ذلك من باب التمثيل؛ إذ تمثيل المعاني قد وقع كثيراً، كما مثلت له الجنة والنار في عرض الحائط، وفائدته كشف المعنوي بالمحسوس.

قوله: (فَغَسِلَ قَلْبِي) وفي رواية لمسلم (فاستخرج قلبي فغسل بماء زمزم)⁽¹⁾، وفيه فضيلة ماء زمزم على جميع المياه.⁽²⁾

وصف وسيلة سفره في رحلة الإسراء

ومن الآيات الربانية المذهلة التي تجلت في رحلة الإسراء، حركة ذلك المركب الذي ركبه النبي، صلى الله عليه وسلم، في إسرائه من المسجد الحرام في مكة، إلى المسجد الأقصى في القدس، وعودته بسرعة فاقت كل معهود، ولم يتمكن ذلك المركب من مكونات تؤهله للقيام بهذه المهمة على هذا الوجه، سوى قدرة الله التي أهلته ليكون آية عظيمة في دلالتها، ففي حديثه، صلى الله عليه وسلم، الصحيح عن إسرائه، يقول: (...ثُمَّ أُتِيْتُ بِدَابَّةٍ دُونَ الْبَعْلِ، وَفَوْقَ الْحِمَارِ، أبيض، فقال له الجارود: هو البراق يا أبا حمزة، قال أنس: نعم؛ يضع خطوه عند أقصى طرفه، فحملت عليه...)⁽³⁾.

يذكر العيني أن الحكمة في أنه أتى بدابة، فلم تطو له الأرض تأنيساً له بالعادة في مقام خرق العادة، وأيضاً أن الملك إذا طلب من يحبه يبعث إليه مركوباً، ويضيف أن طي الأرض يشترك فيه الأولياء، بخلاف المركوب الذي يقطع المسافات البعيدة براكبه أسرع من طرفة العين، فإنه مخصوص بالأنبياء، عليهم السلام.

1- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلى السماوات وفرض الصلوات.

2- عمدة القاري، 23/17-24، بتصرف.

3- صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب المعراج.

وأن الحكمة في كون هذه الدابة دون البغل وفوق الحمار الإشارة إلى الإسراع الشديد بدابة لا توصف بذلك في العادة، أو باعتبار أن الركوب كان في سلم وأمن، لا في حرب وخوف.

وقوله: (أَبْيَضَ) صفة دابة، والتذكير باعتبار أنها البراق، أو باعتبار أنها المركوب، وكونه أبيضَ باعتبار أنه أصل الألوان، أو باعتبار أنه صلى الله عليه وسلم كان يحب البياض. ويبين هذا الحديث أن من صفات هذا البراق أنه يضع خَطْوَهُ - بفتح الخاء - وهو المرة، وبالضم بُعد ما بين القدمين في المشي. وقوله: (طَرَفِهِ) - بفتح الطاء وسكون الراء وبالفاء - وهو نظر عينه، فإنه يضع خطوه عند منتهى ما يرى بصره، وهذا يدل على أنه كان يمشي على وجه الأرض، ولكن بالمشي الموصوف. (1)

فهذه وقفة بمناسبة ذكرى الإسراء والمعراج عند بعض آيات الله الباهرة، التي تجلت فيها القدرة الربانية الدالة على وحدانية الله في القدرة المطلقة، والمؤكد على حقيقة أن الله إذا أراد أمراً فإنما يقول له كن فيكون، ولكن الغافلين من الناس لا يعلمون، فلا غرابة أن يكون منهم الاستهجان لما ذكر، وهم لا يفقهون هذه الآيات الثابتة؛ لأنها لا تخضع لمعاييرهم العقلية إذا غاب عنها الإيمان المطلق بالله وقدرته ومشيبته سبحانه وتعالى، نفعنا الله وعباده بهذا التذكير، وصلى الله على نبينا الكريم، وأسوتنا محمد بن عبد الله، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الرسول الأُسوة محمد صلى الله عليه وسلم

كفاه الله المستهزئين

يخاطب الله تعالى رسوله الكريم محمد، صلى الله عليه وسلم، مكلفاً إياه بتبليغ ما أوحى إليه من الهدى، مع وعده بالتصدي لمناهضيه والمستهزئين به، فقال تعالى: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ* إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ* الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ* وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ* فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ* وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} (1).

فالأمر الإلهي في مطلع هذه الآيات الكريمة يقتضي التوجه نحو الجهر بدعوة الإسلام علناً، بعد أن سبق ممارستها بالسر والخفاء، ويشير سياق هذه الآيات إلى ما ستؤول إليه الأمور جراء هذا الجهر، حيث سينتصر للباطل أهله، الذين سيقفون في وجه الدعوة بكل ما أوتوا من قوة، والمستهزئون على نهج سيدهم إبليس لن يتعاملوا مع الدعوة حضارياً، ولن يتركوا حاملها - وعلى رأسهم الرسول، صلى الله عليه وسلم - وشأنهم، بل سيتفننون في استحداث أساليب الأذى ووسائله ضدهم، على درب الشيطان الذي استأذن الله تعالى بأن يقعد للناس صراطهم المستقيم، وتحدث عن أهدافه وطموحه، حين أفصح عن حرصه على إغواء الخلق، ففي معرض الإخبار عن صغار إبليس وكيدته للناس، ومكره لهم، يقول تعالى: {قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ* قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يَعْثُونَ* قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ* قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ* ثُمَّ لَأَنبِئَهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ* قَالَ أَخْرَجْنَا مِنْهَا مَذْجُورًا مَّدْحُورًا لَمَنِ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ} (2).

1- الحجر: 99-94.

2- الأعراف: 18-13.

العناية الإلهية تحف الدعوة وحاملها

يوجه القرآن الكريم نبي الله، صلى الله عليه وسلم، ليعرض عن المشركين، مشيراً بذلك إلى أن هناك مواجهة حتمية، ستكون بين الرسول، صلى الله عليه وسلم، والمشركين في سياق الصراع بين الحق والباطل، بين الكفر والإيمان، غير أن العناية الإلهية ستحف النبي، صلى الله عليه وسلم، ورسالته والمؤمنين خلال مواجهة المستهزئين بها، والمعتدين على حملتها؛ مصداقاً لوعد رباني قدمه لنبيه الكريم، صلى الله عليه وسلم، في أكثر من موضع قرآني وسياق، فطمأنه الله في الآيات سالفة الذكر إلى توليه سبحانه وتعالى حمايته من فئة المستهزئين، فقال تعالى: {إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ} ⁽¹⁾، مما يعني أن الله عز وجل كفى نبيه، صلى الله عليه وسلم، المستهزئين الذين كانوا يستهزؤون به، وهم قوم من قريش الذين كان منهم الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والحارث بن قيس السهمي، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب، الذين أهلكهم الله بصور مختلفة، يجمعها قاسم مشترك، تمثل في القدرة الربانية على البطش بهم، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

قال الرازي: واعلم أن المفسرين اختلفوا في عدد هؤلاء المستهزئين، وفي أسمائهم، وفي كيفية طريق استهزائهم، ولا حاجة إلى شيء منها، والقدر المعلوم أنهم طبقة لهم قوة، وشوكة، ورياسة؛ لأن أمثالهم هم الذين يقدر على إظهار مثل هذه السفاهة مع مثل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في علو قدره، وعظم منصبه، ودل القرآن الكريم على أن الله تعالى أفناهم، وأبادهم، وأزال كيدهم، والله أعلم. ⁽²⁾

موضع نصره الجماهير من كفاية المستهزئين

كما كفى الله نبيه، صلى الله عليه وسلم، المستهزئين من قريش، فسيكفيه بقدرته وجبروته المستهزئين في كل زمان ومكان، ومن صور هذه الكفاية الربانية ما يشاهده أهل هذا الزمان، الذي شهد محاولات بائسة للإساءة للرسول، صلى الله عليه وسلم، ودينه،

1- الحجر: 95.

2- مفاتيح الغيب، الرازي، 171/19.

وقرآنه، وأزواجه، وصحابته الغر الميامين، فقد سَخَّرَ اللهُ جموعاً عظيمة من الناس في شتى أنحاء المعمورة من العرب والعجم؛ ليهبوا بعفوية، ومواقف صلبة؛ نصره لنبيهم الكريم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، مرددين: لبيك رسول الله... نحن فذاك...، إلا رسول الله...، معبرين بذلك عن عمق حبهم لنبيهم، صلى الله عليه وسلم، كيف لا؟! وهم يجيئون رسولهم أكثر من حبهم لأنفسهم، وأهليهم، وولدهم، والناس أجمعين؛ انطلاقاً من إيمانهم الراسخ بالتعبد إلى الله عز وجل بهذا الحب، وقد أُشْرِبُوا في قلوبهم أن إيمانهم لا يكتمل إلا إذا كان هذا الحب على هذا المستوى الرفيع، والمكانة العلية، مستحضرين حديثه صلى الله عليه وسلم، حين حاوره عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، حول هذا الحب، ففي الحديث الصحيح عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ هِشَامٍ، قَالَ: (كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الْآنَ، وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْآنَ يَا عُمَرُ).⁽¹⁾

الحماية الربانية الدائمة

تكرر في القرآن الكريم ذكر الوعد الإلهي للنبي، صلى الله عليه وسلم، بالتكفل بحمايته من المستهزئين، ففي الموقف من الذين استدبروا صف الإيمان، واختاروا نهج الكفر به، والتحفوا سبيل الظلام، أكد الله تعالى وعده لرسوله، صلى الله عليه وسلم، بحمايته من كيدهم، ومكرهم، وأذاهم، فقال تعالى: {فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}.⁽²⁾

وحين تكون الحماية ربانية، فلا خوف ولا رهب، فمهما تعاضمت قوة البشر لن تكون ذات بال أمام عظمة الله وقدرته، لذلك طمأن الله نبيه، صلى الله عليه وسلم، وأتباعه

1- صحيح البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي، صلى الله عليه وسلم.

2- البقرة: 137.

المؤمنين برسالته، فقال تعالى: { أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ } (1).

فما كان للرسول، صلى الله عليه وسلم، ومن تبعه من المؤمنين أن يكفوا عن حمل دعوتهم، وتبليغ رسالة ربهم للعالمين؛ انهزاماً من كيد الناس، ومكرهم، وشدة أذاهم، فالرسالة من الله، وحملها واجب فرضه الله، الذي تكفل بانتصارها وبقائها، وحماية أتباعها وحملتها، فقال تعالى: { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } (2).

وما جرى من صور الأذى الذي ألحقه الكافرون بالأنبياء وأتباعهم، ويجند الحق عبر الزمان، إنما جاء ويأتي في سياق ابتلاء الإيمان، وتمحيص الصديق، وحتمية الصراع الأزلي بين الحق والباطل، غير أن العبرة بالخواتيم، وعواقب الأمور، والمؤمن على يقين دائم أن الأمر كله لله، وليس لأحد سواه، وهو القائل سبحانه وتعالى: { قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنْ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا } (3).

العبادة في مواجهة المستهزئين

يبين الله في قوله تعالى: { وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ } (4)، أنه سبحانه يعلم أن نبيه، صلى الله عليه وسلم، يضيق صدره باستهزاء الكفار به، وتكذيبهم رسالته، والكفر بكتابه الذي جاء به من ربه عز وجل، وذكر القرآن الكريم بعض ما كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، يجد من قومه، فكان يجزن لكفرهم، وتكذيبهم، وسوء قولهم، وفي ذلك يقول تعالى: { قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ } (5)، ويقول سبحانه: { فَلَعَلَّكَ

1- الزمر: 36.

2- المائدة: 67.

3- الأحزاب: 17.

4- الحجر: 97.

5- الأنعام: 33.

تَارِكُ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلِكٌ⁽¹⁾، ويقول جل شأنه: {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا}⁽²⁾، ويقول تعالى: {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}⁽³⁾، فهذه بعض الآيات القرآنية التي تشير إلى ما يعترى النبي، صلى الله عليه وسلم، نفسياً من ردود الناس السلبية تجاه دعوته، التي جاء ليلغها إياهم؛ لينقذهم بها من الظلمات إلى النور.

وحيال ذلك نزل القرآن الكريم يواسي الرسول، صلى الله عليه وسلم، ويوجهه لما يُعينه على تحمل سوء صنيع المستهزئين والجاحدين من قومه؛ فأرشده الله إلى توثيق الصلة به سبحانه، من خلال العبادة، والتسبيح، والحمد، وفي التفسير الكبير أن الله تعالى لما ذكر أن قوم النبي، صلى الله عليه وسلم، يسهون عليه، ولا سيما أولئك المقتسمون، وأولئك المستهزئون، قال له: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ}⁽⁴⁾؛ لأن الجبلة البشرية، والمزاج الإنساني، يقتضيان ذلك، فعند هذا قال له: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ}⁽⁵⁾، فأمره بأربعة أشياء؛ بالتسبيح، والتحميد، والسجود، والعبادة، واختلف الناس في أنه كيف صار الإقبال على هذه الطاعات سبباً لزوال ضيق القلب والحزن؟ فقال العارفون المحققون: إذا اشتغل الإنسان بهذه الأنواع من العبادات، انكشفت له أضواء عالم الربوبية، ومتى حصل ذلك الانكشاف، صارت الدنيا بالكلية حقيرة، وإذا صارت حقيرة، خف على القلب فقدانها ووجدانها، فلا يستوحش من فقدانها، ولا يستريح بوجدانها، وعند ذلك؛ يزول الحزن والغم، وقالت المعتزلة: من اعتقد تنزيه الله تعالى عن القبائح، سهل عليه تحمل المشاق، فإنه يعلم أنه عدل منزّه عن إنزال المشاق به من غير غرض ولا فائدة، فحينئذ يطيب قلبه،

1- هود: 12.

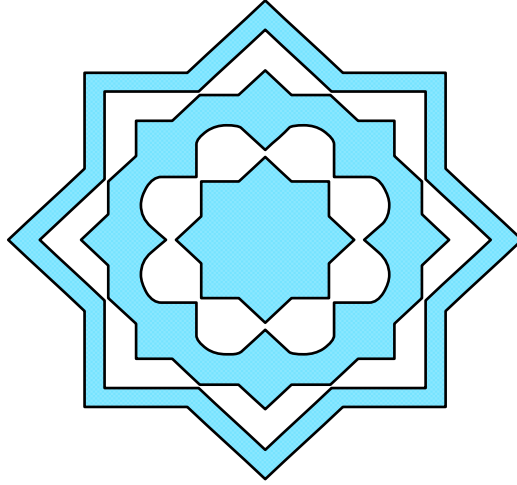
2- الكهف: 6.

3- الشعراء: 3.

4- الحجر: 97.

5- الحجر: 98.

وقال أهل السنة: إذا نزل بالعبد بعض المكاره، فزرع إلى الطاعات، كأنه يقول: تجب عليّ
عبادتك سواء أعطيتني الخيرات أم ألقيتني في المكروهات.⁽¹⁾
سائلين الله العليّ القدير أن يكشف عنا البلاء، وأن يرفع رايات ديننا ولو كره
الكافرون، ورغم أنف الحاقدين المستهزئين، إنه سبحانه بالإجابة قدير.
وصلّى الله وسلّم وبارك على حبيبنا، ومهجة قلوبنا محمد، عبد الله ورسوله، وخاتم
أنبيائه، وعلى آله الكرام وأزواجه الطاهرات، وأصحابه الأخيار، ومن سار على دربهم
ونهجهم بإحسان إلى يوم الدين.



1- مفاتيح الغيب، الرازي، 171/19.

الفصل الثاني

ذكرى مولد الرسول ﷺ وهجرته

30	ومضات من خصائصه في ذكرى مولده ﷺ	5.
36	يربط الهجرة بالامتثال لأمر الله وحسن جزائه ﷺ	6.

الرسول الأُسوة محمد صلى الله عليه وسلم

ومضات من خصائصه في ذكرى مولده

يستذكر المسلمون كل عام في الثاني عشر من ربيع الأول ذكرى ميلاد الرسول، صلى الله عليه وسلم، وبهذه المناسبة المباركة، يحسن التذكير بومضات من خصائصه صلى الله عليه وسلم، باستحضار شواهد مما تيسر من آيات القرآن الكريم، وأخبار السنة النبوية المطهرة الصحيحة، التي تضمنت بياناً لفضل نسبه صلى الله عليه وسلم، وصفاته الجسدية والبدنية، وذكر مبعثه وسنه، وخبره لدى الأمم السابقة، والبيشارة به عندهم، وتفضيله على الخلق، وأنه بعث بمكارم الأخلاق للخلق كافة، إنهم وجنهم، وختم الله به النبيين والمرسلين، وكانت بعثته في خير القرون مقترنة بالساعة.

فَضْلُ نَسَبِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

جاء في صحيح مسلم، بَاب (فَضْلِ نَسَبِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَسْلِيمِ الْحَجَرِ عَلَيْهِ قَبْلَ النَّبُوَّةِ)، وفيه عن وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ).⁽¹⁾

وأورد البخاري في صحيحه ضمن كتاب: "مناقب الأنصار" باباً تضمن في عنوانه تسلسل اسم الرسول، صلى الله عليه وسلم، ونسبه، فجاء الباب بعنوان: (مَبْعَثُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ بْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلَابِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ بْنِ غَالِبِ بْنِ فِهْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إِيَّاسَ بْنِ مُضَرَ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ).⁽²⁾

1- صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي، صلى الله عليه وسلم، وتسليم الحجر عليه قبل النبوة.

2- صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مبعث النبي، صلى الله عليه وسلم.

أسماء النبي محمد، صلى الله عليه وسلم

ورد في صحيح البخاري باب (ما جاء في أسماء رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {مُحَمَّدٌ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ} (1) وَقَوْلِهِ: {مَنْ بَعَدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} (2)، وتضمن هذا الباب قول رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (لي خَمْسَةٌ أَسْمَاءٍ؛ أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاجِي، الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِي الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ، الَّذِي يُحَشِّرُ النَّاسَ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا الْعَاقِبُ). (3)

وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (أَلَا تَعْجَبُونَ كَيْفَ يَصْرِفُ اللَّهُ عَنِّي شَتْمَ قُرَيْشٍ وَلَعْنَهُمْ، يَشْتِمُونَ مُدْمَمًا، وَيَلْعَنُونَ مُدْمَمًا، وَأَنَا مُحَمَّدٌ). (4)

فهذه أسماء النبي، صلى الله عليه وسلم، كما وردت في السنة الصحيحة، والتي ورد في القرآن الكريم ذكر بعضها، حيث ذكر اسم أحمد في الآية السادسة من سورة الصف، وأطلق اسم محمد على إحدى السور القرآنية، وذكر في سياق أربع آيات من أربع سور قرآنية؛ وهي على النحو الآتي: آل عمران: 144، والأحزاب: 40، ومحمد: 2، والفتح: 29.

خبره لدى الأمم السابقة

ورد في الروايات الصحيحة أن هرقل عظيم الروم عقب على إجابات أبي سفيان عن أسئلته حول صفات النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، قائلاً: (... فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا، فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمِي هَاتَيْنِ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ، فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ، لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ، لَعَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ، ثُمَّ دَعَا

1- الفتح: 29.

2- الصف: 6.

3- صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

4- صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

يَكْتَابُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الَّذِي بَعَثَ بِهِ دَحِيَّةً إِلَى عَظِيمِ بُصْرَى، فَدَفَعَهُ إِلَى هِرْقَلٍ، فَقَرَأَهُ، فَإِذَا فِيهِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ...⁽¹⁾، مما يدل على أنه كان لدى هرقل علم سابق بصفات النبي، صلى الله عليه وسلم، والتبشير به، من خلال ما جاءت به الكتب السماوية السابقة، وقد أخبر القرآن الكريم عن بعض ما ورد على ألسنة الأنبياء السابقين من بشارة بالرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِيهِ مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ⁽²⁾}.

صِفَةُ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَسِنِّهِ، وَالْمَدَى الزَّمَنِيِّ لِبَعَثِهِ فِي مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ

ورد في كتب صحيح الحديث الشريف ذكر بعض صفات الرسول، صلى الله عليه وسلم، الشخصية والبدنية، والعمر الزمني الذي قضاها قبل قبض روحه الطاهرة، إضافة إلى بيان عدد السنين التي قضاها في مكة المكرمة بعد البعثة، وعددها في المدينة المنورة بعد الهجرة إليها، إلى أن توفاه الله تعالى، فجاء في صحيح مسلم، باب (في صِفَةِ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَبْعَثِهِ وَسِنِّهِ)، وفيه عن أنس بن مالك، أَنَّهُ سَمِعَهُ يَقُولُ: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَيْسَ بِالطَّوِيلِ الْبَائِنِ، وَلَا بِالْقَصِيرِ، وَلَيْسَ بِالْأَبْيَضِ الْأَمْهَقِ، لَا بِالْأَدَمِ، وَلَا بِالْجَعْدِ الْقَطَطِ، وَلَا بِالسَّيْطِ، بَعَثَهُ اللَّهُ عَلَى رَأْسِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَأَقَامَ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ، وَبِالْمَدِينَةِ عَشْرَ سِنِينَ، وَتَوَفَّاهُ اللَّهُ عَلَى رَأْسِ سِتِّينَ سَنَةً، وَلَيْسَ فِي رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ عَشْرُونَ شَعْرَةً بَيْضَاءً).⁽³⁾

1- صحيح البخاري، كتاب الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

2- الصف: 6.

3- صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب في صفة النبي، صلى الله عليه وسلم، ومبعثه وسنه.

والأمهق: الأبيض الشديد البياض، الذي لا يخالط بياضه شيء من الحمرة، وليس بنير، ولكن كلون الجص أو نحوه. والآدم: من الناس: الأسمر. والجعد القطط: الشديد الجعودة. والسبط: من الشعر: المنبسط المسترسل. (1)

وعن أنس بن مالك، قال: (قُبِضَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ، وَأَبُو بَكْرٍ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ، وَعُمَرُ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ). (2)

وعن ابن عباس، (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَكَثَ بِمَكَّةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ، وَتُوُفِّيَ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ). (3)

وعنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تُوُفِّيَ، وَهُوَ ابْنُ خَمْسٍ وَسِتِّينَ. (4)

فالروايات الصحيحة أعلاه اختلفت في تحديد سنة صلى الله عليه وسلم حين وفاته، واختلفت كذلك في تحديد عدد السنين التي لبثها صلى الله عليه وسلم بعد البعثة، وبهذا الصدد يقول ابن حجر العسقلاني في فتح الباري: "وَأَكْثَرُ مَا قِيلَ فِي عُمُرِهِ أَنَّهُ خَمْسٌ وَسِتُّونَ سَنَةً، وَهُوَ مُغَايِرٌ لِحَدِيثِ الْبَابِ، لِأَنَّ مُقْتَضَاهُ أَنْ يَكُونَ عَاشَ سِتِّينَ، إِلَّا أَنْ يُحْمَلَ عَلَى إِلْغَاءِ الْكَسْرِ، أَوْ عَلَى قَوْلٍ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ بُعِثَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعِينَ، وَهُوَ مُقْتَضَى رِوَايَةِ عَمْرٍو بْنِ دِينَارٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ مَكَثَ بِمَكَّةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ، وَمَاتَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ "لَبِثَ بِمَكَّةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ، وَبُعِثَ لِأَرْبَعِينَ، وَمَاتَ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ"، وَهَذَا مُوَافِقٌ لِقَوْلِ الْجُمْهُورِ، وَقَدْ جَمَعَ السُّهَيْلِيُّ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ الْمَحْكِيِّينَ يُوَجِّهُ آخِرَهُ، وَهُوَ أَنَّ مَنْ قَالَ: مَكَثَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ عَدَّ مِنْ أَوَّلِ مَا جَاءَهُ الْمَلَكُ بِالنُّبُوَّةِ، وَمَنْ قَالَ: مَكَثَ عَشْرًا أَخَذَ مَا بَعْدَ فِتْرَةِ الْوَحْيِ ...". (5)

1- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت.

2- صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب كم سن النبي، صلى الله عليه وسلم، يوم قبض.

3- صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب كم أقام النبي، صلى الله عليه وسلم، بمكة والمدينة.

4- صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب كم أقام النبي، صلى الله عليه وسلم، بمكة والمدينة.

5- فتح الباري، 151/8.

بعثته وتفضيله على الخلائق

ورد في صحيح مسلم، باب (تفضيل نبيِّنا، صلى الله عليه وسلم، على جميع الخلائق)، وفيه: عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (أنا سيّد ولدِ آدمَ يوم القيامة، وأوّل من ينشقُّ عنه القبر، وأوّل شافعٍ، وأوّل مشفعٍ).⁽¹⁾

وبعث الرسول، صلى الله عليه وسلم، بمكارم الأخلاق، وكان يتمثلها، ويدعو لها، ويحث عليها، فعن عبد الله بن عمرو، رضي الله عنهما، قال: (لم يكن النبي، صلى الله عليه وسلم، فاحشاً ولا متفحشاً، وكان يقول: إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً).⁽²⁾

وفي عقيدة الإسلام أن الله ختم بالرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، النبيين وبعثه للناس كافة، مصداقاً لقوله تعالى: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا}⁽³⁾، وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: (إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً، فأحسنه، وأجملته، إلا موضع لينة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون هلا وضعت هذه اللينة، قال: فأنا اللينة، وأنا خاتم النبيين)⁽⁴⁾، وورد قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: (... وأنا العاقب، والعاقب الذي ليس بعده نبي)⁽⁵⁾، وقد بين الله تعالى بما لا يقبل التأويل، أنه أرسل الرسول محمداً، صلى الله عليه وسلم، إلى الناس كافة، وبعثه في خير القرون، فعن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: (بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً، حتى كنت من القرن الذي كنت فيه).⁽⁶⁾

1- صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا، صلى الله عليه وسلم، على جميع الخلائق.

2- صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي، صلى الله عليه وسلم.

3- الأحزاب: 40.

4- صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين، صلى الله عليه وسلم.

5- صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب في أسمائه، صلى الله عليه وسلم.

6- صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي، صلى الله عليه وسلم.

واقترنت بعثته صلى الله عليه وسلم بالساعة، حيث قال عليه الصلاة والسلام:

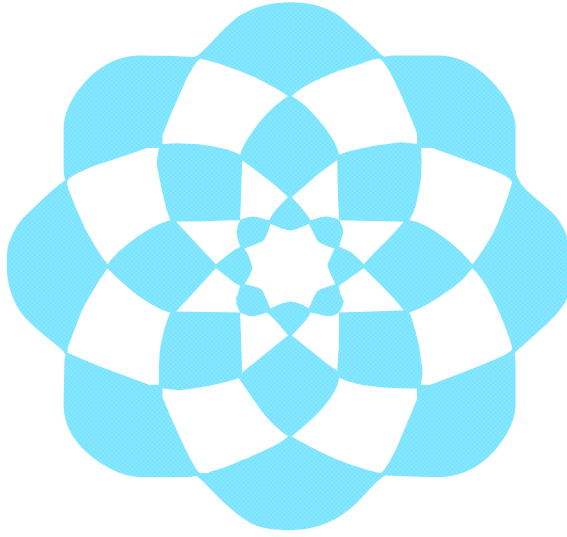
(بُعْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَيْهِ مِنْ هَذِهِ، أَوْ كَهَاتَيْنِ، وَقَرَنَ بَيْنَ السَّبَابَةِ وَالْوَسْطَى).⁽¹⁾

فهذه وقفة تذكير ببعض سيرته صلى الله عليه وسلم، بمناسبة ذكرى مولده عليه

الصلاة والسلام، عسى أن نستلهم منها المزيد من تعزيز الود والحب لرسولنا محمد ابن

عبد الله، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه وأزواجه، ومن تبعه ووالاه بإحسان إلى

يوم الدين.



1- صحيح البخاري، كتاب الطلاق، باب اللعان.

الرسول الأُسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يربط الهجرة بالامتثال لأمر الله وحسن جزائه

عن عبد الله بن عمرو، رضي الله عنهما، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (الْمُسْلِمُ من سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ من لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ من هَجَرَ ما نَهَى اللهُ عنه).⁽¹⁾

يبين الرسول، صلى الله عليه وسلم، في هذا الحديث الشريف الأصل العام لمفهوم الهجرة، فهي ترتبط ارتباطاً جذرياً بالامتثال لنهي الله تعالى، فَتَرَكُ اقتراف النواهي التي منع الله تعالى إتيانها يمثل عملية هجر لها، فالمسلم المهاجر لا يزني، ولا يشرب الخمر، ولا يغتاب، ولا يمشي بالنميمة، ولا يتجسس، ولا يقتل النفس بغير حق، ولا يسرق، ولا يغش، ولا يأكل الربا ولا يعطيه، ولا يشهد الزور، ولا يعق الوالدين، ولا يشرك بالله، ولا يترك الصلاة، ولا الصيام، ولا يتقاعس عن دفع الزكاة عند استحقاقها، ولا يختلس، ولا يكذب، ولا يهزم، ولا يسرق النظر إلى المحرمات، ولا يكشف العورات، ولا يأتي النواهي ما ظهر منها وما بطن، فإن التزم بذلك فهو المهاجر الحق، الذي أدى حق الله، وبقي له أن ينتظر حسن جزائه سبحانه وتعالى، وله في الأنصار أسوة حسنة، الذين قَدَّموا ما عليهم من واجب إيواء إخوانهم المهاجرين، وأدوا فرض نصر الدين، فانتظروا بعد ذلك الجزاء من رب العالمين، وفي الحديث الصحيح عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، يقول: (مَرَّ أَبُو بَكْرٍ وَالْعَبَّاسُ، رضي الله عنهما، بِمَجْلِسٍ من مَجَالِسِ الْأَنْصَارِ وَهُمْ يَكُونُونَ، فقال: ما يُبْكِيكُمْ؟ قالوا: ذُكِرْنَا مَجْلِسَ النَّبِيِّ، صلى الله عليه وسلم، مِنَّا، فَدَخَلَ على النبي، صلى الله عليه وسلم، فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ، قال: فَخَرَجَ النبي، صلى الله عليه وسلم، وقد عَصَبَ على رَأْسِهِ حَاشِيَةَ بُرْدٍ، قال: فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ، ولم يَصْعَدْهُ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عليه، ثُمَّ قال: أُوصِيكُمْ بِالْأَنْصَارِ؛ فَإِنَّهُمْ كَرِشِي وَعَيْيَتِي، وقد قَضَوْا الذي عليهم، وَبَقِيَ الذي لهم، فَأَقْبَلُوا من مُحْسِنِهِمْ، وَتَجَاوَزُوا عن مُسِيئِهِمْ)⁽²⁾، والمقصود

1- صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.

2- صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: اقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم.

بـ (حَاشِيَّةٌ بُرْدٌ) طرفه والبرد كساء مربع، و(كَرْشِيٌّ وَعَيْبَتِيٌّ) الكرش للحيوان المخرّ بمنزلة المعدة للإنسان، والعيبة مستودع الثياب، والمعنى إنهم بطانتي وخاصتي وموضع سري وأمانتي.⁽¹⁾

تحقق شرط الامتثال لله في الهجرة

يشير التحديد الزمني والمكاني لحدث الهجرة إلى جلاء ارتباطه بالأمر الإلهي، فالهجرة كانت من مكة بحثاً عن مأوى للدعوة الإسلامية، وأهلها، وقيادتها، وقد جرى هذا البحث من خلال هجرتين إلى الحبشة وأخرى إلى الطائف، حتى استقرَّ الأمر في نهاية المطاف بالهجرة إلى المدينة المنورة، التي كانت تسمى قبل حدث الهجرة بيثرب، فهاجر من تيسر له الأمر من السابقين الأولين، وحاول أبو بكر، رضي الله عنه، القيام بها إلا أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، كان يشير إليه بالانتظار حتى اصطحبه معه حين جاءه الأمر الإلهي بالهجرة، واللاحق بالذين سبقوه إليها، وأصبحت الهجرة فرضاً عينياً على القادر عليها، وأمر المهاجرون بالبقاء في دار الهجرة؛ لأنها أصبحت دار مقرهم، ودعا الرسول، صلى الله عليه وسلم، لأصحابه المهاجرين بالثبات على هجرتهم، ونيل أجرها الوافر، فقال في الحديث الصحيح: (اللهم أمض لأصحابي هجرتهم، ولا تردهم على أعقابهم، لكنّ البائس سعد بن خولة، يرثي له رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أن توفي بمكة).⁽²⁾

وبعد أن استقرت الأحوال أعزَّ الله الإسلام، وفتحت مكة، وعادت حاضنة للتوحيد والدعوة إليه، وألغي فرض الهجرة، فعن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: (قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا).⁽³⁾ فهذه المعطيات تدل بوضوح على أن القيام بالهجرة، واختيار زمانها ومكانها، والكف عنها، كل ذلك مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالأمر الإلهي، والانصياع إليه، وفق مستلزمات الإيمان

1- فتح الباري، 121/7.

2- صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: (اللهم أمض لأصحابي هجرتهم).

3- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل الجهاد والسير.

والإسلام، والله تعالى يقول: { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا }⁽¹⁾.

جزاء الهجرة مرهون ببواعثها ونواياها

معلوم أن الهجرة إلى دار الإسلام أضحت في مرحلة بناء دولة الإسلام الأولى فرضاً شرعياً، لم يكن بالإمكان التخلف عنها، رغم قسوة آثارها الشخصية على المهاجرين؛ بسبب ترك الأهل والعشيرة، والديار والأموال، والزرع والماشية، والذهاب إلى دار جديدة نزلوا فيها عند الأنصار، الذين أثنى الله على إيوائهم إخوانهم المهاجرين، بالاقتران مع الثناء الجزيل على الذين صدقوا الله في هجرتهم، وبالاقتران كذلك مع الثناء على الذين اقتفوا أثر هذا الصدق، والامتثال الحسن لأمر الله تعالى ممن جاءوا بعد المهاجرين والأنصار، فقال تعالى في سورة الحشر: { لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ* وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ* وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ }⁽²⁾.

وهذا الثناء مشروط بالامتثال لأمر الله بالهجرة، والإيواء، وحسن الاتباع، من قلوب مخلصة لله سبحانه وتعالى، دون تلبس بالأغراض الشخصية، والأهداف المادية، بل لا بد أن تنبعث هذه الأفعال العظيمة من إخلاص النية، وإلا فهي معرضة لأن تكون هباءً منثوراً؛ لأنها لم تكن في سبيل الله، وإن كان ظاهرها يوحي لأول وهلة بأنها جاءت انصياعاً لأمر الله، ومن خير الشواهد التي تحذر من الوقوع في هذا الخلط الفاضح، والإحباط الواضح للأعمال ما جاء في الحديث الصحيح المشهور عن الفاروق عُمَرُ بن الخَطَّابِ، رضي الله عنه، إذ قال وهو

1- الأحزاب: 36.

2- الحشر: 10-8.

يُخَاطَبُ عَلَى الْمُنْبَرِ: (سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى؛ فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهَاجَرَتْهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ).⁽¹⁾

فلا بدَّ للأعمال حتى يقبلها الله تعالى، ويجزي أصحابها خير الجزاء من أن تنطلق من حب الانصياع لله، والحرص على طاعته، وتجنب معاصيه، فإذا ما كان هذا الانطلاق، فإنَّ عين الله سترعى أصحابه وتحفظهم، مهما بلغت بهم المصاعب، وضاق عليهم الأرض بما رحبت، ومن خير الشواهد على هذه الرعاية وهذا الحفظ، ما حظي به الرسول، صلى الله عليه وسلم، وصاحبه في طريق هجرتهما، وبعد تعقبهما من الموعودين بنيل مكافأة القبض عليهما، فحين بلغ التعقب ذروته، وحوصر الغار الذي يأويهما، قال الرسول، صلى الله عليه وسلم، ما سجله القرآن الكريم لاحقاً بين سطوره المطهرة، إذ قال تعالى: {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}.⁽²⁾

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، هاجر لله، وكان على ثقة بالله، ويقين بنصره سبحانه وتعالى، فأيده الله بنصره وتوفيقه.

قصة كبت الكافر وخدم وليدة خلال هجرة إبراهيم عليه السلام

مبدأ ربط الهجرة بالامتثال لأمر الله وحسن جزائه، لم يقتصر على مرحلة رسالة الإسلام التي جاء بها النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، عن ربه، بل يمتد جذر هذا المبدأ في عمق تاريخ الرسالات الربانية، وفي بعض أطراف قصة هجرة خليل الله إبراهيم، عليه السلام، ما يدل على وجود هذا الربط وامتداده، فعن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: (قال النبي صلى الله عليه وسلم: هَاجَرَ إِبْرَاهِيمُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِسَارَةٍ، فَدَخَلَ بِهَا قَرْيَةً فِيهَا مَلِكٌ مِنَ الْمَلُوكِ،

1- صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

2- التوبة: 40.

أَوْ جَبَّارٌ مِنَ الْجَبَابِرَةِ، فَقِيلَ: دَخَلَ إِبْرَاهِيمُ بِامْرَأَةٍ هِيَ مِنْ أَحْسَنِ النِّسَاءِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ: مِنْ هَذِهِ الَّتِي مَعَكَ؟ قَالَ: أُخْتِي، ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: لَا تُكْذِبِي حَدِيثِي، فَإِنِّي أَخْبَرْتُهُمْ أَنَّكَ أُخْتِي، وَاللَّهِ إِنَّ عَلَى الْأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرِكَ، فَأَرْسَلَ بِهَا إِلَيْهِ، فَقَامَ إِلَيْهَا، فَقَامَتْ تَوَضُّأً، وَتُصَلِّي، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ آمَنْتُ بِكَ وَبِرَسُولِكَ، وَأَحْصَنْتُ فَرْجِي إِلَّا عَلَى زَوْجِي، فَلَا تُسَلِّطْ عَلَيَّ الْكَافِرَ، فَغَطُّ حَتَّى رَكَضَ بِرِجْلِهِ، قَالَ الْأَعْرَجُ: قَالَ أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ: إِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَتْ: اللَّهُمَّ إِنْ يَمُتُ يُقَالُ: هِيَ قَتَلَتْهُ، فَأَرْسَلَ، ثُمَّ قَامَ إِلَيْهَا، فَقَامَتْ، تَوَضُّأً، تُصَلِّي، وَتَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ آمَنْتُ بِكَ وَبِرَسُولِكَ، وَأَحْصَنْتُ فَرْجِي إِلَّا عَلَى زَوْجِي، فَلَا تُسَلِّطْ عَلَيَّ هَذَا الْكَافِرَ، فَغَطُّ حَتَّى رَكَضَ بِرِجْلِهِ، قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: قَالَ أَبُو سَلَمَةَ: قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ إِنْ يَمُتُ، يُقَالُ هِيَ قَتَلَتْهُ، فَأَرْسَلَ فِي الثَّانِيَةِ، أَوْ فِي الثَّلَاثَةِ، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا أُرْسَلْتُمْ إِلَيَّ إِلَّا شَيْطَانًا، أَرْجِعُهَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ، وَأَعْطُوهَا آجَرَ، فَرَجَعَتْ إِلَى إِبْرَاهِيمَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَتْ: أَشَعَرْتَ أَنَّ اللَّهَ كَبَتَ الْكَافِرَ، وَأَخْذَمَ وَليدَةً؟⁽¹⁾، والمقصود بـ (فَغَطُّ): ضاق نفسه، وكاد يخنق، حتى سمع له غطيظ، وهو تردد النفس صاعداً إلى الحلق حتى يسمعه من حوله، و(رَكَضَ بِرِجْلِهِ) حركها وضربها على الأرض، و(آجر) هي هاجر أم إسماعيل، عليه السلام.⁽²⁾

ورد في عمدة القاري أن إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، خرج من مدين إلى مصر مهاجراً، وكان معه من المؤمنين ثلاثمائة وعشرون رجلاً، فمرَّ بقرية فيها ملك جبار ظالم، فأمر بإدخال إبراهيم وسارة عليه، ثم نحى إبراهيم، وقام إلى سارة، فلما صار إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، خارج القصر، جعله الله له كالقارورة الصافية، فرأى الملك وسارة، وسمع كلامهما، فهم الملك الجبار بسارة ومدَّ يده إليها، فبيست، فمدَّ الأخرى فكذلك، فلما رأى ذلك، كف عنها، وقال ابن هشام: وكان الحنط أخبر الملك بأنه رآها تطحن، فقال الملك: يا إبراهيم؛ ما ينبغي لهذه أن تخدم نفسها، فأمر له بهاجر، ومنه أن الشيطان في قوله: (والله ما أُرْسَلْتُمْ إِلَيَّ إِلَّا

1- صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب شراء المملوك من الحربي وهبته وعنته.

2- عمدة القاري، 143/18.

شَيْطَانًا، أَرْجَعُوهَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ) قصد به متمرداً من الجن، وكانوا يهابون الجن، ويعظمون أمرهم. وقوله: (كَبَتَ الْكَافِرَ) أي رده خاسئاً خائباً، وقيل أحزنه، وقيل أغاظه؛ لأن الكبت شدة الغيظ، وقيل صرعه، وقيل أذله، وقيل أخزاه، وقيل أصله كبد، أي: بلغ الهم كبده، فأبدل من الدال تاء، قوله: (وَأُخْذِمَ وَلِيدَةً) أي: أعطي خادماً أي أعطاها أمة تخدمها، والوليدة تطلق على الجارية، وإن كانت كبيرة، وفي الأصل الوليد الطفل، والأنثى وليدة، والجمع ولائد.⁽¹⁾

والشاهد في هذا المقطع من قصة إبراهيم، عليه السلام، كيف أن الله تعالى نجاه وامراته من كيد ذاك الجبار وزبانيته، فلم تصلهما يد بسوء، بل خرجا مكرمين معززين بحفظ الله ورعايته وحمائته، في مقابل ما لقي ذاك الجبار الظالم من خزي وخيبة وخسران، وهكذا تسير الأمور مع المؤمنين الذين صلح حالهم، فأخبتوا إلى ربهم، وابتهلوا إليه سبحانه وتعالى وأنابوا، فهم يواجهون الابتلاء بصبر وثبات وإيمان ويقين، فيرجحون العاقبة، ويفوزون بالنعيم الخالد، والنصر الممين، وما ذلك على الله بعزيز، هداانا الله تعالى لاقتفاء نهج نبينا المصطفى، صلى الله عليه وسلم، بحسن الامتثال لله، وصدق النوايا، والثقة بنصره المؤزر، لنفوز بما فاز به عليه الصلاة والسلام وصحابته الكرام الذين صدقوا الله فصدقهم، وأحسن خلاصهم، وجعل على أيديهم كلمة الله هي العليا، وكلام الظالمين والكافرين الأسفل، حتى عاد بيمن الله ورعايته لمكة فاتحاً، وللكعبة مطهراً، يردد لسانه ما يعبر عن يقين قلبه: {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا}.⁽²⁾

وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا الأكرم محمد بن عبد الله، وعلى آله الأطهار، وأزواجه الطيبات، وصحابته الغر الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

1- عمدة القاري: 32-31/12.

2- الإسراء: 81.

الفصل الثالث

عبادات

43	يحدث عن المواقيت الزمانية لرمضان والصيام ﷺ	7.
49	يحث على الإبراد في شدة الحر (ح1) ﷺ	8.
54	يحث على الإبراد في شدة الحر (ح2) ﷺ	9.
59	يحث على الإبراد في شدة الحر (ح3) ﷺ	10.
65	هديه في صدقة الفطر وعيده ﷺ	11.
70	يحث على التزود للحج ﷺ	12.
76	يصف فضل العشر الأولى من شهر ذي الحجة ﷺ	13.
80	وقوله: إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عَيْدًا وَهَذَا عَيْدُنَا ﷺ	14.
86	يصوم في السفر ويفطر ﷺ	15.

الرسول الأُسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يحدث عن المواقيت الزمانية لرمضان والصيام

عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (شَهْرَانِ لَا يَنْقُصَانِ، شَهْرًا عِيدٌ رَمَضَانُ، وَذُو الْحِجَّةِ).⁽¹⁾

كثيراً ما يتحدث الناس عن بداية شهر الصيام ونهايته، هل كانتا صحيحتين؟ أم اعتراهما خطأ من نقص يوم، أو زيادة بسبب خطأ في قرار ثبوت الرؤية أو تعذرهما، سواء فيما يتعلق بهلال رمضان أم هلال شوال، والرسول، صلى الله عليه وسلم، يطمئن المسلمين على صحة صيامهم وثوابهم ما داموا قد اعتمدوا المعايير الصحيحة في تحري رؤية الهلال، ومن خلال هذا الحديث النبوي الشريف الذي يتعرض بالإشارة إلى جانب من مكانة شهر رمضان وأهميته وفضله، فهو وذو الحجة عيدان، يطمئن الرسول، صلى الله عليه وسلم، إلى صحة صيامهم، وعظيم ثوابهم، سواء أكملوا عدة الصيام ثلاثين يوماً، أم صاموا تسعة وعشرين يوماً؛ اعتماداً على ما ثبت لديهم بشأن رؤية هلال البدء، وهلال الختام، ففي بيان المقصود من تسميته شهراً عيد، يروي العيني في عمدة القاري عن ابن الجوزي، حول وجه تسمية شهر رمضان شهر عيد، وإنما العيد في شوال، فقد أجاب عنه الأثرم بجوابين؛ الأول: أنه قد يرى هلال شوال بعد الزوال من آخر يوم رمضان، والثاني: لما قرب العيد من الصوم، أضافته العرب إليه بما قرب منه. ويذكر العيني اختلاف الناس في تأويل هذا الحديث على أقوال، منها:

ما قاله بعضهم إن معناه أنهما لا يكونان ناقصين في الحكم، وإن وجدا ناقصين في عدد الحساب، وقال ابن حبان لهذا الخبر معنيان؛ الأول: أنهما لا ينقصان في الحقيقة، وإن نقصا عندنا في رأي العين عند الحائل بيننا وبين رؤية الهلال بفترة أو ضباب.

1- صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب شهرا عيد لا ينقصان.

والمعنى الثاني: أنهما لا ينقصان في الفضائل، يريد أن عشر ذي الحجة على الفضل كشهر رمضان.

وقال الطحاوي: معناه لا ينقصان وإن كانا تسعاً وعشرين يوماً، فهما كاملان؛ لأن في أحدهما الصيام، وفي الآخر الحج، وأحكام ذلك كله كاملة غير ناقصة. وعن الخطابي قيل: لا ينقص أجر ذي الحجة عن أجر رمضان؛ لفضل العمل في العشر.

وقال الطيبي: ظاهر سياق الحديث بيان اختصاص الشهرين بمزية ليست في غيرهما من الشهور، وليس المراد أن ثواب الطاعة في غيرهما ينقص، وإنما المراد رفع الحرج عما عسى أن يقع فيه خطأ في الحكم؛ لاختصاصهما بالعيدين، وجواز احتمال وقوع الخطأ فيهما، ومن ثمة قال: (شَهْرًا عِيدٍ) بعد قوله: (شَهْرَانِ لَا يَنْقُصَانِ)، ولم يقتصر على قوله (رَمَضَانَ، وَذُو الْحِجَّةِ)، وفيه حجة لمن قال: إن الثواب ليس مترتباً على وجود المشقة دائماً، بل لله أن يتفضل بإلحاق الناقص بالتام في الثواب.⁽¹⁾

عدة شهر رمضان وربط بداية صيامه ونهايته بالرؤية

عن ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: (سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: إِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَصُومُوا، وَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَأَفْطِرُوا، فَإِنْ غَمَّ عَلَيْكُمْ؛ فَاقْدُرُوا لَهُ).⁽²⁾

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يوضح بما لا يدع مجالاً للشك أن الشهر القمري سقفه ثلاثون يوماً لا يزيد عن ذلك، غير أنه قد ينقص عنه يوماً فحسب، وقد وردت أحاديث عديدة عن الرسول، صلى الله عليه وسلم، تؤكد هذه الحقيقة الكونية والفلكية وتوضحها، فعن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

1- عمدة القاري، 10/285-286.

2- صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب هل يقال رمضان أو شهر رمضان ومن رأى كله واسعاً.

قال: (الشَّهْرُ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ لَيْلَةً، فَلَا تَصُومُوا حَتَّى تَرَوْهُ، فَإِنْ غَمَّ عَلَيْكُمْ؛ فَأَكْمِلُوا الْعِدَّةَ ثَلَاثِينَ). (1)

وفي رواية، ورد استخدام لفظ غُيِّبَ بدل غُمِّيَّ، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: (قال النبي، صلى الله عليه وسلم، أو قال: قال أبو الْقَاسِمِ، صلى الله عليه وسلم: صُومُوا لِرُؤْيَيْهِ، وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَيْهِ، فَإِنْ غُيِّبَ عَلَيْكُمْ، فَأَكْمِلُوا عِدَّةَ شَعْبَانَ ثَلَاثِينَ). (2)

ولا يقتصر تحديد عدد أيام الشهور القمرية على الصيام والحج، بل يخص قضايا فقهية كثيرة؛ كالعدة، واليمين، والكفارات، وغير ذلك، فعن أُمِّ سَلَمَةَ، رضي الله عنها، (أَنَّ النَّبِيَّ، صلى الله عليه وسلم، آلَى مِنْ نِسَائِهِ شَهْرًا، فَلَمَّا مَضَى تِسْعَةٌ وَعِشْرُونَ يَوْمًا غَدَا أَوْ رَاحَ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّكَ حَلَفْتَ أَنْ لَا تَدْخُلَ شَهْرًا؟ فَقَالَ: إِنَّ الشَّهْرَ يَكُونُ تِسْعَةً وَعِشْرِينَ يَوْمًا) (3)، وعن ابن عمر، رضي الله عنهما، يقول: (قال النبي، صلى الله عليه وسلم، الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا، وَخَنَسَ الْإِبْهَامَ فِي الثَّلَاثَةِ) (4). والمقصود بـ (هَكَذَا وَهَكَذَا) أي أشار بيديه الكريمتين، ناشراً أصابعه مرتين، فهي عشرون، (وَخَنَسَ الْإِبْهَامَ فِي الثَّلَاثَةِ) أي أشار في المرة الثالثة كما أشار قبلها، ولكنه قبض الإبهام، فهي تسع، فيكون المجموع تسعاً وعشرين.

وبالنسبة إلى اعتماد الحساب الفلكي في تحديد بدايات الشهور ونهاياتها، فقد ورد في الحديث الصحيح أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، بينَ أن الشهر تسعة وعشرون أو ثلاثون، ويتحدد ذلك بناء على رؤية الهلال، دون استخراج التحديد من الحساب، فعن النبي، صلى الله عليه وسلم، أَنَّهُ قَالَ: (إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ؛ لَا نَكْتُبُ، وَلَا نَحْسِبُ، الشَّهْرَ هَكَذَا وَهَكَذَا؛ يَعْنِي مَرَّةً تِسْعَةً وَعِشْرِينَ، وَمَرَّةً ثَلَاثِينَ). (5)

1- صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: (إذا رأيتم الهلال فصوموا وإذا رأيتموه فأفطروا).

2- المرجع السابق.

3- المرجع السابق.

4- المرجع السابق.

5- صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: (لا نكتب ولا نحسب).

وفي عمدة القاري، ورد أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، قصد العرب في هذا الحديث الشريف، وروي عن الطيبي قوله: (إِنَّا) كناية عن جيل العرب، وقيل أراد نفسه عليه السلام. وقوله (لا نَكْتُبُ ولا نَحْسُبُ) بيان لكونهم كذلك، وقيل العرب أميون؛ لأن الكتابة فيهم كانت عزيزة نادرة، قال الله تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ} (1). وإن كان فيهم من يكتب ويحسب فإنه كان نادراً. والمراد بالحساب هنا حساب النجوم وتسييرها، ولم يكونوا يعرفون من ذلك شيئاً إلاَّ اليسير، وعلق الشارع الصوم وغيره بالرؤية؛ لرفع الحرج عن أمته في معاناة حساب التسيير، واستمر ذلك بينهم، ولو حدث بعدهم من يعرف ذلك، بل ظاهر قوله صلى الله عليه وسلم: (فَإِنْ غَمَّ عَلَيْكُمْ؛ فَأَكْمِلُوا الْعِدَّةَ ثَلَاثِينَ) (2) (3).

وفي تفسير المراد بـ (أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ)، يذكر النووي في شرحه على صحيح مسلم أن العلماء قالوا: (أُمِّيَّةٌ) باقون على ما ولدتنا عليه الأمهات، لا نكتب ولا نحسب، ومنه النبي الأمي. وقيل هو نسبة إلى الأم ووصفتها؛ لأن هذه صفة النساء غالباً. (4)

الخيطان الأبيض والأسود وربط الصيام بإدبار الليل والإفطار بإقباله

مثلما حدد الرسول، صلى الله عليه وسلم، عدد أيام الشهور القمرية، التي يبدأ كل منها برؤية هلاله القمري، وتنتهي أيامه برؤية هلال الشهر الذي يليه، فإن الرسول، صلى الله عليه وسلم، حدد البدايات الزمانية والنهيات لكل يوم من أيام الصيام، فعن عاصم ابن عمر بن الخطاب، عن أبيه، رضي الله عنه، قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا أقبل الليل من هاهنا، وأدبر النهار من هاهنا، وغربت الشمس، فقد أفطر الصائم). (5)

1- الجمعة: 2.

2- صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: (إذا رأيتم الهلال فصوموا وإذا رأيتموه فأفطروا).

3- عمدة القاري، 286/10.

4- صحيح مسلم بشرح النووي، 193-192/7.

5- صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب متى يجزئ فطر الصائم.

وعن ابن أبي أوفى، رضي الله عنه، قال: (كنت مع النبي، صلى الله عليه وسلم، في سفَرٍ فصامَ حتى أمسى، قال لِرَجُلٍ: انزِلْ فَاجِدْ⁽¹⁾ لي، قال: لو انتظرتَ حتى تُمسي، قال: انزِلْ فَاجِدْ لي، إذا رأيتَ اللَّيْلَ قد أقبلَ من هاهنا، فقدَ أفطرَ الصائمُ).⁽²⁾

فإقبال الليل يبدأ بغروب الشمس، وعنده يفطر الصائم، الذي أمسك عند الفجر مع إدبار الليل، وذلك بعد ظهور علامة دخول وقت الفجر، التي حددها الرسول، صلى الله عليه وسلم، بالخيطة الأبيض، فعن عدي بن حاتم، رضي الله عنه، قال: (لَمَّا نَزَلَتْ {حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ}، عَمَدْتُ إِلَى عِقَالِ أَسْوَدَ، وَإِلَى عِقَالِ أَبْيَضَ، فَجَعَلْتُهُمَا تَحْتَ سَادَتِي، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ فِي اللَّيْلِ، فَلَا يَسْتَيْنُ لِي، فَغَدَوْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَكَرْتُ لَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنَّمَا ذَلِكَ سَوَادُ اللَّيْلِ، وَبَيَاضُ النَّهَارِ).⁽³⁾

الحث على السحور وتأخيره

بعد العلم بالوقت الشرعي الحدد لبداية الإمساك، والشروع في الصوم، ووقت الإفطار الذي تكون بدايته مع الغروب، فإن الرسول، صلى الله عليه وسلم، حث على السحور، وبين أفضل أوقاته، ونهى عن الوصال في الصوم، وبين خير أوقاته، ففي الحث على السحور وبيان فضله، ورد في الحديث الصحيح عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: (قال النبي، صلى الله عليه وسلم: تَسَحَّرُوا؛ فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكََةً).⁽⁴⁾

وفي بيان فترة السحور ووقته؛ ورد عن سهل بن سعد، رضي الله عنه، قال: (كنت أتسحَّرُ في أهلي، ثُمَّ تَكُونُ سُرْعَتِي أَنْ أُدْرِكَ السُّجُودَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).⁽⁵⁾
وعن زيد بن ثابت، رضي الله عنه، قال: (تَسَحَّرْنَا مَعَ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ، قُلْتُ: كَمْ كَانَ بَيْنَ الْأَذَانِ وَالسَّحُورِ؟ قَالَ: قَدْرُ خَمْسِينَ آيَةً).⁽¹⁾

1- فاجد: أي اخلط السويق بالماء أو اللبن بالماء، وحركه؛ حتى أفطر عليه.

2- صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب تعجيل الإفطار.

3- صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب قول الله تعالى {وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل}.

4- صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب بركة السحور من غير إيجاب.

5- صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب تأخير السحور.

وفيما يتعلق بالإفطار، فقد ورد في السنة الصحيحة عن الرسول، صلى الله عليه وسلم، الحث على تعجيله، فعن سهل بن سعدٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الْفِطْرَ).⁽²⁾

وعن عبد الله بن أبي أوفى، رضي الله عنه، قال: (كنا مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في سفرٍ وهو صائمٌ، فلما غربت الشمسُ، قال لِعِضِّ الْقَوْمِ: يَا فُلَانُ؛ قُمْ فَاجِدْ لَنَا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ لَوْ أَمْسَيْتَ، قَالَ: انزِلْ فَاجِدْ لَنَا، قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ فَلَوْ أَمْسَيْتَ، قَالَ: انزِلْ فَاجِدْ لَنَا، قَالَ: إِنَّ عَلَيْكَ نَهَارًا، قَالَ: انزِلْ فَاجِدْ لَنَا، فَانزَلَ فَاجِدَ لَهُمْ، فَشَرِبَ النَّبِيُّ، صلى الله عليه وسلم، ثُمَّ قَالَ: إِذَا رَأَيْتُمُ اللَّيْلَ قَدْ أَقْبَلَ مِنْ هَاهُنَا، فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ).⁽³⁾

فهنيئاً للمسلمين قدوم شهر رمضان، شهر القرآن، وشهر النوافل والقيام، وشهر الجود والبر والإحسان، الذي يكرم الله صائميهِ المحتسبين بالعتق من النار، أعادنا الله منها ومما يقرب إليها من قول وعمل، سائلين الله العليّ القدير أن يوفقنا وإياهم لصيامه على الوجه الذي يرضيه سبحانه وتعالى، وأن يعيننا على حسن طاعته وعبادته فيه، وصلى الله وسلم على نبينا المصطفى، وعلى آله، وصحبه، وأزواجه، ومن تبعه ووالاه بإحسان إلى يوم الدين.

1- صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب قدر كم بين السحور وصلاة الفجر.

2- صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب تعجيل الإفطار.

3- صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب يفطر بما تيسر عليه بالماء وغيره.

الرسول الأُسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يحث على الإبراد في شدة الحرِّ

الحلقة الأولى

ورد في صحيح البخاري، باب الإبراد بالظُّهرِ في شِدَّةِ الحرِّ، وفيه عن عبد الله بن عُمرَ، أَنَّهُمَا حَدَّثَاهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: **{إِذَا اشْتَدَّ الْحَرُّ فَأَبْرِدُوا عَنِ الصَّلَاةِ؛ فَإِنَّ شِدَّةَ الْحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ}**.⁽¹⁾

يرشد الرسول، صلى الله عليه وسلم، في حديثه هذا المسلمين إلى اختيار الوقت الذي تخف فيه حلة الحر لأداء صلاة الظهر، مبيناً أن شدة الحر من فيح جهنم، وما أدراك ما جهنم! فهي نار تُلظي، والسعير، والموقدة، والحامية، ففيها قال تعالى: **{تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً}**⁽²⁾، وقال سبحانه: **{فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلْظَى}**⁽³⁾، وهي ذات اللهب، لقوله تعالى: **{سَيَصَلَّى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ}**⁽⁴⁾، أعاذنا الله من دخولها، وأعاننا على ورودها، فذلك حتم مقضي، لقوله تعالى: **{وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا}**.⁽⁵⁾

ونار الدنيا وحر لهيبها لا يتعدى في سقفه الأعلى أن يصل مستوى جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، فعن أبي هريرة، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: **{نَارُكُمْ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً، قَالَ: فَضَلَّتْ عَلَيْهِنَّ بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا}**.⁽⁶⁾

1- صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب الإبراد بالظُّهرِ في شدة الحر.

2- العاشية: 4.

3- الليل: 14.

4- المسد: 3.

5- مريم: 71.

6- صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة.

نُذِّكرُ بهذا ونحن نتصعب عرقاً من شدة ما نجد من موجة الحر المناخية التي حلت في أجوائنا، فجعلتنا نعاني الأمرين من شدة حرها، وندجأ إلى مرافقة المبردات لتلطيف أجواء حلنا وترحالنا ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، فسبحان من جعل هذا الحر مذكراً بفتح جهنم، وهو القائل سبحانه وتعالى: {...وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ}.⁽¹⁾

معنى الإبراد عند الصلاة في شدة الحر وحكمه

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يوجه المسلمين إلى ما يساعدهم على الوقاية من شدة حر طقس الدنيا، منبهاً إلى كيفية التصرف حياله، حتى عند أداء المناسك والصلوات، فحث على اختيار الجزء الأكثر إبراداً من فترة وقت صلاة الظهر، وجاء في فتح الباري أن مفهوم قوله (إذا اشتد): أن الحر إذا لم يشتد لم يشرع الإبراد، وكذا لا يشرع في البرد من باب الأولى، ومفهوم قوله (فأبردوا): أي أخرجوا إلى أن يبرد الوقت، يقال: أبرد إذا دخل في البرد، كأظهر إذا دخل في الظهيرة، ومثله في المكان أبرد إذا دخل مجدداً، والأمر بالإبراد أمر استحباب، وقيل: أمر إرشاد، وقيل: بل هو للوجوب، وجمهور أهل العلم على أنه يستحب تأخير الظهر في شدة الحر إلى أن يبرد الوقت، وينكسر الوهج، وخصه بعضهم بالجماعة، فأما المنفرد فالتعجيل في حقه أفضل، وهذا قول أكثر المالكية والشافعية أيضاً لكن خصه بالبلد الحار، وقيد الجماعة بما إذا كانوا ينتابون مسجداً من بعده، فلو كانوا مجتمعين، فالأفضل في حقهم التعجيل، والمشهور عن أحمد التسوية من غير تخصيص ولا تقييد، وذهب بعضهم إلى أن تعجيل الظهر أفضل مطلقاً، وقالوا: معنى أبردوا صلوا في أول الوقت أخذاً من برد النهار وهو أوله وهو تأويل بعيد، ويرده قوله: (فإن شدة الحر من فيح جهنم)، إذ التعليل بذلك يدل على أن المطلوب التأخير.⁽²⁾

1- التوبة: 81.

2- فتح الباري، 2/16.

وأجاب ابن حجر عن أحاديث أول الوقت أنها عامة أو مطلقة، والأمر بالإبراد خاص، فهو مقدم ولا التفات إلى من قال التعجيل أكثر مشقة، فيكون أفضل؛ لأن الأفضلية لم تنحصر في الأشق، بل قد يكون الأخف أفضل كما في قصر الصلاة في السفر.

وبين رحمه الله أن المراد بالإبراد في صلاة الظهر تجاوز وقتها المعتاد إلى أن تنكسر شدة الحر، التي هي تعليل لمشروعية التأخير المذكور، وهل الحكمة فيه دفع المشقة لكونها قد تسلب الخشوع؟ وهذا أظهر. أو كونها الحالة التي ينتشر فيها العذاب، فحكمة الإبراد دفع المشقة.

وقوله: (من فَيَحِ جَهَنَّمَ) أي من سعة انتشارها وتنفسها، ومنه مكان أفيح أي متسع، وهذا كناية عن شدة استعارها، وظاهره أن مثار وهج الحر في الأرض من فيح جهنم حقيقة، وقيل هو من مجاز التشبيه؛ أي كأنه نار جهنم في الحر، والأول أولى، ويؤيده الحديث الآتي ذكره؛ اشتكت النار إلى ربها فأذن لها بنفسين. (1)

ويذكر العيني أن المراد بـ (فَيَحِ جَهَنَّمَ) سطوع الحر وفورانها، ويقال: فاحت القدرة تفوح إذا غلت، وقيل فاح الحر يفيح فيحاً سطع وهاج. (2)

شكوى النار إلى ربها

عن أبي هريرة، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (إِذَا اشْتَدَّ الْحَرُّ فَأَبْرِدُوا بِالصَّلَاةِ؛ فَإِنَّ شِدَّةَ الْحَرِّ مِنْ فَيَحِ جَهَنَّمَ، وَاشْتَكَّتْ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا، فَقَالَتْ: يَا رَبُّ؛ أَكَلَّ بَعْضِي بَعْضًا، فَأَذِنَ لَهَا يَنْفَسِينَ؛ نَفْسٍ فِي الشِّتَاءِ، وَنَفْسٍ فِي الصَّيْفِ، فَهُوَ أَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الْحَرِّ، وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الزَّمْهَرِيرِ). (3)

يذكر النووي في شرحه على صحيح مسلم، اختلاف العلماء في معنى هذا الحديث الشريف، فقال بعضهم: هو على ظاهره، فالنار اشتكت حقيقة الحر وشدته من وهجها وفيحها، وجعل الله تعالى فيها إدراكاً وتمييزاً، بحيث تكلمت بهذا، ومذهب أهل السنة أن النار مخلوقة. وقيل: ليس هو على ظاهره، بل هو على وجه التشبيه والاستعارة والتقريب، وتقديره أن شدة الحر يشبه نار

1- فتح الباري، 17/2.

2- عمدة القاري، 20/5.

3- صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب الإبراد بالظهر في شدة الحر.

جهنم فاحذروه، واجتنبوا حروره، ويرى النووي أن الصواب الأول؛ لأنه ظاهر الحديث، ولا مانع من حمله على حقيقته، فوجب الحكم بأنه على ظاهره والله أعلم.⁽¹⁾

وفي شرح الزرقاني أن المراد من قوله (بِنَفْسَيْنِ): هو ما يدخل في الجوف، ويخرج منه من الهواء، فشبه الخارج من حرارتها ويردها إلى الدنيا بالنفس الخارج من جوف الحيوان، ورجح حمل المراد بذلك على الحقيقة، فالله الذي أنطق كل شيء أنطق النار، وقال عياض: إنه الأظهر، والله قادر على خلق الحياة بجزء منها حتى تتكلم، أو يخلق لها كلاماً يسمعه من شاء من خلقه⁽²⁾. وفي مرقاة المفاتيح أن المراد بـ(فَأَذِنَ لَهَا بِنَفْسَيْنِ؛ نَفْسٍ فِي الشِّتَاءِ، وَنَفْسٍ فِي الصَّيْفِ) الحقيقة لا غير، ثم نبه إلى أن أحد النفسين يتولد منه أشد الحر، والآخر يتولد منه أشد البرد، وقوله: (أَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الْحَرِّ، وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الزَّمْهَرِيرِ) أي البرد، وقال القاضي: اشتكاه النار مجاز عن كثرتها، وغلبيانها، وازدحام أجزائها، بحيث يضيق مكانها عنها، فيسعى كل جزء في إفناء الجزء الآخر، والاستيلاء على مكانه، ونفسها لهبها.⁽³⁾

روايات صحيحة تؤكد الحث على الإبراد في الحر

تأكد معنى حديث الحث على الإبراد بالظهر في شدة الحر في عدد من الروايات الصحيحة الأخرى، فعن أبي ذر، رضي الله عنه: (كان النبي صلى الله عليه وسلم، في سفر، فقال: أَبْرِدْ، ثُمَّ قَالَ: أَبْرِدْ، حَتَّى فَاءَ الْفَيْءِ يَعْنِي لِلتَّلْوْلِ، ثُمَّ قَالَ: أَبْرِدُوا بِالصَّلَاةِ؛ فَإِنَّ شِدَّةَ الْحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ)⁽⁴⁾، والتلؤل جمع تل، وهو الربوة من التراب المجتمع، والمراد أنه أخره تأخيراً كثيراً⁽⁵⁾، ولا يصير للتلؤل فيء في العادة إلا بعد زوال الشمس بكثير.⁽⁶⁾

1- صحيح مسلم بشرح النووي، 120/5.

2- شرح الزرقاني، 58/1.

3- مرقاة المفاتيح، 278/2.

4- صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة.

5- نيل الأوطار، 38/1.

6- صحيح مسلم بشرح النووي، 119/5.

وعن أبي ذرٍّ، قال: (أَدَّنَ مُؤَدَّنُ النَّبِيِّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الظُّهْرَ، فقال: أَبْرِدْ أَبْرِدْ، أو قال: انْتَظِرْ انْتَظِرْ، وقال: شِدَّةُ الْحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ، فإذا اشْتَدَّ الْحَرُّ، فَأَبْرِدُوا عَنِ الصَّلَاةِ، حَتَّى رَأَيْنَا فِيءَ التُّلُولِ). (1)

وفي صحيح البخاري، بَابُ الإِبْرَادِ بِالظُّهْرِ فِي السَّفَرِ، وفيه عن أبي ذرٍّ الغِفَارِيِّ، قال: (كنا مع النبي، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي سَفَرٍ، فَأَرَادَ الْمُؤَدَّنُ أَنْ يُؤَدِّنَ لِلظُّهْرِ، فقال النبي، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَبْرِدْ، ثُمَّ أَرَادَ أَنْ يُؤَدِّنَ، فقال له: أَبْرِدْ، حَتَّى رَأَيْنَا فِيءَ التُّلُولِ، فقال النبي، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِنَّ شِدَّةَ الْحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ، فإذا اشْتَدَّ الْحَرُّ، فَأَبْرِدُوا بِالصَّلَاةِ، وقال ابن عَبَّاسٍ: يَتَفَيَأُ يَتَمَيَّلُ) (2)، وفي فتح الباري أن المراد بالموذن هنا هو بلال، رضي الله عنه، وقوله: (أَبْرِدْ) يدل على أن الأمر بالإبراد وقع بعد تقدم الأذان منه، ويرى الكرمانى أن الإبراد بالأذان إنما هو لغرض الإبراد في الصلاة، وأن المراد بالتأذين الإقامة، فكان التأخير للإقامة حتى صار فيء للتلول. (3)

وعن أنس بن مالك قال: (كنا إذا صَلَّيْنَا خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِالظَّهَائِرِ فَسَجَدْنَا عَلَى ثِيَابِنَا؛ اتَّقَاهُ الْحَرُّ) (4)، والظواهر جمع ظهيرة، وهي الهاجرة، والمراد صلاة الظهر، فكانوا يصلون على ثيابهم وقاية من الحر (5). وفي صحيح مسلم، بَابُ (اسْتِحْبَابِ الإِبْرَادِ بِالظُّهْرِ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ لِمَنْ يَمْضِي إِلَى جَمَاعَةٍ، وَيَنَالُهُ الْحَرُّ فِي طَرِيقِهِ) (6). وفيه أيضاً بَابُ (اسْتِحْبَابِ تَقْدِيمِ الظُّهْرِ فِي أَوَّلِ الْوَقْتِ فِي غَيْرِ شِدَّةِ الْحَرِّ)، وفيه عن سِمَاكٍ عن جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ، قال: (كان النبي، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَصَلِّي الظُّهْرَ إِذَا حَضَّتْ الشَّمْسُ) (7) (8)

وصلى الله على نبينا الكريم، وأسوتنا محمد بن عبد الله، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1- صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب الإبراد بالظهر في شدة الحر.

2- صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب الإبراد بالظهر في السفر.

3- عمدة القاري، 25/5، بتصرف.

4- صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب وقت الظهر عند الزوال.

5- فتح الباري، 23/62.

6- صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الإبراد بالظهر في شدة الحر لمن يمضي إلى جماعة، ويناله الحر في طريقه.

7- والمقصود بـ (حَضَّتْ الشَّمْسُ): أي زالت.

8- صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب تقديم الظهر في أول الوقت في غير شدة الحر.

الرسول الأُسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يحث على الإبراد في شدة الحرِّ

الحلقة الثانية

عن أنس بن مالكٍ، قال: (كان النبي، صلى الله عليه وسلم، إذا اشتدَّ البردُ بكرَّ بالصلاة، وإذا اشتدَّ الحرُّ أبرَدَ بالصلاة، يعني الجمعة، قال يونسُ بن بكيرٍ: أخبرنا أبو خَلْدَةَ، فقال: بالصلاة، ولم يذكر الجمعة. وقال بشرُّ بن ثابتٍ: حدثنا أبو خَلْدَةَ، قال: صلى بنا أميرُ الجمعة، ثم قال لأنسٍ، رضي الله عنه: كيفَ كان النبي، صلى الله عليه وسلم، يُصلي الظهرَ).⁽¹⁾

تعرضت الحلقة السابقة من هذه الزاوية للحديث عن الإبرادِ بالظُّهرِ في شِدَّةِ الحرِّ، من خلال استعراض بعض الروايات الصحيحة الواردة بهذا الشأن، والحديث الذي بين أيدينا أعلاه، جاء في صحيح البخاري تحت باب (إذا اشتدَّ الحرُّ يوم الجمعة)، وهو يؤكد على حث النبي، صلى الله عليه وسلم، على مراعاة حال الطقس، وأحوال المناخ والجو عند أداء عبادة الصلاة، ففي حال اشتداد البرد؛ كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ييكر بالصلاة، وإذا اشتد الحر كان يبرد؛ أي يؤخرها عن أول وقتها، حين أن تتلطف حرارة الجو بعد ميل الشمس عن كبد السماء، ويلاحظ أن راوي هذه الرواية بين أن صلاة الجمعة هي المقصودة، مما دفع البخاري لذكرها في عنوان الباب، وهذا لا يعني أن صلاة الظهر في الأيام الأخرى غير مشمولة بهذا التوجيه النبوي، بدليل تعدد الروايات التي ذكرت الصلاة دون تحديد، وبعضها تضمن ذكر صلاة الظهر بالتحديد، مما يعني أن الإبراد سنة عند شدة الحر بالظهر وبالجمعة.

1- صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب إذا اشتد الحر يوم الجمعة.

حَثُّ الْمُؤَذِّنِ عَلَى الْإِبْرَادِ

من الروايات الصحيحة التي وردت في مسألة الحث على الإبراد في شدة الحر، ما جاء بشأن الأذان، فعن أبي ذرٍّ قال: (كنا مع النبي، صلى الله عليه وسلم، في سفَرٍ، فَأَرَادَ الْمُؤَذِّنُ أَنْ يُؤَدِّنَ، فَقَالَ لَهُ: أَبْرِدْ، ثُمَّ أَرَادَ أَنْ يُؤَدِّنَ، فَقَالَ لَهُ: أَبْرِدْ حَتَّى سَاوَى الظِّلِّ التُّلُولَ، فَقَالَ النبي، صلى الله عليه وسلم: إِنَّ شِدَّةَ الحَرِّ من فَيْحِ جَهَنَّمَ). (1)

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، أمر المؤذن أن يبرد، وفهم من سياق الحديث أن الجو كان حاراً، لقوله: (حتى سَاوَى الظِّلِّ التُّلُولَ، فَقَالَ النبي، صلى الله عليه وسلم: إِنَّ شِدَّةَ الحَرِّ من فَيْحِ جَهَنَّمَ) وفي رواية أخرى تم تحديد الصلاة التي أراد المؤذن أن يؤذن لها، وهي صلاة الظهر، وذكر فيها حتى رَأَيْنَا فِيءَ التُّلُولِ بدل عبارة حتى سَاوَى الظِّلِّ التُّلُولَ، فعن أبي ذرٍّ الغِفَارِيِّ، قال: (كنا مع النبي، صلى الله عليه وسلم، في سفَرٍ، فَأَرَادَ الْمُؤَذِّنُ أَنْ يُؤَدِّنَ لِلظُّهْرِ، فَقَالَ النبي، صلى الله عليه وسلم: أَبْرِدْ، ثُمَّ أَرَادَ أَنْ يُؤَدِّنَ، فَقَالَ لَهُ: أَبْرِدْ، حَتَّى رَأَيْنَا فِيءَ التُّلُولِ، فَقَالَ النبي، صلى الله عليه وسلم: إِنَّ شِدَّةَ الحَرِّ من فَيْحِ جَهَنَّمَ، فَإِذَا اشْتَدَّ الحَرُّ فَابْرِدُوا بِالصَّلَاةِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَتَفِيءُ: يَتَمِيلُ). (2)

وبالنسبة إلى وقت الإبراد الذي تؤخر إليه صلاة الظهر وأذانها، حسب الروايات التي تحث على الإبراد بالصلاة في الحر الشديد، فهو وقت الظل والفيء، الذي يصبح فيه ظل للتلال والمباني، وفي عملة القاري: أن كل ما كانت عليه الشمس فزالت فهو فيء وظل، وما لم يكن عليه شمس فهو ظل. وقيل: الفيء لا يكون إلاً بعد الزوال، وأما الظل فيطلق على ما قبل الزوال وما بعده. والتلول جمع تل، وهو من التراب معروف، والتل من الرمل كومة منه، وكلمة حتى للغاية، أي أن الإبراد في الأذان يكون إلى أن يرى الفيء، وأن ذلك

1- صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة والإقامة، وكذلك بعرفة وجمع، وقول المؤذن: الصلاة في الرحال في الليلة الباردة أو المطيرة.

2- صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب الإبراد بالظهر في السفر.

كان قبل الشروع في الأذان، على خلاف من قال بعده⁽¹⁾. ويروي العيني عن الكرمانى رده على من قال بأن الإبراد إنما هو في الصلاة، لا في الأذان، فيقول: كانت عاداتهم أنهم لا يتخلفون عند سماع الأذان عن الحضور إلى الجماعة، فالإبراد بالأذان إنما هو لغرض الإبراد بالصلاة، أو المراد بالتأذين الإقامة.⁽²⁾

موازمة السلوك مع شدة الحر في ضوء ما جاء عن الصحابة وفي السنة النبوية

يضيق الناس بالحر، والمتبع للتوجيهات النبوية الكريمة الخاصة بكيفية التعاطي مع الحر الشديد، يجد أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، لم يقتصر حثه على الإبراد في الصلاة وقت الحر الشديد، بل وجه إلى معالجة هذه الحال، بما يساعد في التخفيف من وطأته، ومن ذلك ما جاء من حث على إبراد حمى الحر بالماء، فعن أبي جَمْرَةَ الضُّبَعِيِّ، قال: (كنت أُجَالِسُ ابنَ عَبَّاسٍ يَمَكَّةَ، فَأَخَذْتَنِي الحُمَّى، فَقَالَ: أَبْرِدْهَا عَنْكَ بِمَاءٍ زَمَزَمَ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: الحُمَّى من فَيْحِ جَهَنَّمَ، فَأَبْرِدْهَا بِالمَاءِ، أو قال: بِمَاءِ زَمَزَمَ).⁽³⁾

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يوجه إلى إبراد الحمى التي تصيب الناس من مرض أو حالة طقس حار بالماء، فالماء يطفى النار وحرها، ويخفف على المتبرد به منها، وجاء ذكر إبراد الحمى بمطلق الماء، وبماء زمزم، فعن رَافِعِ بنِ خَدِيجٍ قال: (سمعت النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: الحُمَّى من فَوْرِ جَنِّهِمْ، فَأَبْرِدْوها عَنكُمْ بِالمَاءِ).⁽⁴⁾

وكان الصحابة، رضي الله عنهم، يتقنون ملامسة الأرض الحارة بجباههم، وهم يسجدون للصلاة وقت الحر الشديد، بوضع طَرْفِ الثَّوبِ في مَكَانِ السُّجُودِ، ففي صحيح البخاري، باب السُّجُودِ على الثَّوبِ في شِدَّةِ الحَرِّ، وقال الحَسَنُ: كان القَوْمُ يَسْجُدُونَ على العِمَامَةِ وَالْقَلَنْسُوتِ وَيَدَاهُ في كُمَّهِ، وفيه عن أَنَسِ بنِ مَالِكٍ، قال: (كنا نُصَلِّي مع

1- عمدة القاري 5/ 22، بتصرف.

2- عمدة القاري، ج5/25.

3- صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة.

4- صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة.

النبي، صلى الله عليه وسلم، فَيَضَعُ أَحَدُنَا طَرْفَ الثُّوبِ مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ فِي مَكَانِ السُّجُودِ).⁽¹⁾

وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، رضي الله عنه، قال: (كُنَّا نُصَلِّيْ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي شِدَّةِ الْحَرِّ، فَإِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدُنَا أَنْ يُمَكِّنَ وَجْهَهُ مِنَ الْأَرْضِ، بَسَطَ ثَوْبَهُ، فَسَجَدَ عَلَيْهِ).⁽²⁾

كما أن الصحابة، رضي الله عنهم، كانوا يلجأون إلى تغطية رؤوسهم من الحر بما تيسر لهم من أغطية، فعن أُمِّ الْحُصَيْنِ - جَدَّتِهِ - قالت: (حَجَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَجَّةَ الْوُدَاعِ، فَرَأَيْتُ أُسَامَةَ وَبِلَالَ وَأَحَدَهُمَا آخِذًا بِخِطَامِ نَاقَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالْآخَرَ رَافِعٌ ثَوْبَهُ يَسْتُرُهُ مِنَ الْحَرِّ حَتَّى رَمَى جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ).⁽³⁾

حتى إنهم كانوا يغطون رؤوسهم بأيديهم، من شدة الحر الذي كان يتسبب أحياناً في فطر الصائم الذي لا يقوى عليه بسبب شدة الحر، فعن أَبِي الدَّرْدَاءِ، رضي الله عنه، قال: (خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ فِي يَوْمٍ حَارٍّ، حَتَّى يَضَعُ الرَّجُلُ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ، وَمَا فِيْنَا صَائِمٌ إِلَّا مَا كَانَ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَابْنُ رَوَاحَةَ).⁽⁴⁾

وفي صحيح البخاري، بَابِ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِمَنْ ظَلَّلَ عَلَيْهِ، وَاشْتَدَّ الْحَرُّ، لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصَّوْمُ فِي السَّفَرِ، وفيه عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، رضي الله عنهم، قال: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي سَفَرٍ، فَرَأَى زَحَامًا وَرَجُلًا قَدْ ظَلَّلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ فَقَالُوا: صَائِمٌ، فَقَالَ: لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصَّوْمُ فِي السَّفَرِ).⁽⁵⁾

1- صحيح البخاري، أبواب الصلاة في الثياب، باب السجود على الثوب في شدة الحر.

2- صحيح البخاري، أبواب العمل في الصلاة، باب بسط الثوب في الصلاة للسجود.

3- صحيح مسلم، كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر ركباً، وبيان قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: لتأخذوا مناسككم.

4- صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب إذا صام أيام من رمضان ثم سافر.

5- صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم، لمن ظلل عليه واشتد الحر: "ليس من البر الصوم في السفر".

ولم يَعبُ أصحابُ النبي، صلى الله عليه وسلم، بَعْضُهُمْ بَعْضًا في الصَّوْمِ وَالإِفْطَارِ عند وجود العذر، ففي صحيح البخاري، باب لم يَعبُ أصحابُ النبي، صلى الله عليه وسلم، بَعْضُهُمْ بَعْضًا في الصَّوْمِ وَالإِفْطَارِ، وفيه عن أنسِ بن مَالِكٍ قال: (كنا نُسَافِرُ مع النبي، صلى الله عليه وسلم، فلم يَعبُ الصَّائِمُ على المُفْطِرِ، ولا المُفْطِرُ على الصَّائِمِ).⁽¹⁾

استخدام المراوح والمكيفات في المساجد

مما تقدم يظهر أن المسلمين كانوا يعملون على تجنب المعاناة من شدة الحر بوسائل مختلفة وأساليب عدة، فحثهم الرسول، صلى الله عليه وسلم، على الإبراد في صلاة الظهر، وعلى استخدام الماء للتخفيف من شدة حرارة الجسم، وكانوا يضعون تحت جباههم وهم يصلون ما يقيهم حر الأرض، وكانوا يستظلون بأيديهم، أو أثوابهم لتغطية رؤوسهم من حرارة الشمس.

وقد أنعم الله على الناس في هذا الزمان، فصاروا يستخدمون مبردات تلتطف عليهم الجو الحار في مساجدهم، وهو استخدام لا ريب مشروع، غير أنه ينبغي أن يكون مضبوطاً بحسن التصرف، والبعد عن الإسراف، وإهدار الطاقة، كما ينبغي تجنب إيذاء الآخرين بالمراوح والمكيفات، فدرء المفاسد أولى من جلب المنافع؛ وذلك ممكن إذا تولى المسؤولية عن أجهزة التبريد والتهوية هذه مسؤولو المساجد من الأئمة والمؤذنين، وقاموا بالتصرف بها بما يحقق النفع للمصلين، ويبعد عنهم الضرر والأذى.

أعاننا الله على حسن طاعته في المنشط والمكروه، والعسر واليسر، والحر والبرد، وصلى الله على رسولنا الأسوة محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه وأزواجه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1- صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب لم يعب أصحاب النبي، صلى الله عليه وسلم، بعضهم بعضاً في الصوم والإفطار.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يحث على الإبراد في شدة الحر

الحلقة الثالثة والأخيرة

عن أمِّ الحُصَيْنِ قالت: (حَجَجْتُ مع رسولِ اللَّهِ، صلى اللهُ عليه وسلم، حَجَّةَ الوُدَّاعِ، فرَأَيْتُ أُسامَةَ وبلالاً، وأَحَدَهُمَا أَخِذُ يَخْطُمِ نَاقَةَ النبي، صلى اللهُ عليه وسلم، وَالآخرُ رَافِعٌ تُوبُهُ يَسْتَرُهُ مِنَ الحَرِّ، حَتى رَمَى جَمْرَةَ العَقَبَةِ).⁽¹⁾

امتداداً للحديث عن الإبراد في شدة الحر، الذي تم تناوله في الحلقتين السابقتين، يأتي هنا الاستشهاد بهذا الحديث النبوي الشريف الذي يبين أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، كان يستتر من الحر خلال أدائه مناسك الحج، وكان مرافقوه من الصحابة يسترونه بأثوابهم من أذى الحر، مما يدل على مشروعية التظلل بمظلة أو ما شابه مما يجب أشعة الشمس عن الملامسة المباشرة لرأس الشخص، ولا يؤثر ذلك على صحة الإحرام للحج، كما يدل هذا الفعل أيضاً على مشروعية الحرص على عمل ما يلزم للوقاية من حر الشمس وضررها، وبخاصة حين يكون الحر شديداً، ويحتمل تضرر الإنسان منه، فالوقاية خير من العلاج، والأخذ بالأسباب على هذا النحو، يشمل مبدءاً حسن التوكل على الله، بخلاف التواكل الذي يعني الإهمال والتفريط بالمقدمات المطلوبة لإنجاز أي عمل إيجابي، وتجنب أي نتيجة سلبية.

وفي مرقاة المفاتيح ورد شرح موجز لبعض ألفاظ الحديث الذي بين أيدينا، فقوله: رأيت أسامة وبلالاً وأحدهما؛ أي والحال أن أحدهما، والظاهر أنه بلال، (أخذ) بصيغة الفاعل، (بخطام) بكسر الخاء، بمعنى الزمام، (والآخر) هو أسامة. (رافع ثوبه) أي ثوباً في يده، (يستره) أي يظله بثوب مرتفع عن رأسه، بحيث لم يصل الثوب إلى رأس رسول الله.

1- صحيح مسلم، كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر ركباً، وبيان قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: لتأخذوا مناسككم.

(من الحر): قال الطيبي دل على جواز الاستئصال للمحرم، وقيل: إن دلالاته غير ظاهرة؛ لاحتمال وقوعه بعد التحلل.⁽¹⁾

الإبراد في الحر ومبدأ التيسير في الإسلام

المطلع على حث الرسول، صلى الله عليه وسلم، على الإبراد في صلاة الظهر وقت الحر الشديد، وتظلمه من الحر، وهو يؤدي المناسك، ينبغي أن لا يغيب عن ذهنه ما تدل عليه هذه المواقف فيما يخص مبدأ التيسير ورفع الحرج عن المكلفين، الذي نادى به الإسلام، فالله تعالى يقول: {...وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ...}.⁽²⁾

والحث على الإبراد في صلاة الظهر وقت الحر الشديد، يعني تأخير الصلاة عن أول وقتها، ومعلوم أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، بين فضل إقامة الصلاة على وقتها، فعن عبد الله قال: (سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا، قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: ثُمَّ بَرُّ الْوَالِدَيْنِ، قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَالَ: حَدَّثَنِي بِهِنَّ، وَلَوْ اسْتَزِدُّهُ لَزَادَنِي).⁽³⁾

وورد في فتح الباري عن ابن بطال قوله: (إِنَّ الْبِدَارَ إِلَى الصَّلَاةِ فِي أَوَّلِ أَوْقَاتِهَا أَفْضَلُ مِنَ التَّرَاخِي فِيهَا؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا شَرَطَ فِيهَا أَنْ تَكُونَ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِذَا أُقِيمَتْ لَوَقْتِهَا الْمُسْتَحَبِّ، بَيْنَمَا قَالَ ابْنُ دَقِيقِ الْعَيْدِ: لَيْسَ فِي هَذَا اللَّفْظِ مَا يَقْتَضِي أَوَّلًا وَلَا آخِرًا، وَكَأَنَّ الْمَقْصُودَ بِهِ الْاِحْتِرَازَ عَمَّا إِذَا وَقَعَتْ قَضَاءً).⁽⁴⁾

فإذا كان أحب الأوقات التي تؤدي فيها الصلوات هو أول وقتها، فإن وجود الحر الشديد تسبب في الانتقال إلى وقت محب آخر، وهو وقت الإبراد، حيث الظل وانكسار حدة الحر، وذلك دون ريب من صور التيسير ورفع الحرج التي جاء بها الإسلام، والرسول،

1- مرقاة المفاتيح، 5/587.

2- الحج: 78.

3- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب البر والصلة.

4- فتح الباري: 2/294.

صلى الله عليه وسلم، كان يختار الأيسر من الأمور ما لم يكن فيه إثماً، فعن عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: (مَا خَيْرَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا، مَا لَمْ يَأْتُمْ، فَإِذَا كَانَ الْإِثْمُ كَانَ أْبَعَدَهُمَا مِنْهُ...)(1).

ومعلوم أن من مبادئ شريعة الإسلام رفع الحرج عن المكلفين، وتبع ذلك تشريع الرخص لهم، فحين يشق عليهم القيام بالتكاليف المطلوبة، فإنهم يؤدونها تحت مظلة الرخص بكيفية تتسم بالتخفيف والتسهيل والتيسير، من هنا شرع للمسافر أن يقصر الصلاة، ويفطر في رمضان، وشرع للحاج التقديم والتأخير في ترتيب أداء مناسك يوم النحر، وشرع جمع الصلاة بسبب المطر عند جمهور الفقهاء، على اختلاف بينهم في الشروط، ومبدأ الأخذ بالرخص أصيل في الإسلام، وهو يستند إلى كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، التي منها ما جاء عن ابن عباس قال: (قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخْصُهُ كَمَا يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى عَزَائِمُهُ)(2).

وكان من رفع الحرج عن المسلمين أن شرع الله لهم التيمم بديلاً عن التطهر بالماء في حالات معينة وأسباب موجبة، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (3).

ومنه تشريع الرخصة بقصر الصلاة للمسافر، والإفطار من الصوم، فالله تعالى حين فرض الصيام على عباده، رخص لهم الإفطار بسبب السفر أو المرض، على أن تقضى أيام

1- صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب إقامة الحدود والانتقام لحرمت الله.

2- صحيح ابن حبان، 69/2، وصححه الألباني.

3- المائدة: 6.

الإفطار في أيام أحر، فقال تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمُ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (1)، والتيسير والرخص ورفع الحرج مبادئ تراعي حال الضعف البشري، والله تعالى يقول: {يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا} (2)، وفي سياق ذلك كله يأتي الحث على الإبراد في الظهر وقت الحر الشديد.

رفض التذرع بالحر للتخلف عن أداء الواجب المتعين

إن حث الإسلام على الوقاية من الحر، وتشريعه بعض الرخص بسببه، لا يعني تشريع التخلف عن أداء الواجب، مع القدرة على أدائه، أو حين يتعين أدائه، سواء في ظروف جوية شديدة الحرارة أم غيرها، فالله ذم المنافقين لتعذرهم بالحر عن النفي مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ومعلوم أن التولي يوم الزحف من كبائر الذنوب والخطايا، فعن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: {اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُؤْبَقَاتِ، قالوا: يا رَسُولَ اللَّهِ؛ وما هُنَّ؟ قال: الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسَّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ}. (3)

فالله لا يقبل التذرع بالحر للتعاس عن أداء الواجب أو التسويف في الانصياع لأمر الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، ففي تأنيب المتخلفين عن غزوة تبوك بسبب الحر على حد زعمهم، نزل قوله تعالى: {فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ

1- البقرة: 185.

2- النساء: 28.

3- صحيح البخاري، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: {إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيراً} (النساء: 10).

يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ} (1).

وكان من أسباب تسمية غزوة تبوك بالعسرة؛ أنها تمت في ظروف جوية صحراوية صيفية بالغة الحرارة، فعن كَعْب بن مَالِكٍ، رضي الله عنه، قال: (كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قَلَمًا يُرِيدُ غَزْوَةَ يَغْزُوهَا إِلَّا وَرَى يَغْيِرَهَا، حتى كانت غَزْوَةُ تَبُوكَ فَغَزَاهَا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في حَرٍّ شَدِيدٍ، وَاسْتَقْبَلَ سَفْرًا بَعِيدًا وَمَقَازًا، وَاسْتَقْبَلَ غَزْوَ عَدُوٍّ كَثِيرٍ، فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ، لِيَتَأَهَّبُوا أَهْبَةَ عَدُوِّهِمْ، وَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِ الَّذِي يُرِيدُ). (2).

فإذا تعين واجب - بغض النظر عن أحوال الطقس - لزم المكلف أداءه، فالطاعة الشرعية تكون في المنشط والمكروه والعسر واليسر، فعن عُبَادَةَ بن الصَّامِتِ قال: (بَايَعَنَا رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، على السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْمُنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، وَأَنْ نَقُومَ أَوْ نَقُولَ بِالْحَقِّ حَيْثُمَا كُنَّا، لَا نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ). (3).

فتخلف المنافقون عن المشاركة في أداء الواجب التكليفي بسبب الحر أو غيره، إنما يدل على عادتهم في تخلق الأعذار للهروب من الواجب، بخلاف المؤمنين الصادقين الذين خرجوا إلى الجهاد حين كلفوا به رغم الحر الشديد، لأن الخروج تعين عليهم، ولم يكن أمامهم خيارات بديلة للتأخير أو المماطلة في الاستجابة لأمر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بالخروج إليها، إلا ثلاثة نفر منهم تخلفوا عن الخروج إلى غزوة تبوك، مؤثرين الراحة والدعة، ثم جاءوا الرسول، صلى الله عليه وسلم، معترفين بذنبهم، فتابوا وأنابوا وتاب الله عليهم، وقصتهم مثبتة في الأحاديث الصحيحة، وفي التوبة عليهم أنزل الله قرآنًا يتعبد المسلمون بتلاوته، فقال تعالى: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ

1- التوبة: 81.

2- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من أراد غزوة فوري بغيرها، ومن أحب الخروج يوم الخميس.

3- صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب كيف يبائع الإمام الناس.

اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ يَهْمُ رَوْفٌ رَّحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } (1)

ويبرز التدرع بالحر من المتقاعسين والمنافقين في ميادين ومجالات كثيرة، منها الصيام، فبعض الناس يتأفف من ثقل الصيام بسبب الحر الشديد قبل أن يحضر رمضان، لمجرد أخبار مسبقة من بعض جهات الأرصاد الجوية عن موجات حر شديدة متوقع قدومها في شهر رمضان، وإذا ما جاء رمضان أفطر بعضهم دون أن يعملوا جهدهم على صيامه، وتحمل أعبائه ومشقته، فهم بذلك مفرطون متهاونون، وإلا كان عليهم أن يوطدوا أنفسهم على الصيام، ويقاوموا مشقته بجد وصبر، فإن أشرفوا على هلاك، أبيع لهم أن يفطروا غير مجاهرين، ودون ذلك يحرم عليهم ترك الصيام لمجرد تعب أو نصب، فأجر الصبر على ذلك كبير، وثوابه عظيم، فعن أبي هريرة، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ، وَلَا أَتَىٰ وَلَا غَمٍّ، حَتَّىٰ الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ). (2)

أعاننا الله على حسن طاعته في المنشط والمكروه، والعسر واليسر، والحر والبرد، لننال حسن المثوبة والرضا، وصلى الله على رسولنا الأسوة محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه وأزواجه، ومن تبعه بإحسان إلى الدين.

1- التوبة: 117-118.

2- صحيح البخاري، كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرضى.

الرسول الأُسوة محمد صلى الله عليه وسلم

هديه في صدقة الفطر وعيده

عن نافع، عن ابن عمر، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (فَرَضَ زَكَاةَ الْفِطْرِ مِنْ رَمَضَانَ عَلَى النَّاسِ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ، عَلَى كُلِّ حُرٍّ أَوْ عَبْدٍ، ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ) (1). وفي رواية عنه زيادة قوله: (فَعَدَلَ النَّاسَ بِهِ نِصْفَ صَاعٍ مِنْ بُرٍّ). (2).

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يحدد مقدار صدقة الفطر، وأنواع الأغذية التي تخرج منها، والأشخاص الذين تجب عليهم، فهي قدرت بالصاع، وكثير من الروايات تذكر أنها صاع من تمر أو شعير أو زبيب أو أقط، وبعض الروايات ذكرت أنها نصف صاع من بر -قمح-، ويُقدَّر الصاع حسب الكيل المتعارف عليه في أوساطنا اليوم بـ (2176غم)، أي: 2 كيلو و176غم، وحيث إن الرسول، صلى الله عليه وسلم، أتاح للمسلم اختيار أحد البدائل التي حددها في أحاديثه الشريفة، صلى الله عليه وسلم، فقد اعتمد مجلس الإفتاء الأعلى في فلسطين صاع البر نوعاً ومقداراً لصدقة الفطر؛ كون البر أكثر الأنواع استخداماً في أوساط معظم المسلمين في بلادنا، وهو متيسر للفقراء والأغنياء، وأخذاً بالرأي الذي يميز إخراج القيمة المادية بدلاً عن عين صاع البر، وقدرها لهذا العام بتسعة شواقل، تدفع من قبل ولي أمر الأسرة عن نفسه وعياله وأبنائه وأزواجه، ومن الروايات الصحيحة التي فصلت البيان في بعض متعلقات صدقة الفطر، ما ورد عن أبي سعيد الخدري، قال: (كُنَّا نُخْرِجُ إِذْ كَانَ فِيْنَا رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، زَكَاةَ الْفِطْرِ عَنْ كُلِّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ، حُرٍّ أَوْ مَمْلُوكٍ، صَاعًا مِنْ طَعَامٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ أَقِطٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ، أَوْ

1- صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب زكاة الفطر على المسلمين من التمر والشعير.

2- صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب زكاة الفطر على المسلمين من التمر والشعير.

صَاعاً مِنْ تَمْرٍ، أَوْ صَاعاً مِنْ زَبِيبٍ، فَلَمْ نَزَلْ نُخْرِجُهُ، حَتَّى قَدِمَ عَلَيْنَا مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سَفْيَانَ حَاجِباً أَوْ مُعْتَمِراً، فَكَلَّمَ النَّاسَ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَكَانَ فِيمَا كَلَّمَ بِهِ النَّاسَ أَنْ قَالَ: إِنِّي أَرَى أَنَّ مَدِينَةَ مِنْ سَمَرَاءِ الشَّامِ، تَعْدِلُ صَاعاً مِنْ تَمْرٍ، فَأَخَذَ النَّاسَ بِذَلِكَ، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: فَأَمَّا أَنَا؛ فَلَا أَزَالُ أَخْرِجُهُ كَمَا كُنْتُ أَخْرِجُهُ أَبَدًا مَا عِشْتُ⁽¹⁾.

وقت إخراج صدقة الفطر وحكمتها

عَنْ نَافِعٍ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَمَرَ بِزَكَاةِ الْفِطْرِ أَنْ تُؤْتَى قَبْلَ خُرُوجِ النَّاسِ إِلَى الصَّلَاةِ).⁽²⁾

وعن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: (فرض رسول الله، صلى الله عليه وسلم، زكاة الفطر طهرة للصيام من اللغو والرفث، وطعمة للمساكين، من أداها قبل الصلاة فهي زكاة مقبولة، ومن أداها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات).⁽³⁾

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، بين بشكل واضح أن صدقة الفطر تخرج قبل صلاة العيد، فإن أخرت إلى ما بعدها، فلا تعد صدقة فطر، ولا ينال مؤخرها فضلها وثوابها، وإنما تعد صدقة من الصدقات الأخرى.

وبالنسبة إلى بداية وقت إخراجها، فالأصل أن وقت وجوبها يكون بعد غروب شمس اليوم الأخير من رمضان، وأجاز بعض العلماء تقديمها عن ذلك؛ مراعاة لمصلحة الفقير، وتسهيلاً على مخرجها، ويشير الرسول، صلى الله عليه وسلم، إلى بعض حكم صدقة الفطر وفوائدها، فبيّن أن المحتاج ينتفع من أخذها في سد حاجاته، وقضاء مصالحه، وبخاصة تلك التي تتعلق بمتطلبات العيد، وهي من ناحية أخرى تطهر الصيام من اللغو والرفث، فهي تنفع منفقها وأخذها في آن واحد.

1- صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب زكاة الفطر على المسلمين من التمر والشعير.

2- صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب الأمر بإخراج زكاة الفطر قبل الصلاة.

3- سنن أبي داود، كتاب الزكاة، باب زكاة الفطر، وحسنه الألباني.

الصدقة التي تجب على أعيان الأشخاص

الأصل في الصدقة أن تخرج عن المال، وليس عن ذوات الأشخاص وأعيانهم غير أن صدقة الفطر تخرج عن الأشخاص، لما روي عن أبي هريرة، رضي الله عنه، يحدث عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: **(ليس في العبد صدقة إلا صدقة الفطر)**⁽¹⁾، فهي بهذا تعد استثناءً من نفي الصدقة عن الأشخاص.

هديه صلى الله عليه وسلم في العيد

عن أبي سعيد الخدري، قال: **(كَانَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَخْرُجُ يَوْمَ الْفِطْرِ وَالْأَضْحَى إِلَى الْمُصَلَّى، فَأَوْلُ شَيْءٍ يَبْدَأُ بِهِ الصَّلَاةُ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فَيَقُومُ مُقَابِلَ النَّاسِ، وَالنَّاسُ جُلُوسٌ عَلَى صُفُوفِهِمْ، فَيَعْظُمُهُمْ، وَيُوصِيهِمْ، وَيَأْمُرُهُمْ، فَإِنْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَقْطَعَ بَعْثًا قِطْعَهُ، أَوْ يَأْمُرَ بِشَيْءٍ أَمَرَ بِهِ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ)**.⁽²⁾

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، كان يؤدي صلاة العيد في المصلى، ويؤكد هذا أنه صلى الله عليه وسلم، كان **(تُرْكَزُ الْحَرَبَةُ قُدَّامَهُ يَوْمَ الْفِطْرِ وَالنَّحْرِ، ثُمَّ يُصَلِّي)**.⁽³⁾ والفرق بين المصلى والمسجد أن المسجد هو المكان المخصص لإقامة الصلاة، ويتميز عن غيره بذلك، أما المصلى، فهو مكان في الفضاء الواسع غير مخصص للصلاة اليومية، وهو في الغالب غير محاط بجدران خاصة أو سقف، فعن ابن عمر: **(أن المصلى كان فضاء، ليس فيه شيء مبني يستتر به)**.⁽⁴⁾

ولم يسن لصلاة العيد أذان ولا إقامة، فعن ابن عباس: **(أنه أرسل إلى ابن الزبير في أول ما بُويع له، إنه لم يكن يؤدّن بالصلاة يوم الفطر، إنما الخطبة بعد الصلاة)**.⁽⁵⁾

1- صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب لا زكاة على المسلم في عبده وفرسه.

2- صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب الخروج إلى المصلى بغير منبر.

3- صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب الصلاة إلى الحربة يوم العيد.

4- سنن ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في الحربة يوم العيد، وصححه الألباني.

5- صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب المشي والركوب إلى العيد والصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة.

وكان صلى الله عليه وسلم، يؤدي صلاة العيد قبل الخطبة، عن ابن عباسٍ قال: (شَهِدْتُ الْعِيدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَكُلُّهُمْ كَانُوا يُصَلُّونَ قَبْلَ الْخُطْبَةِ)⁽¹⁾، وصلاة العيد ركعتان، لم يُصَلِّ الرسول، صلى الله عليه وسلم، قَبْلَهَا وَلَا بَعْدَهَا، وكان صلى الله عليه وسلم، يخص النساء بوعظ خاص يوم العيد، فعن ابن عباسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (صَلَّى يَوْمَ الْفِطْرِ رَكَعَتَيْنِ، لَمْ يُصَلِّ قَبْلَهَا وَلَا بَعْدَهَا، ثُمَّ أَتَى النِّسَاءَ، وَمَعَهُ يَلَالٌ، فَأَمَرَهُنَّ بِالصَّدَقَةِ، فَجَعَلْنَ يُلْقِينَ؛ تُلْقِي الْمَرْأَةُ حُرْصَهَا وَسِخَابَهَا).⁽²⁾

وبالنسبة إلى سماع خطبة العيد، فقد أتاح الرسول، صلى الله عليه وسلم، للمسلم حرية الاختيار بين المكث لسماع الخطبة بعد الصلاة، أو الانصراف، فعن عبد الله بن السائب، قال: (شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الْعِيدَ، فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاةَ، قَالَ: إِنَّا نَخْطُبُ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَجْلِسَ لِلْخُطْبَةِ فَلْيَجْلِسْ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَذْهَبَ فَلْيَذْهَبْ)⁽³⁾، مع التأكيد على فضل سماع الخطبة؛ لما فيها من مواعظ، وتذكير بالخير والصلاح.

الترفيه على النفس والعيال يوم العيد

يُسَنُّ للمسلمين أن يتعاملوا مع العيد على أنه يوم بهجة وسرور، فللعيد خصوصية ترفيهية، ينبغي أن يحس بها المسلمون، ويظهروها في أوساطهم الاجتماعية والأسرية، بشرط الانضباط بالحدود المشروعة، فعن عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: (دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ وَعِنْدِي جَارِيَتَانِ مِنْ جَوَارِي الْأَنْصَارِ، تُعْنِيَانِ بِمَا تَقَاوَلَتِ الْأَنْصَارُ يَوْمَ بُعَاثَ، قَالَتْ: وَلَيْسَتَا بِمُعْنِيَتَيْنِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَمْزَامِيرُ الشَّيْطَانِ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

1- صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب الخطبة بعد العيد.

2- صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب الخطبة بعد العيد.

3- سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب الجلوس للخطبة، وصححه الألباني.

وسلم؟ وَذَلِكَ فِي يَوْمِ عِيدِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا أَبَا بَكْرٍ؛ إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيدًا، وَهَذَا عِيدُنَا. (1)

ومما يتماشى مع معنى التوسعة والترفيه على النفس في العيد، ما جاء عن الرسول، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من نهي عن صوم يومي الفطر والأضحى وأيام التشريق، فقال: (...وَلَا صَوْمَ فِي يَوْمَيْنِ؛ الْفِطْرِ وَالْأَضْحَى...). (2)

فعبادة الصيام طُلبت من المسلم طيلة أيام شهر رمضان المبارك، ويوم العيد تصبح العبادة على شكل مغاير، بحيث يُطلب من المسلم أن يتعبد إلى الله بالفطر، حتى إنه يسن للمسلم الأكل يوم الفطر قبل الخروج إلى المصلى، فعن أنس، قال: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَا يَغْدُو يَوْمَ الْفِطْرِ حَتَّى يَأْكُلَ تَمْرَاتٍ، وَيَأْكُلُهُنَّ وَتَرًا). (3)

وفي انصياع المسلم لأمر الله بالإمسك عن المفطرات نهار رمضان، دليل على طاعته المطلقة لله، التي تظهر أيضاً بجلاء في الامتثال لشرع الله، والعمل بهدي الرسول، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في الكف عن الإمساك والصيام يوم العيد، وهذا يشبه كثيراً بعض جوانب العبادات الأخرى، التي منها حلق الشعر أو تقصيره حال الإحرام للحج أو العمرة، فإذا انتهى الحاج أو المعتمر من أداء بعض شعائرها، يصبحان مطالبين بفعل الحلق أو التقصير، على سبيل الإلزام، لِيُعْلِنَا بهذا وذاك أنهما ملتزمان بطاعة الله، ومنصاعان لأمر الله على الوجه الذي يريده الله سبحانه.

فهذا تذكير ببعض هديه صلى الله عليه وسلم، في صدقة الفطر وعيده، أعاننا الله ووفقنا إلى حسن الاقتداء به صلى الله عليه وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه وأزواجه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1- صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب سنة العيدين لأهل الإسلام.

2- صحيح البخاري، أبواب التطوع، باب مسجد بيت المقدس.

3- صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب الأكل يوم الفطر قبل الخروج.

الرسول الأُسوة محمد صلى الله عليه وسلم

بحث على التزود للحج

عن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، قال: (كَانَ أَهْلُ الْيَمَنِ يَحْجُونَ وَلَا يَتَزَوَّدُونَ، وَيَقُولُونَ: نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ، إِذَا قَدِمُوا مَكَّةَ سَأَلُوا النَّاسَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: { وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى }.)⁽¹⁾

يأتي هذا الحديث الشريف توضيحاً لأمر عقائدي له صلة وثيقة بأداء أحد أركان الإسلام البارزة، المتمثل في الحج الذي فرضه الله على عباده المؤمنين مرة في العمر، حيث قال تعالى: {...وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}⁽²⁾، والحج عنده الرسول، صلى الله عليه وسلم، من أركان الإسلام، في حديثه الشريف عن ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ؛ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ).⁽³⁾

وربط الله هذا الفرض بشرط تحقق الاستطاعة بالملكف به، فقال تعالى: {مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا}، وفُسِّرَتِ الاستطاعة بالزاد والراحلة، فلحاج يحتاج في رحلته الميمونة لأداء مناسك الحج، إلى لوازم وحاجات رئيسة، والحديث الذي بين أيدينا يشمل ذكراً واضحاً للزوم تزود الحاج بحاجاته، التي على رأسها التقوى، جاء ذلك رداً على المتواكلين، الذين يتركون التزود، فيضطرون لسؤال الناس، ويتعرضون بذلك لإهانات ومعاناة ما أنزل الله بها من سلطان، ومن هذا التوجيه النبوي يمكن استخلاص أبرز ما ينبغي للحاج أن يتزود به، وهو يقصد بيت الله الحرام، ملبياً نداء الله؛ حيث أمر سيدنا إبراهيم، عليه السلام، بأن

1- صحيح البخاري، كتاب الحج، باب قول الله تعالى: {وتزودوا فإن خير الزاد التقوى}.

2- آل عمران: 97

3- صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الإيمان وقول النبي، صلى الله عليه وسلم: بني الإسلام على خمس.

ينادي في الناس ليحجوا بيت الله العتيق مشاةً وركباناً بوسائل نقل مختلفة، قادمين من أنحاء الدنيا، بعيدها وقربها إلى مكة المكرمة؛ استجابة لنداء ربهم، إذ قال سبحانه وتعالى: {وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ} (1).

ومما يشاهد كل عام، أن المسلمين يفدون بأعداد هائلة للحج من بلاد العرب والعجم، صغيرها وكبيرها، مرددين ما علّمهم رسولهم الكريم، صلى الله عليه وسلم، من ألفاظ التلبية المعبرة عن التوجه إلى الحج استجابة لنداء الله تعالى وأمره سبحانه، ففي الحديث الصحيح عن مَالِكٍ، عن نَافِعٍ، عن عبد الله بن عُمَرَ، رضي الله عنهما: أَنَّ تَلْبِيَةَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنُّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ). (2).

ويردد الحجاج هذه التلبية ويذكرونها على ألسنتهم مع استحضر قلوبهم لمعانيتها ومراميتها في ليلهم ونهارهم، وصعودهم ونزولهم، وأعقاب صلواتهم، ويواصلون التلبية حتى يشروعوا برمي جمرة العقبة الأولى يوم النحر، العاشر من ذي الحجة، كما جاء عن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما: (أَنَّ أُسَامَةَ، رضي الله عنه، كَانَ رَدَفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ عَرَفَةَ إِلَى الْمُزْدَلِفَةِ، ثُمَّ أَرَدَفَ الْفُضْلَ مِنَ الْمُزْدَلِفَةِ إِلَى مَنَى، قَالَ: فَكِلَاهُمَا قَالَ: لَمْ يَزَلْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُلَبِّي حَتَّى رَمَى جَمْرَةَ الْعُقَبَةِ). (3).

وفيما يأتي عرض لأبرز ما ينبغي للحجاج أن يتزود به وهو يقصد حج بيت الله الحرام:

التزود بالتقوى

في الحديث النبوي المذكور أعلاه، إثبات لمناسبة نزول قوله تعالى: {وَتَزَوَّدُوا فَإِنْ خَيْرٌ الزَّادِ التَّقْوَى}؛ حيث جاء هذا الرد الرباني في معرض الرد على المتواكلين الذاهبين إلى

1- الحج: 27.

2- صحيح البخاري، كتاب الحج، باب التلبية.

3- صحيح البخاري، كتاب الحج، باب الركوب الارتداف في الحج.

الحج بغير زاد، والتقوى خير الزاد، يحتاجها المسلم في حله وترحاله، في حجه، وصلاته، وصيامه، وسلوكه كله، ومن التقوى أن نسعى إلى طلب الرزق الحلال، وتجنب الحرام، الذي منه الاستكانة إلى ذل المسألة، والاستسلام للتسول، فعن الزبير بن العوام، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ، فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةِ الْحَطَبِ عَلَى ظَهْرِهِ، فَيَبِيعَهَا، فَيَكْفِيَ اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ، أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ).⁽¹⁾

ومن التقوى التي ينبغي للحجاج أن يتزود بها أن يحرص على أن يكون ماله الذي يحج به حلالاً، غير مختلط بربا ولا بغش أو سرقة، أو غير ذلك من وسائل الكسب المحظورة، والحج عبادة بدنية ومالية، يكثر فيها التوجه إلى الله تعالى بالدعاء، ويتفضل الله سبحانه في ختام أدائها بمباهاة الملائكة بعباده الذين جاءوه شعثاً غبراً، ففي مسند أحمد بن حنبل، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أن النبي، صلى الله عليه وسلم، كان يقول: (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبَاهِي مَلَائِكَتَهُ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ بِأَهْلِ عَرَفَةَ، فَيَقُولُ: انظُرُوا إِلَى عِبَادِي، أَتُونِي شُعْتًا غُبْرًا).⁽²⁾

ومع ما للحجاج من فضل وثواب، جراء عنائه وتكبد المشاق ومواجهته الصعاب، وهو يلي نداء الله بالحج، فعليه أن يحذر أشد الحذر من المال الحرام، حيث بين الرسول، صلى الله عليه وسلم، حال إحباط العمل الذي يبوء به صاحب المال الحرام، فلا يستجاب له دعاء، حتى وإن تكبد المشاق، ففي الحديث الصحيح عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ: { يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ }، وَقَالَ: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُّوْا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ }،

1- صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الاستغفار عن المسألة.

2- مسند أحمد بن حنبل، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمرو بن العاص، رضي الله عنهما، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده لا

بأس به.

ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ، أَشْعَثَ أَعْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبُّ، يَا رَبُّ، وَمَطَعَمَهُ حَرَامًا، وَمَشْرَبُهُ حَرَامًا، وَمَلْبَسُهُ حَرَامًا، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ! (1)

ومن التقوى التي ينصح بها الحاج في ضوء توجيهات الرسول الأعظم، صلى الله عليه وسلم، الحرص على تجنب الفسق، والجدال، والفواحش، والآثام، صغيرها وكبيرها في هذه الرحلة التعبدية، فالله تعالى يقول: { الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمَهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ } (2).

وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: سمعت النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: (من حجَّ لله، فلم يرفث، ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه). (3)

التزود بالزاد والراحلة وما يلزم من حاجات السفر والإقامة

علّمنا الرسول، صلى الله عليه وسلم، أهمية التزود للسفر بما يلزم من وسائل ولوازم ومواد غذائية وغيرها، ومارس صلى الله عليه وسلم، التطبيق العملي لمبدأ العقل والتوكل في أعماله المختلفة، ففي جهاده كان يعد العدة، ويأخذ بأسباب المنعة والقوة، ويجتهد في التخطيط، ويستشير أهل الرأي، وأصحاب المشورة، ويتوجه إلى الله تعالى بالدعاء؛ طالباً النصر والتأييد، وفي هجرته أعدّ راحلته، واصطحب الصديق، وتزود بما تيسر من الزاد، فعن أسماء، رضي الله عنها، قالت: (صَنَعْتُ سَفْرَةَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ حِينَ أَرَادَ أَنْ يُهَاجِرَ إِلَى الْمَدِينَةِ، قَالَتْ: فَلَمْ نَجِدْ لِسُفْرَتِهِ وَلَا لِسِقَائِهِ مَا نَرِبُّهُمَا بِهِ، فَقُلْتُ لِأَبِي بَكْرٍ: وَاللَّهِ مَا أَجِدُ شَيْئاً أَرِبُّهُ بِهِ إِلَّا نِطَاقِي؟ قَالَ: فَشُقِّيهِ

1- صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها.

2- البقرة: 197.

3- صحيح البخاري، كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور.

بِائْتِنِ، فَأَرْبِطِيهِ بِوَاحِدِ السَّقَاءِ، وَبِالْآخِرِ السُّفْرَةَ، فَفَعَلْتُ، فَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ ذَاتَ
النُّطَاقَيْنِ. (1)

والحاج الذي يتوجه إلى بلاد الحرمين دون تزود بمستلزمات معيشتته هناك، يواجه صعاباً جمّة، وحرماً شديداً، من هنا أحسنت بعثات الحج بتوجيهات من الجهات المسؤولة عن تيسير أعمال الحج في البلد الحرام، بتأمين سكن للحجاج، ووسائل النقل الداخلي والخارجي، وخيم منى وعرفات، والعلاج والدواء للمرضى، إضافة إلى توفير بعض بعثات الحج الطعام والشراب لحجاجها، مما يجعل الحج ميسراً أكثر، ويفسح المجال للحجاج ليتفرغوا للعبادة والمناسك أكثر، بدلاً من تضييع الوقت والجهد في التفكير بهذه المستلزمات، أو في البحث عن توفيرها. صحيح أن الحاج يُكلف بدفع ثمن هذه الخدمة المتمثلة في تأمين احتياجاته خلال رحلة حجه، إلا أنه يحصل مقابل ذلك على تلبية احتياجاته في هذه الرحلة المحفوفة بالمشقة والتعب، بيسر وسهولة، من هنا كانت الاستطاعة شرطاً رحيماً أعفى الله بموجبه من لم يستطع تحقيقه من فرض الحج عليه، فما جعل الله من حرج على عباده، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، ورُبَّ فقير يكتب له ثواب الحج لحرصه على أدائه دون أن يقوم به، بسبب موانع حالت دون تحقيقه لمراده، فأضحى في عداد غير المستطيعين، الذين رفع الله عنهم إثم التخلف عن أداء هذه الفريضة العظيمة، والله تعالى يبت في هذه المسألة، فيقول سبحانه وتعالى: **{لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}**. (2)

التزود بعلم المناسك والشعائر

من الأمور التي يلزم الحاج التزود بها في رحلة أداء مناسك هذا الركن العظيم في الإسلام، التزود بعلم المناسك والشعائر، فلا بدَّ للحجاج حتى يكون حجه مبروراً، وسعيه

1- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب حمل الزاد في الغزو.

2- التوبة: 91.

مشكوراً، من أن يؤدي المناسك على الوجه الذي علمه إياه رسوله، صلى الله عليه وسلم،
بالقول والعمل، وأرشد إلى أهمية محاكاته فيه، فعن جابر، رضي الله عنه، قال: (رَأَيْتَ النَّبِيَّ،
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَرْمِي عَلَى رَأْسِهِ يَوْمَ النَّحْرِ، وَيَقُولُ: لِنَتَّخِذُوا مَنَاسِكَكُمْ، فَإِنِّي لَا
أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ).⁽¹⁾

فينبغي للحاج أن يتعلم أحكام الحج، وعلم المناسك على الوجه الذي يمكنه من
أدائها عن علم وبصيرة، ومن لم يتيسر له سبيل ذلك قبل السفر إلى الحج، فيمكنه تعلمها
خلال الرحلة، وقبل أداء كل منسك، حتى لا يقع في أخطاء تخل في صحة الحج، وحتى لا
يفوته أداء المطلوب على الوجه الصحيح، وما ذلك بالأمر العسير لمن قصد الحج المبرور،
ولا يحتاج الأمر لدراسة جامعية للحصول على المعرفة المطلوبة في هذا المجال، فالأمر أيسر
ما يتصوره بعض الناس أو يتخوفون منه، بل إن المشاهد أن كثيراً من عوام الناس
يسألون عن كيفية أداء المناسك وأحكام الحج، ويعملون جهدهم على الالتزام بالوجه
الصحيح لمناسك الحج وشعائره، فيعودون بعد أدائها على علم ودراية وفقه بما فعلوا؛
لأنهم مارسوا العبادة عملياً، وذلك أثبت من الحفظ النظري، والتلقي الشفوي، وأنجح
منهما.

جعل الله حجنا مبروراً، وندعو للمسلمين عامة، وبخاصة الذين يسر الله سفرهم
لأداء الحج هذا العام بعد طول انتظار وشوق، بأن يجعل الله حجهم مبروراً، وسعيهم
مشكوراً، وذنبهم مغفوراً، وردهم الله إلى أهلهم وديارهم سالمين غاثين بالمغفرة والفوز،
وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله المطهرين، وأصحابه الغر الميامين،
ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

1- صحيح مسلم، كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر ركباً، وبيان قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: لتأخذوا مناسككم.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم يصف فضل العشر الأولى من شهر ذي الحجة

إن في حياة المسلم مواسم سنويةً يجب عليه أن يحرص على اغتنامها والاستزادة فيها من الخير عن طريق أداء الطاعات، والابتعاد عن المعاصي والآثام، ومن هذه المواسم العظيمة العشر الأوائل من ذي الحجة، فهذه الأيام من خواص الله في دهره، فقد أقسم الله سبحانه وتعالى بهذه الأيام بقوله: {والفجر* وليال عشر* والشفع والوتر} (1).

وإذا أقسم الله تعالى بشيء، كان لهذا الشيء شأن عظيم في حياة الناس، بل في نظام هذا الكون البديع.

وقد ذهب كثير من علماء التفسير أن المقصود بالليالي العشر هي ليالي الأيام العشر الأولى من ذي الحجة، والوتر هو يوم عرفة؛ لأنه اليوم التاسع، والشفع هو يوم النحر، وهو اليوم العاشر.

وقد قال الرسول، صلى الله عليه وسلم، عن هذه الأيام: (مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ - يَعْنِي أَيَّامَ الْعَشْرِ - قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلَّا رَجُلًا خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، ثُمَّ لَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ). (2)

ما أعظم هذا البيان النبوي لفضيلة العمل في الأيام العشر الأولى من شهر ذي الحجة! وفي هذا الحديث دلالة على أن العمل في هذه الأيام أحب إلى الله تعالى من العمل في أيام الدنيا كلها، وهي أيام تتكرر كل عام، فحريٌّ بكل ذي عقل حريص على تحصيل

1- الفجر: 1-3.

2- سنن أبي داود، كتاب الصوم، باب في صوم العشر، وصححه الألباني.

ثواب العمل فيها أن يتحراها، ويُقِيلَ على الله تعالى بتوبة صادقة مخلصه، عسى الله أن يغفر له ذنبه ويتجاوز عن سيئاته.

ويوم عرفة من هذه الأيام المباركة، وهو يوم الوتر من العشر الأولى من ذي الحجة، أقسم الله عز وجل به في كتابه الكريم: {والشفع والوتر} وهو يومٌ عظيم يُعد من مفخر الإسلام، وله فضائل عظيمة، فهو يوم المغفرة والتجاوز عن الذنوب، ويوم العتق من النار، ويوم المباهاة، فعن أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: (ما من يومٍ أكثر من أن يُعتق الله فيه عبداً من النار، من يوم عرفة، وإنه ليدنو ثم يُباهي بهم الملائكة، فيقول: ما أراد هؤلاء؟).⁽¹⁾

وإن الشيطان في هذا اليوم يقف مدحوراً نادماً؛ لما يرى من رحمة الله الواسعة بعباده وتجاوزه عن ذنوبهم، فقد ورد في الحديث الشريف عنه صلى الله عليه وسلم قوله: (مَا رُبِّيَ الشَّيْطَانُ يَوْمًا هُوَ فِيهِ أَصْعَرُ، وَلَا أَدْحَرُ، وَلَا أَحْقَرُ، وَلَا أَغِيْظُ مِنْهُ فِي يَوْمِ عَرَفَةَ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَا رَأَى مِنْ تَنْزُلِ الرَّحْمَةِ، وَتَجَاوِزِ اللَّهِ عَنِ الذُّنُوبِ الْعُظَامِ، إِلَّا مَا أَرَى يَوْمَ بَدْرٍ، قِيلَ: وَمَا رَأَى يَوْمَ بَدْرٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: أَمَا إِنَّهُ قَدْ رَأَى جِبْرِيلَ يَنْزِعُ الْمَلَائِكَةَ).⁽²⁾

كما أن صوم هذا اليوم - أي يوم عرفة - له ثواب كبير، فقد سُئِلَ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عن صوم يوم عرفة، فقال: (يُكْفِّرُ السَّنَةَ الْمَاضِيَةَ وَالْبَاقِيَةَ).⁽³⁾

فهنيئاً لمسلم أقبل على الله تعالى في هذا اليوم، فنوى صيامه خالصاً لله تعالى؛ لينال الثواب العظيم، والأجر الجزيل بتكفير ذنوبه، والتجاوز عن سيئاته، فكيف بمن صام هذه الأيام جميعها، وعمل فيها من الخيرات ما يؤهله لرضوان الله تعالى!؟

ومما يستحب فعله في هذه الأيام المباركة من العبادات والطاعات: الصيام لدخوله في الأعمال الصالحة، فقد كان صلى الله عليه وسلم يصوم هذه الأيام، فقد روت حفصة،

1- صحيح مسلم، كتاب الحج، باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة.

2- موطأ مالك، كتاب الحج، باب جامع الحج، وقال الألباني في مشكاة المصابيح: مرسل ضعيف.

3- صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والإثنين والخميس.

رضي الله عنها: (أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كان يصوم تسع ذي الحجة، ويوم عاشوراء، وثلاثة أيام من كل شهر، أول اثنين من الشهر والخميس).⁽¹⁾

وما يستحب فعله أيضا في هذه الأيام المحافظة على الصلوات المفروضة والإكثار من نوافلها لما ورد في الحديث القدسي الشريف: (وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ).⁽²⁾

ومن الأعمال الفاضلة في هذه الأيام أيضاً الصدقة، وفضلها عظيم؛ لما فيها من التقرب إلى الله تعالى، وابتغاء الأجر والثواب منه سبحانه عن طريق البذل والعطاء والإحسان للآخرين، لقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا بَيْعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ }⁽³⁾، ومن الأعمال الفاضلة الأخرى في هذه الأيام بر الوالدين وصلة الأرحام، لقوله تعالى: { وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٌ وَلَا تَنْهَرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا }⁽⁴⁾.

وما يستحب فعله في هذه الأيام الإكثار من الذكر والتهليل والتكبير لقوله تعالى: { لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ }⁽⁵⁾.

وما حث عليه الهدي النبوي الإكثار من ذكر الله تعالى في هذه الأيام على وجه الخصوص؛ فقد روي عن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، أنه قال: قال رسول الله، صلى الله عليه

1- سنن أبي داود، كتاب الصوم، باب في صوم العشر، وصححه الألباني.

2- صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب النواضع.

3- البقرة: 254.

4- الإسراء: 23.

5- الحج: 28.

وسلم: (ما من أيام أعظم عند الله، ولا أحب إليه العمل فيهن من هذه الأيام العشر، فأكثروا فيهن من التكبير، والتهليل، والتحميد).⁽¹⁾

ويجدر بنا في هذه الأيام أن نبادر إلى التوبة، وطلب المغفرة من الله سبحانه وتعالى، عسى أن يغفر ذنوبنا، ويجبر كسرنا، ويدخلنا في رحمته الواسعة، لقوله تعالى: {وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}.⁽²⁾

فهذا هو هدي المصطفى، صلى الله عليه وسلم، في هذه الأيام المباركة، فلنتأسى به، لننعم بثواب الله، وتجاوزته عن سيئاتنا بإذنه تعالى. وهناك كثير من الأعمال الصالحة التي يستحب فعلها في هذه الأيام الفاضلة المباركة التي لا يتسع المقام للتفصيل فيها، فحري بنا أن نستغل هذه الأيام الفاضلة بطاعة الله والبعد عن معصيته ومخالفة أمره

فهذه الأيام المباركة ولياليها هي أحد مواسم الخير والفضل، التي ينبغي على كل عاقل أن يفيد منها بعمل الخير والطاعات، فلنجهد في هذه الأيام لتحصيل الثواب والأجر من الله سبحانه وتعالى، وذلك بالإقبال على فعل الطاعات والخيرات وترك المنكرات، عسى الله سبحانه وتعالى أن يكفر عنا ذنوبنا، ويعفو عن سيئاتنا. وصلى الله وسلم على رسولنا الأسوة، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

1- مسند أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب، وقال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح.

2- النور: 31.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم وقوله: **إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيدًا وَهَذَا عِيدُنَا**

في رواية صحيحة عن أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال لأبي بكر الصديق، رضي الله عنه: **(إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيدًا، وَهَذَا عِيدُنَا)**.⁽¹⁾

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يقرر في هذا الحديث النبوي الشريف وجود العيد في الإسلام، بما يعنيه هذا الوجود من معاني الطاعة لله، إلى جانب الابتهاج والسرور المصاحبين للعيد، فالعيد عند كل الأمم والشعوب تحتلجه البهجة، ويحفه السرور، ولكل قوم طريقة في التعبير عن ذلك، ولم يجرم الإسلام المسلمين من الابتهاج بالعيد، غير أنه جعلها بهجة مقترنة بطاعة الله وذكره، فالتكبير من أبرز سمات العيد في الإسلام، وللعيد صلاة خاصة، وأحكام شرعية، من ضمنها منع صيام أيامه، وتشريع التواصل الجاد فيه مع الأرحام، والأقارب، ومساعدة الفقراء، والمساكين، وأصحاب الحاجات.

الأكل والشرب والرفاهية يوم العيد

عن البراء بن عازب، رضي الله عنهما، قال: **(خَطَبَنَا النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَوْمَ الْأَضْحَى بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَقَالَ: مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا، وَنَسَكَ نُسُكَنَا، فَقَدْ أَصَابَ النُّسُكَ، وَمَنْ نَسَكَ قَبْلَ الصَّلَاةِ، فَإِنَّهُ قَبْلَ الصَّلَاةِ، وَلَا نُسُكَ لَهُ، فَقَالَ أَبُو بُرَّةَ بْنُ نَبَارٍ -خَالَ الْبَرَاءِ-: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ فَإِنِّي نَسَكْتُ شَاتِي قَبْلَ الصَّلَاةِ، وَعَرَفْتُ أَنَّ الْيَوْمَ يَوْمُ أَكْلِ وَشُرْبٍ، وَأَحْبَبْتُ أَنْ تَكُونَ شَاتِي أَوْلَ مَا يُدْبِحُ فِي بَيْتِي، فَدَبَحْتُ شَاتِي، وَتَغَدَّيْتُ قَبْلَ أَنْ آتِيَ الصَّلَاةَ، قَالَ: شَاتُكَ شَأْ لِحَمٍّ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ فَإِنْ عِنْدَنَا عَنَّا لَنَا جَدَعَةٌ، هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ شَاتَيْنِ، أَفَتَجْزِي عَنِّي؟ قَالَ: نَعَمْ؛ وَلَنْ تَجْزِيَ عَن أَحَدٍ بَعْدَكَ)**.⁽²⁾

1- صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب سنة العيدين لأهل الإسلام.

2- صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب الأكل يوم النحر.

المقصود بـ(وَنَسَكَ نُسُكَنَا) ضحى مثل ضحيتنا، ونسك ذبح، والنسيكة الذبيحة، وجمعها نسك والنسك العبادة أيضاً، (أَصَابَ النُّسُكَ) وافق العبادة المطلوبة منه، (شَاةٌ لَحْمٌ) أي: فليست أضحية وليس لها ثواب الأضحية، بل هي كغيرها مما يذبح عادة للأكل، (عَنَاقًا) هي الأنثى من ولد المعز، (جَدَعَةٌ) سقطت أسنانها اللبنيّة. (1)

فمن خصوصيات العيد أنه يوم أكل، وشرب، وتزين، وتوسع في الرفاهية المشروعة، والصحابي أبو بُرَّةَ بن زِيَارٍ - خَالُ الْبَرَاءِ بن عازب - راوي هذا الحديث الشريف، يصرح أمام الرسول، صلى الله عليه وسلم، عن فهمه لهذه الخصوصية، فيقول: (وَعَرَفْتُ أَنَّ الْيَوْمَ يَوْمٌ أَكُلُ وَشَرِبُ)، وفي رواية أخرى، قال رَجُلٌ أمام الرسول، صلى الله عليه وسلم، عن يوم عيد الأضحى على وجه الخصوص: بأنه (يَوْمٌ يُشْتَهَى فِيهِ اللَّحْمُ)، فعن أَنَسٍ رضي الله عنه، قال: (قال النبي، صلى الله عليه وسلم: من ذَبَحَ قَبْلَ الصَّلَاةِ فَلْيُعِدْ، فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: هَذَا يَوْمٌ يُشْتَهَى فِيهِ اللَّحْمُ، وَذَكَرَ مِنْ حَيْرَانِهِ، فَكَانَ النَّبِيُّ، صلى الله عليه وسلم، صَدَّقَهُ، قَالَ: وَعِنْدِي جَدَعَةٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ شَاتِي لَحْمٍ، فَرَخَّصَ لَهُ النَّبِيُّ، صلى الله عليه وسلم، فَلَا أُدْرِي أَبْلَغْتُ الرُّحْصَةَ مِنْ سِوَاهُ أَمْ لَا؟). (2)

ولم ينكر صلى الله عليه وسلم، ما صدر عن هذين الصحابين من تعبير عما يختلج في نفسيهما، ويدور في خلديهما من فهم لمعنى رفاهية العيد، وشكل السلوك فيه، مما يعد إقراراً منه صلى الله عليه وسلم، لهذا الفهم، حيث إن السنة النبوية تشمل ما ورد عن الرسول، صلى الله عليه وسلم، من قول، أو فعل، أو تقرير، أو صفة.

وجاء في السنة النبوية الصحيحة أيضاً ما يؤكد تميز العيد بخصوصية التوسع في الترفه المشروع، فعن عَائِشَةَ رضي الله عنها، قالت: (دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، وَعِنْدِي جَارِيَتَانِ تَغْنِيَانِ بَغَاءِ بُعَاثَ، فَاضْطَجَعَ عَلَى الْفِرَاشِ، وَحَوَّلَ وَجْهَهُ، وَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ فَأَتَتْهُرْنِي وَقَالَ: مِزْمَارَةُ الشَّيْطَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ، صلى الله عليه وسلم؟! فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ،

1- تحقيق صحيح البخاري، مصطفى ذيب البغا، 325/1.

2- صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب الأكل يوم النحر.

عليه السَّلَام، فقال: دَعَهُمَا، فلما غَفَلَ غَمَزْتُهُمَا، فَخَرَجْتَا، وكان يومَ عِيدٍ يَلْعَبُ السُّودَانُ بِالدَّرَقِ وَالْحِرَابِ، فَمَا سَأَلْتُ النَّبِيَّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِمَّا قَالَ: تَشْتَهَيْنِ تَنْظُرِينَ؟ فقلت: نعم، فَأَقَامَنِي وَرَأَهُ، خَدِّي عَلَى خَدِّهِ، وهو يقول: دُونَكُمْ يَا بَنِي أَرْفَدَةَ، حَتَّى إِذَا مَلَّتْ قَالَ: حَسْبُكَ؟ قلت: نعم، قال: فَادْهَبِي. (1)

المقصود بـ (بُعَاثَ) (أي تنشدان الأشعار التي قيلت يوم بعث، وهو حرب كانت بين الأنصار)⁽²⁾، والمقصود بـ (الدَّرَقِ) (جمع الدرقة، وهي الترس الذي يتخذ منه الجلد)⁽³⁾، (وَالْحِرَابِ) جمع حرب، وهو الرمح العريض النصل).⁽⁴⁾

وفي رواية أخرى عنها، رضي الله عنها، قالت: (دخل أبو بكرٍ، وَعِنْدِي جَارِيَتَانِ مِنْ جَوَارِيِ الْأَنْصَارِ تُعْنِيَانِ بِمَا تَقَاوَلَتِ الْأَنْصَارُ يَوْمَ بُعَاثَ، قالت: وَلَيْسَتَا بِمُعْنِيَتَيْنِ، فقال أبو بكرٍ: أَمْزَامِيرُ الشَّيْطَانِ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟! وَذَلِكَ فِي يَوْمِ عِيدٍ، فقال رسول الله، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا أَبَا بَكْرٍ؛ إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيدًا، وَهَذَا عِيدُنَا).⁽⁵⁾

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، أراد للعيد أن يكون مُبْهَجًا، وَأَذِنَ فِيهِ بِالْغِنَاءِ الْمَشْرُوعِ، وبممارسة الألعاب الرياضية المشروعة ومشاهدتها فيه، ولم يوجه الناس للأحزان في العيد، ولا لتجديد ذكراها، بل نبه صديقه المقرب أبا بكر الصديق، رضي الله عنه، لهذه المعاني، حين ذكَّره بأن اليوم عيد، طالباً منه أن يدع ابنته أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، وجاريتها لمواصلة غنائهما المشروع، وابتهاجهما بالعيد.

صلاة العيد ووعظ الناس فيه

مع ما للعيد من بهجة، وما فيه من سرور، فإن الرسول، صلى الله عليه وسلم، على درب منهج الإسلام العظيم، جعل للطاعة والعبادة والذكر، مجالاً رحباً في ساعات العيد

1- صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب الحراب والدرق يوم العيد.

2- جامع غريب الحديث: 159/2.

3- حاشية السندي: 154/1.

4- عمدة القاري: 249/10.

5- صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب سنة العيدين لأهل الإسلام.

وأوقاته، فالْمُؤْمِنُ عَلَى صَلَاةٍ وَثِيقَةٍ بِاللَّهِ دَائِمًا وَأَبَدًا، فِي سِرَائِهِ وَضِرَائِهِ، يَذْكُرُ اللَّهَ فِي الرَّخَاءِ لِيَذْكُرَهُ اللَّهُ فِي الشَّدَائِدِ، مِنْ هُنَا كَانَ لِلْعِيدِ صَلَاةٌ خَاصَّةٌ، وَتَكْبِيرٌ، وَمَوَاعِظٌ، وَجَعَلَ الرَّسُولُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، صَلَاةَ الْعِيدِ أَوَّلَ أَعْمَالِ يَوْمِ الْعِيدِ، فَقَالَ: (إِنَّ أَوَّلَ مَا نَبْدَأُ مِنْ يَوْمِنَا هَذَا أَنْ نُصَلِّيَ، ثُمَّ نَرْجِعَ، فَنَنْحَرَ، فَمَنْ فَعَلَ؛ فَقَدْ أَصَابَ سُنَّتَنَا).⁽¹⁾

وقد سنَّ عليه الصلاة والسلام صلاة العيد في المصلى، فعن أبي سعيد الخدري قال: (كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يخرج يوم الفطر والأضحى إلى المصلى، فأول شيء يبداً به الصلاة، ثم ينصرف، فيقوم مقابل الناس، والناس جلوس على صفوفهم، فيعظهم، ويأمرهم، ويأمرهم، فإن كان يريد أن يقطع بعثاً قطعه، أو يأمر بشيء أمر به، ثم ينصرف، قال أبو سعيد: فلم يزل الناس على ذلك، حتى خرجت مع مروان، وهو أمير المدينة، في أضحى أو فطر، فلما أتينا المصلى، إذا منبر بنه كثير بن الصلت، فإذا مروان يريد أن يرتقيه قبل أن يصلي، فجدت بثوبه، فجددي، فارتفع، فخطب قبل الصلاة، فقلت له: غيرتم والله، فقال: أبا سعيد قد ذهب ما تعلم، فقلت: ما أعلم والله خير مما لا أعلم، فقال: إن الناس لم يكونوا يجلسون لنا بعد الصلاة، فجعلتها قبل الصلاة).⁽²⁾

وحيث إن المصلى يكون في فضاء وخلاء، فيشرع أن توضع أمام الإمام فيه حربة، فعن نافع، عن ابن عمر، رضي الله عنهما، أن النبي، صلى الله عليه وسلم: (كان تركز الحربة قدامه، يوم الفطر والنحر، ثم يصلي).⁽³⁾

وفي صحيح البخاري، باب حمل العنزة أو الحربة بين يدي الإمام يوم العيد، وفيه عن ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: (كان النبي، صلى الله عليه وسلم، يغدو إلى المصلى، والعنزة بين يديه تحمل، وتُنصب بالمصلى بين يديه، فيصلي إليها)⁽⁴⁾. المقصود بـ (العنزة) الحربة الصغيرة.⁽¹⁾

1- صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب الخطبة بعد العيد.

2- صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب الخروج إلى المصلى بغير منبر.

3- صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب الصلاة إلى الحربة يوم العيد.

4- صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب حمل العنزة أو الحربة بين يدي الإمام يوم العيد.

ومن مواعظه صلى الله عليه وسلم للناس يوم عيد الأضحى المبارك، بيانه أن الأضحية لا بد أن تُذبح بعد صلاة العيد، فإن دُبح قبلها فهي لحم، لا نسك، وفي هذا جاء في الحديث الصحيح المذكور آنفاً أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، خطب يوم الأضحى بعد الصلاة فقال: (من صلى صلاتنا، ونسك نسكنا، فقد أصاب النسك، ومن نسك قبل الصلاة، فإنه قبل الصلاة، ولا نسك له)⁽²⁾، وربط الرسول، صلى الله عليه وسلم، بسنته الالتزام بأحكام الأضحية، ومن بين ذلك التقيد بمواعيد الذبح، فقال عليه الصلاة والسلام: (فمن فعل ذلك، فقد أصاب سنتنا)⁽³⁾، ونبه من لا يتقيد بذلك إلى أن الذبيحة التي ذبحها يوم العيد قبل الصلاة، لا تقبل أضحية، فقال: (شأنك شاة لحم)⁽⁴⁾، وقال: (... ومن نحر قبل الصلاة، فإنما هو لحم قدمه لأهله، ليس من النسك في شيء).⁽⁵⁾

ويلاحظ أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، أجاب خلال خطبته للعيد عن أسئلة المستفسر حول أضحيته، فسمع أسئلته واستيضاحاته، وأجابه عن ذلك، كما ظهر في حديث البراء بن عازب المذكور أعلاه، ووضع الإمام البخاري في صحيحه باباً بعنوان، باب كلام الإمام والناس في خطبة العيد، وإذا سئل الإمام عن شيء، وهو يخطب.⁽⁶⁾

خروج النساء والصبيان لصلاة العيد ووعظهن فيه

لم يقتصر الرسول، صلى الله عليه وسلم، على وعظ الرجال في العيد، بل كان يخص النساء بمواعظه فيه، فعن أم عطية، قالت: (كنا نؤمر أن نخرج يوم العيد، حتى نخرج البكر من خدرها، حتى نخرج الحيض، فيكن خلف الناس، فيكبرن بتكبيرهم، ويدعون بدعائهم، يرجون بركة ذلك اليوم وطهرته).⁽⁷⁾

1- تيسير العلام شرح عمدة الأحكام: 23/1.

2- صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب الأكل يوم النحر.

3- صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب الخطبة بعد العيد.

4- صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب الأكل يوم النحر.

5- صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب الخطبة بعد العيد.

6- صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب كلام الإمام والناس في خطبة العيد، وإذا سئل الإمام عن شيء وهو يخطب.

7- صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب التكبير أيام منى وإذا غدا إلى عرفة.

وفي صحيح البخاري، باب خُرُوجِ النِّسَاءِ وَالْحَيْضِ إِلَى الْمُصَلَّى، وفيه عن أُمِّ عَطِيَّةَ، قالت: (أَمَرْنَا أَنْ نُخْرِجَ الْعَوَاتِقَ، وَدَوَاتِ الْخُدُورِ، وَعَنْ أَيُّوبَ عَنْ حَفْصَةَ بِنَحْوِهِ، وَزَادَ فِي حَدِيثِ حَفْصَةَ قَالَ أَوْ قَالَتْ: الْعَوَاتِقُ، وَدَوَاتِ الْخُدُورِ، وَيَعْتَزِلُ الْحَيْضُ الْمُصَلَّى).⁽¹⁾

والمقصود بـ (الْعَوَاتِقُ) جمع عاتق، وهي الجارية البالغة، أو التي قاربت البلوغ.⁽²⁾

وفي بَابِ خُرُوجِ الصَّبِيَّانِ إِلَى الْمُصَلَّى، عن عبد الرحمن، قال: سمعت ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، قال: (خَرَجْتُ مَعَ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَوْمَ فِطْرٍ أَوْ أَضْحَى، فَصَلَّيْتُ، ثُمَّ خَطَبَ، ثُمَّ أَتَى النِّسَاءَ، فَوَعَّظَهُنَّ، وَذَكَرَهُنَّ، وَأَمَرَهُنَّ بِالصَّدَقَةِ).⁽³⁾

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: (إِنَّ النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَامَ فَبَدَأَ بِالصَّلَاةِ، ثُمَّ خَطَبَ النَّاسَ بَعْدُ، فَلَمَّا فَرَغَ نَبِيُّ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نَزَلَ، فَأَتَى النِّسَاءَ، فَذَكَرَهُنَّ، وَهُوَ يَتَوَكَّأُ عَلَى يَدِ بِلَالٍ، وَبِلَالٌ بَاسِطٌ ثَوْبَهُ يُلْقِي فِيهِ النِّسَاءُ صَدَقَةً، قَلْتُ لِعَطَاءٍ: أَتَرَى حَقًّا عَلَى الْإِمَامِ الْآنَ أَنْ يَأْتِيَ النِّسَاءَ فَيَذَكِّرُهُنَّ حِينَ يَفْرُغُ؟ قَالَ: إِنَّ ذَلِكَ لِحَقٌّ عَلَيْهِمْ، وَمَا لَهُمْ أَنْ لَا يَفْعَلُوا).⁽⁴⁾

أعاد الله هذا العيد وأمثاله على أمتنا الإسلامية بالعز والسؤدد، وعلى شعبنا المرابط بالحرية والنصر، وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا محمد، وعلى آله الكرام، وأزواجه الطاهرات، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على سنته وهديه بإحسان إلى يوم الدين.

1- صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب خروج النساء والحيض إلى المصلى.

2- صحيح مسلم بشرح النووي، 178/6.

3- صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب خروج الصبيان إلى المصلى.

4- صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب المشي والركوب إلى العيد والصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة.

الرسول الأُسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يصوم في السفر ويفطر

ورد في صحيح مسلم، باب التَّخْيِيرِ فِي الصَّوْمِ وَالْفِطْرِ فِي السَّفَرِ، وفيه عن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، أنها قالت: (سَأَلَ حَمَزَةُ بْنُ عَمْرٍو الْأَسْلَمِيَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَنِ الصِّيَامِ فِي السَّفَرِ؟ فَقَالَ: إِنْ شِئْتَ فَصُمْ، وَإِنْ شِئْتَ فَأَفْطِرْ).⁽¹⁾

وعنها رضي الله عنها: (أَنَّ حَمَزَةَ بْنَ عَمْرٍو الْأَسْلَمِيَّ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنْ رَجُلٌ أَسْرَدَ الصَّوْمَ⁽²⁾، أَفَأَصُومُ فِي السَّفَرِ؟ قَالَ: صُمْ إِنْ شِئْتَ، وَأَفْطِرْ إِنْ شِئْتَ).⁽³⁾

فهاتان الروايتان عن الرسول، صلى الله عليه وسلم، لا تدعان مجالاً للشك في حكم الصيام والفطر في السفر، فالمسألة أُسْنِدَ تحديد الموقف منها إلى تقدير الشخص وورغبته وإرادته، فلم يربط الرسول، صلى الله عليه وسلم، حكمها بمستوى معين من المشقة، وإن كانت من الأمور التي تُؤخذ بعين الاعتبار عند أخذ قرار الصوم أو الفطر؛ إذ المسألة تخضع لمبدأ التيسير والرخص، فالله لم يجعل علينا في الدين من حرج ولا عسر، فقال تعالى: {...مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ...} ⁽⁴⁾، {...وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ...} ⁽⁵⁾.

وتضمنت إحدى آيات فرض الصيام إفصاحاً صريحاً عن مراد الله الخاص بالتيسير على عباده، ورفع العسر عنهم، جاء ذلك في سياق إعطاء كل من المسافر والمريض رخصة الفطر في رمضان، فلا عليهما إن أفطرا بموجب أحد هذين العذرين المشروعين، فقال

1- صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب التخيير في الصوم والفطر في السفر.

2- أسرد الصوم: أصوم متتابعاً.

3- صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب التخيير في الصوم والفطر في السفر.

4- المائدة: 6.

5- الحج: 78.

تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِنَةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُم وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (1).

هذا البيان القرآني في هذه الآية الكريمة يؤكد ما تضمنته الآية التي سبقتها، بخصوص تشريع لجوء المسافر والمريض إلى البديل عن صيام يوم السفر أو المرض بصوم يوم مكانه في أيام تالية، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ* أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} (2). فحكم الصيام أو الفطر في السفر متروك تقديره في الأحوال العادية لذات الشخص، فإن شاء صام فكان خيراً له، وإن شاء أفطر، وقضى لاحقاً دون حرج ولا إثم.

وبهذا يبدو واضحاً أن حكم الفطر في السفر يندرج ضمن دائرة الرخص الشرعية، التي شرعها الله؛ رحمة بعباده، ورفقاً بهم، ففي الحديث عن ابن عباس، قال: (قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رِخْصَةٌ، كَمَا يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى عَزَائِمُهُ). (3).

وفي إطار هذا المعنى جاء إطلاق الرسول، صلى الله عليه وسلم، على إفطار المسافر وصف الرخصة التي شرعها الله، فعن عروة بن الزبير، عن أبي مرواح، عن حمزة بن عمرو الأسلمي، رضي الله عنه، أنه قال: (يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَجِدُ بِي قُوَّةً عَلَى الصِّيَامِ فِي

1- البقرة: 185.

2- البقرة: 183-184.

3- صحيح ابن حبان، 69/2، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، حديث رقم 1060.

السَّفَرِ، فَهَلْ عَلَيَّ جُنَاحٌ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هِيَ رُحْصَةٌ مِنَ اللَّهِ، فَمَنْ أَخَذَ بِهَا فَحَسَنٌ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَصُومَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ.⁽¹⁾

ممارسة الفطر في نهار رمضان حال السفر

إلى جانب كون السفر مبيحاً للفطر في الظروف العادية، فإنه يكون أحياناً مسوغاً حقيقياً للفطر؛ بسبب قسوة الأحوال الجوية، أو صعوبة ظروف السفر، وقد مارس الرسول، صلى الله عليه وسلم، الفطر في رمضان خلال سفره من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة، فعن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، قال: (سَافَرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي رَمَضَانَ، فَصَامَ حَتَّى بَلَغَ عُسْفَانَ، ثُمَّ دَعَا بِإِنَاءٍ فِيهِ شَرَابٌ، فَشَرِبَهُ نَهَارًا؛ لِيَرَاهُ النَّاسُ، ثُمَّ أَفْطَرَ حَتَّى دَخَلَ مَكَّةَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما: فَصَامَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَفْطَرَ، فَمَنْ شَاءَ صَامَ، وَمَنْ شَاءَ أَفْطَرَ).⁽²⁾

ووقع ذلك منه صلى الله عليه وسلم خلال مسيره قاصداً فتح مكة، فعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، رضي الله عنهما: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خَرَجَ عَامَ الْفَتْحِ إِلَى مَكَّةَ فِي رَمَضَانَ، فَصَامَ حَتَّى بَلَغَ كُرَاعَ الْغَمِيمِ، فَصَامَ النَّاسُ، ثُمَّ دَعَا بِقَدَحٍ مِنْ مَاءٍ، فَرَفَعَهُ حَتَّى نَظَرَ النَّاسُ إِلَيْهِ، ثُمَّ شَرِبَ، فَقِيلَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ: إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَدْ صَامَ، فَقَالَ: أَوْلَيْكَ الْعُصَاةُ، أَوْلَيْكَ الْعُصَاةُ).⁽³⁾

وهذا الشاهد يدل بوضوح على أن من شرع في الصيام وهو مسافر، ثم واجهته مشقة حقيقية بسبب الحر أو العطش، فإن إقدامه على الفطر لا يكون فيه كراهة، ولا تحريم، ولا حرج، بل إن الذين شددوا على أنفسهم في مثل ذلك الظرف القاسي، وصفهم الرسول، صلى الله عليه وسلم، بالعصاة.

1- صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب التخيير في الصوم والفطر في السفر.

2- صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية إذا كان سفره مرحلتين فأكثر، وأن الأفضل لمن أطاقه بلا ضرر أن يصوم، ولمن يشق عليه أن يفطر.

3- صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية إذا كان سفره مرحلتين فأكثر، وأن الأفضل لمن أطاقه بلا ضرر أن يصوم، ولمن يشق عليه أن يفطر.

وفي سياق مشابه، كان للرسول، صلى الله عليه وسلم، موقف بين فيه أنه ليس من البر أن يصوم الذي يتعرض للهلاك والضرر المحقق، فعن جابر بن عبد الله، رضي الله عنهما، قال: (كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في سفر، فرأى رجلاً قد اجتمع الناس عليه، وقد ظلل عليه، فقال: ما له؟ قالوا: رجل صائم، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: ليس من البر أن تصوموا في السفر).⁽¹⁾

ذهب المفطرون بالأجر

على الرغم مما للصيام من أجر وثواب، فإن الأخذ برخصة الفطر أحياناً يكون له على المفطر ومجتمعه من الفوائد ما يفوق أجر الصيام، فقد تكون للمفطر بسبب السفر أعمال نافعة، وأدوار مهمة، أعانهم الأخذ برخصة الفطر على أدائها، والقيام بأعمال يعم خيرها الصالح العام والخاص، مما يستجلب الأجر والثواب، الذي قد يزيد في مستواه وقدره عن أجر الأخذ بعزيمة الصيام، مع فتور المهمة، وضعف القوة البدنية عن أداء الدور الذي يؤديه المفطر، وفي صحيح مسلم، باب أجر المفطر في السفر إذا تولى العمل، وتحتة عن أنس، رضي الله عنه، قال: (كنا مع النبي، صلى الله عليه وسلم، في السفر، فمنا الصائم، ومنا المفطر، قال: فنزلنا منزلاً في يوم حار، أكثرنا ظلاً صاحب الكساء، ومنا من يتقي الشمس بيده، قال: فسقط الصوام، وقام المفطرون، فضربوا الأبنية، وسقوا الركاب، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: ذهب المفطرون اليوم بالأجر).⁽²⁾

والإشادة بدور المفطرين في مثل هذا الظرف الصعب؛ للخدمات الجليلة التي قدموها لمن حولهم، وردت في أكثر من رواية صحيحة، فعن أنس، رضي الله عنه، قال: (كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في سفر فصام بعض، وأفطر بعض، فتخزم المفطرون

1- صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية، إذا كان سفره مرحلتين فأكثر، وأن

الأفضل لمن أطاقه بلا ضرر أن يصوم، ولم يشق عليه أن يفطر.

2- صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب أجر المفطر في السفر إذا تولى العمل.

وَعَمِلُوا، وَضَعَفَ الصُّوَامُ عَنْ بَعْضِ الْعَمَلِ، قَالَ: فَقَالَ فِي ذَلِكَ: ذَهَبَ الْمُفْطِرُونَ الْيَوْمَ بِالْأَجْرِ⁽¹⁾.

وعن قَزَعَةَ، قَالَ: (أَتَيْتُ أَبَا سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ مَكْثُورٌ عَلَيْهِ، فَلَمَّا تَفَرَّقَ النَّاسُ عَنْهُ، قُلْتُ: إِنِّي لَا أَسْأَلُكَ عَمَّا يَسْأَلُكَ هَؤُلَاءِ عَنْهُ، سَأَلْتُهُ عَنِ الصَّوْمِ فِي السَّفَرِ؟ فَقَالَ: سَافَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى مَكَّةَ وَنَحْنُ صِيَامٌ، قَالَ: فَنَزَلْنَا مَنْزِلًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّكُمْ قَدْ دَنَوْتُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ، وَالْفِطْرُ أَقْوَى لَكُمْ، فَكَانَتْ رُخْصَةً، فَمِنَّا مَنْ صَامَ، وَمِنَّا مَنْ أَفْطَرَ، ثُمَّ نَزَلْنَا مَنْزِلًا آخَرَ، فَقَالَ: إِنَّكُمْ مُصَبِّحُو عَدُوِّكُمْ، وَالْفِطْرُ أَقْوَى لَكُمْ فَأَفْطِرُوا، وَكَانَتْ عَزْمَةً، فَأَفْطَرْنَا، ثُمَّ قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتَنَا نَصُومُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَعْدَ ذَلِكَ فِي السَّفَرِ⁽²⁾.

الأخذ بعزيمة الصوم في السفر

في ظلال العمل بمبدأ رفض الإفراط والتفريط، فإن الرسول، صلى الله عليه وسلم، تماشى مع التوجيهات الربانية في فتح باب التيسير للصائم المسافر، بأن أباح له أن يفطر، ويقضي لاحقاً، ومارس الرسول، صلى الله عليه وسلم، الفطر في رمضان أثناء السفر، إلا أنه لم يكن ذلك ديدنه الدائم، بل حافظ على صيامه في بعض سفره، مؤكداً بذلك على جواز اختيار المسافر الصيام أو الفطر، فعن أمِّ الدرداء، عن أبي الدرداء، رضي الله عنهما، قال: (خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، حَتَّى إِنْ كَانَ أَحَدُنَا لَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ، وَمَا فِينَا صَائِمٌ إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ⁽³⁾).

وعنها رضي الله عنها، قالت: (قال أبو الدرداء: لقد رأيتنا مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في بعض أسفاره في يوم شديد الحر، حتى إن الرجل ليضع يده على رأسه

1- صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب أجر المفطر في السفر إذا تولى العمل.

2- صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب أجر المفطر في السفر إذا تولى العمل.

3- صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب التحيير في الصوم والفطر في السفر.

من شَيْلَةَ الْحَرِّ، وما مِنَّا أَحَدٌ صَائِمٌ إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَبْدُ اللَّهِ بن رَوَاحَةَ).⁽¹⁾

فكان في بعض الظروف والأحوال يوجد من بين المسلمين المسافرين الصائم، ويوجد منهم المفطر، ولم يكن يعيب الصائم على المفطر، ولا المفطر على الصائم، فعن حُمَيْدٍ، قال: (خَرَجْتُ فَصُمْتُ، فَقَالُوا لِي: أَعِدْ، قال: فقلت: إِنَّ أَنَسًا أَخْبَرَنِي أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانُوا يُسَافِرُونَ فَلَا يَعِيبُ الصَّائِمُ عَلَى الْمُفْطِرِ، وَلَا الْمُفْطِرُ عَلَى الصَّائِمِ، فَلَقِيْتُ ابْنَ أَبِي مُلَيْكَةَ، فَأَخْبَرَنِي عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، بِمِثْلِهِ).⁽²⁾

فهذا هو ديننا الذي بلَّغهُ رسولنا الأُسوة، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في قوله، وعمله، وتقريره، دين السَّماحة واليسر، والانضباط والالتزام، ومن يفقه أحكامه ومبادئه يجد الأدلة والشواهد التي لا ينقطع مددها عن رُفد مبدأ التيسير، ورفع الحرج عن المسلمين في شؤون حياتهم، وصلى اللهُ وَسَلَّمَ وبارك على الحبيب محمد، وعلى صحابته الغر الميامين، وعلى من تبعه ووالاه بإحسان إلى يوم الدين.

1- صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب التخيير في الصوم والفطر في السفر.

2- صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية، إذا كان سفره مرحلتين فأكثر، وأن الأفضل لمن أطاقه بلا ضرر أن يصوم، ولمن يشق عليه أن يفطر.

الفصل الرابع

جهاد وأسرى

93	ﷺ ونصر الله العزيز وفتح المبين	.16
99	ﷺ يحث الأمة على القيام بواجبها نحو الانتصار لقدسها وأقصاها	.17
105	ﷺ ومشاركة المرأة في أداء الواجبات العسكرية	.18
109	ﷺ يحذر من عواقب احتلال الأرض ظلماً	.19
115	ﷺ يحث على رعاية ذوي الشهداء والأسرى ويحذر من خيانتهم	.20

الرسول الأُسوة محمد صلى الله عليه وسلم

ونصر الله العزيز وفتح المبين

من الله على رسوله الكريم محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، في الآية الثالثة من سورة الفتح بأن تفضل عليه بالنصر العزيز، فقال تعالى: {وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا} (1)، فنعمة الله كثيرة لا تعد ولا تحصى، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها، ونصر الله من أجل تلك النعم، التي يفرح بها المؤمنون، إذ يقول تعالى: {... وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ* يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} (2).

المراد بالنصر العزيز والفتح المبين

يقول تعالى في فاتحة سورة الفتح: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا} (3).

نزلت هذه الآيات على إثر رجوع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من مكة عام الحديبية، كما جاء في تفسير الكشاف للزمخشري، الذي ذكر أنه جيء بالفتح على لفظ الماضي على عادة رب العزة سبحانه في أخباره؛ لأنها في تحققها وتيقنها تكون بمنزلة الكائنة الموجودة.

ويذكر الزمخشري أن المراد بالنصر العزيز فتح مكة، وقيل هو فتح الحديبية، ولم يكن فيه قتال شديد، ولكن ترام بين القوم بسهام وحجارة، وتفسير كون صلح الحديبية فتحاً، وقد أحصروا فنحروا وحلقوا بالحديبية، أن ذلك كان قبل الهدنة، فلما طلبوها وتمت، كان فتحاً مبيناً (4).

1- الفتح: 3.

2- الروم: 5.4.

3- الفتح: 3.1.

4- الكشاف، 334/4.

وورد في تفسير السعدي أن الفتح المذكور هنا هو صلح الحديبية حين صدَّ المشركون رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لما جاء معتمراً في قصة طويلة، صار آخر أمرها أن صلحهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، على وضع الحرب بينه وبينهم عشر سنين، وعلى أن يعتمر من العام المقبل، وعلى أن مَنْ أراد أن يدخل في عهد قريش وحلفهم دخل، ومن أحب أن يدخل في عهد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وعقده فعل. وفسر سبب تسمية هذا الصلح بالنصر العزيز؛ وذلك أنه لما آمنَ الناس بعضهم بعضاً اتسعت دائرة الدعوة لدين الله عز وجل، وصار كل مؤمن بأي محل كان من تلك الأقطار يتمكن من ذلك، وأمكن ذلك للحريص على الوقوف على حقيقة الإسلام، فدخل الناس في تلك المدة في دين الله أفواجا؛ فلذلك سماه الله فتحاً، ووصفه بأنه فتح مبين، أي ظاهر جلي؛ وذلك لأن المقصود من فتح بلدان المشركين إعزاز دين الله، وانتصار المسلمين، وهذا حصل به الفتح⁽¹⁾. وبرهن الشيخ الشنقيطي في أضواء البيان على اعتبار المقصود بالفتح المبين بأن الذين شهدوا صلح الحديبية مع النبي، صلى الله عليه وسلم، في ذي القعدة عام ستة، كانوا ألفاً وأربعمائة، ولما أراد النبي، صلى الله عليه وسلم، غزو مكة حين نقض الكفار العهد، كان خروجه إلى مكة في رمضان عام ثمانية، وكان معه عشرة آلاف مقاتل، وذلك يوضح أن الصلح المذكور من أعظم الفتوح؛ لكونه سبباً لقوة المسلمين، وكثرة عددهم، مؤكداً على أن ظاهر القرآن يدل عليه؛ لأن سورة الفتح نزلت بعد صلح الحديبية في طريقه صلى الله عليه وسلم، راجعاً إلى المدينة، ولفظ الماضي في قوله: {إِنَّا فَتَحْنَا} يدل على أن ذلك الفتح قد مضى، فدعوى أنه فتح مكة، ولم يقع إلا بعد ذلك بقرب سنتين خلاف الظاهر، والآية التي في فتح مكة دلت على الاستقبال، لا على الماضي، وهي قوله تعالى: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}.⁽²⁾

1- تفسير السعدي، 791/1.

2- أضواء البيان، 393/7.

العمل السياسي المستهدف للنصر والفتح المبين

إن مما يظهر من تفسير العلماء للمراد بالنصر العزيز والفتح المبين، الوارد ذكرهما في مقدمة سورة الفتح، شرعية المقدمات الصحيحة، التي يتم اللجوء إليها من خلال العمل السياسي وغيره، على طريق تحقيق الأهداف المشروعة، وإن كان ظاهر بعض تلك المقدمات لا يبدو عليه لأول وهلة أمارات الفتح والنصر، ففي صلح الحديبية لم يتمكن بعض المسلمين من تصور قبول شروطه؛ حيث كان من مقتضيات هذا الصلح العودة عن أداء العمرة التي شرع الرسول، صلى الله عليه وسلم، ومرافقوه من الصحابة، رضي الله عنهم، في أعمالها، فأحرموا لها، غير أن قريشاً منعتهم، وتمخضت المفاوضات بين الطرفين عن عقد صلح الحديبية، الذي كانت بعض بنوده قاسية على المسلمين، إلا أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، الذي كان يخطط لتحقيق أهداف سامية بعيدة المدى، من ضمنها حفظ الحرمه والقداسة لمكة - بلد المسجد الحرام -، فحرص على أن لا يراق فيها دم، وقد جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، خَرَجَ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَّةِ، حَتَّى كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ، فَقَالَ: (إِنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ بِالْغَمِيمِ⁽¹⁾ فِي خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةٌ⁽²⁾)، فَخُدُّوا ذَاتَ الْيَمِينِ، فَوَاللَّهِ مَا شَعَرَ بِهِمْ خَالِدٌ حَتَّى إِذَا هُمْ بِقَتْرَةَ الْجَيْشِ⁽³⁾، فَانْطَلَقَ يَرْكُضُ نَذِيرًا لِقُرَيْشٍ، وَسَارَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِالثَّنِيَّةِ⁽⁴⁾ الَّتِي يُهْبِطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا، بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ، فَقَالَ النَّاسُ: حَلَّ حَلٌّ⁽⁵⁾ فَأَلَحَّتْ، فَقَالُوا: خَلَّتْ الْقَصْوَاءُ، خَلَّتْ الْقَصْوَاءُ⁽⁶⁾، فَقَالَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا خَلَّتْ الْقَصْوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا

1- الغميم: موضع بين مكة والمدينة.

2- طليعة: مقدمة الجيش.

3- قتره: الغبار الأسود.

4- الثنية: هي طريق في الجبل تشرف على الحديبية.

5- حل حل: كلمة تقال للناقة إذا تركت السير.

6- خلات القصواء: الخلاء للإبل كالحران للخيل، وقال ابن قتيبة: لا يكون الخلاء إلا للثوق خاصة. والقصواء: اسم ناقة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقيل كان طرف أذنها مقطوعاً، والقصو قطع طرف الأذن.

يَخْلُقُ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَايِسُ الْفَيْلِ⁽¹⁾، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ، إِلَّا أَعْطَيْتَهُمْ إِيَّاهَا.⁽²⁾

وأكد الرسول، صلى الله عليه وسلم، تمسكه بالحرص على دخول مكة سلماً، فلما جاءه بُدَيْلُ بن وَرْقَاءَ الْخُزَاعِيُّ فِي نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ خُزَاعَةَ، وَكَانُوا عَيْبَةَ نُصْحِ⁽³⁾ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ أَهْلِ تِهَامَةَ، فَقَالَ: (إِنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بن لُؤْيٍ، وَعَامِرَ بن لُؤْيٍ نَزَلُوا أَعْدَادَ مِيَاهِ الْحُدَيْبِيَّةِ⁽⁴⁾، وَمَعَهُمُ الْعُوذُ الْمَطَافِيلُ⁽⁵⁾، وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ، وَصَادُوكَ عَنِ الْبَيْتِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ...)⁽⁶⁾.

ومع تأكيد الرسول، صلى الله عليه وسلم، على أنه لم يجيء لمكة لقتال أحد، وإنما جاء معتمراً، نظر في حال قريش، فقومه، وحدد موقفه من معركته معها، فقال لوفد خزاعة: (...وَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهَكْتَهُمُ الْحَرْبُ⁽⁷⁾، وَأَضْرَبَتْ بِهِمْ، فَإِنْ شَاءُوا مَادَدْتَهُمْ مُدَّةً⁽⁸⁾، وَيَخْلُوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ فَإِنْ أَظْهَرَ⁽⁹⁾، فَإِنْ شَاءُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا، وَإِلَّا

1- حَبَسَهَا حَايِسُ الْفَيْلِ: أَيِ حَبَسَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ دُخُولِ مَكَّةَ، كَمَا حَبَسَ الْفَيْلَ عَنْ دُخُولِهَا وَقْتُ حَادِثَةِ أُبْرَهَةَ الْحَبَشِيِّ. (فتح الباري، 283/8).

2- صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط.

3- عَيْبَةَ نُصْحٍ: مَا يُوَضَّعُ فِيهِ الْتِيَابُ لِحَفْظِهَا، وَالْمُرَادُ بِهَا هُنَا مَوْضِعُ سِرِّهِ وَأَمَانَتِهِ، شَبَّهَ الْإِنْسَانَ الَّذِي هُوَ مُسْتَوْدَعٌ سِرَّهُ بِالْعَيْبَةِ الَّتِي هِيَ مُسْتَوْدَعٌ الْتِيَابِ أَيِ مَحَلِّ نَصْحِهِ، وَمَوْضِعُ أَسْرَارِهِ، (عمدة القاري، 493/20)

4- نَزَلُوا أَعْدَادَ مِيَاهِ الْحُدَيْبِيَّةِ: الْأَعْدَادُ بِالْفَتْحِ جَمْعُ عَدٍّ بِالْكَسْرِ وَالتَّشْدِيدِ، وَهُوَ الْمَاءُ الَّذِي لَا انْقِطَاعَ لَهُ، وَقَوْلُ بُدَيْلٍ هَذَا يُشْعِرُ بِأَنَّهُ كَانَ بِالْحُدَيْبِيَّةِ مِيَاهَ كَثِيرَةً، وَأَنَّ قُرَيْشًا سَبَقُوا إِلَى النَّزُولِ عَلَيْهَا، فَلِهَذَا عَطَشَ الْمُسْلِمُونَ حَيْثُ نَزَلُوا عَلَى التَّمَدِّ الْمَذْكُورِ.

5- الْعُوذُ الْمَطَافِيلُ: الْعُوذُ مُعْجَمَةٌ جَمْعُ عَائِدٍ، وَهِيَ النَّاقَةُ ذَاتُ اللَّبَنِ، وَالْمَطَافِيلُ الْأَمْهَاتُ اللَّائِي مَعَهَا أَطْفَالُهَا، يُرِيدُ أَنَّهُمْ خَرَجُوا مَعَهُمْ بِذَوَاتِ الْأَبْلَانِ مِنَ الْإِبِلِ؛ لِيَتَزَوَّدُوا بِأَلْبَانِهَا، وَلَا يَرْجِعُوا حَتَّى يَمْنَعُوهُ، أَوْ كُنِيَ بِذَلِكَ عَنِ النِّسَاءِ مَعَهُنَّ الْأَطْفَالَ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُمْ خَرَجُوا مِنْهُمْ بِنِسَائِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ لِإِرَادَةِ طَوْلِ الْمَقَامِ، وَلِيَكُونَ أَدْعَى إِلَى عَدَمِ الْفِرَارِ. (فتح الباري، 283/8).

6- صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط.

7- نَهَكْتَهُمُ الْحَرْبُ: أَيِ أَيْلَعَتْ فِيهِمْ حَتَّى أَضَعْتَهُمْ، إِمَّا أَضَعَتْ قُوَّتَهُمْ، وَإِمَّا أَضَعَتْ أَمْوَالَهُمْ.

8- مَادَدْتَهُمْ: أَيِ جَعَلْتُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ مُدَّةً يَتْرَكُ الْحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فِيهَا.

9- فَإِنْ أَظْهَرَ: هُوَ شَرْطٌ بَعْدَ الشَّرْطِ، وَالتَّقْدِيرُ: فَإِنْ ظَهَرَ غَيْرُهُمْ عَلَيَّ كِفَاهِمُ الْمُتَوَنِّةِ، وَإِنْ أَظْهَرَ أَنَا عَلَى غَيْرِهِمْ، فَإِنْ شَاءُوا أَطَاعُونِي، وَإِلَّا فَلَا تَقْضِي مُدَّةَ الصَّلْحِ إِلَّا وَقَدْ جَمَعُوا، أَيِ اسْتَرَأَوْا. (فتح الباري، 283/8).

فَقَدَّ جَمُوعًا (1)، وَإِنَّ هُمْ أَبُوَا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي، وَلَيَنْفِذَنَّ اللَّهُ أَمْرَهُ، فَقَالَ بُدَيْلٌ: سَأَبْلُغُهُمْ مَا تَقُولُ، قَالَ: فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى قُرَيْشًا قَالَ: إِنَّا قَدْ جِئْنَاكُمْ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ، وَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ قَوْلًا، فَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ نَعْرِضَهُ عَلَيْكُمْ فَعَلْنَا، فَقَالَ سَفَهَاؤُهُمْ: لَا حَاجَةَ لَنَا أَنْ تُخْبِرَنَا عَنْهُ بِشَيْءٍ، وَقَالَ دُوُو الرُّأْيِي مِنْهُمْ: هَاتِ مَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ، قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا، فَحَدَّثَهُمْ بِمَا قَالَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَامَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ، فَقَالَ: أَيُّ قَوْمٍ أَلَسْتُمْ بِالْوَالِدِ؟ قَالُوا: بَلَى؛ قَالَ: أَو لست بِالْوَالِدِ؟ قَالُوا: بَلَى؛ قَالَ: فَهَلْ تَتَّهَمُونِي؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي اسْتَنْفَرْتُ أَهْلَ عَكَاطَ فَلَمَّا بَلَغُوا عَلَيَّ جِئْتَكُمْ بِأَهْلِي وَوَلَدِي وَمَنْ أَطَاعَنِي؟ قَالُوا: بَلَى؛ قَالَ: فَإِنْ هَذَا قَدْ عَرَضَ لَكُمْ خُطَّةٌ رُشِدٍ أَقْبَلُوهَا، وَدَعُونِي آتِيهِ، قَالُوا: آتِيهِ... (2).

مما سبق يظهر بجلاء أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، مارس العمل السياسي في مفاوضة خصومه، ومعالجة المواقف المشكلة والحاسمة في إطار مبادئه وقيمه، وتحت مظلة احتمالية المواجهة العسكرية مع أعدائه.

التمسك بالثوابت والمبادئ

إنَّ الرسول، صلى الله عليه وسلم، حرص على التمسك بمبادئه وثوابته الشرعية، وهو يسعى لتحقيق أهدافه السامية من خلال عمله السياسي الدؤوب، ففاوض قريشاً وصلحها في الحديبية، وهو يتطلع إلى تطهير المسجد الحرام من الوثنية والشرك، والعودة إليه بالتوحيد الخالص، على منهج حنيفة خليل الله؛ إبراهيم عليه السلام، التي أمره الله تعالى بحمل رايته، إذ قال سبحانه وتعالى: {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (3)، وقال سبحانه: {قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا

1- فقد جموا: استراحوا من جهد الحرب. (عمدة القاري، 496/20).

2- صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط.

3- النحل: 123.

كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ⁽¹⁾، وأثنى الله سبحانه وتعالى على هذا الاتباع، فقال جلّ شأنه: {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا⁽²⁾، وقال سبحانه وتعالى: {قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ⁽³⁾، فلا يخطر ببال أحد أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، لجأ إلى أي نوع من صور التنازل عن قيمه ومبادئه وهو يفاوض أعداءه ويهادنهم، بل انطلق في ذلك من رؤياه الثاقبة لمصالح المسلمين العامة، وصالح دينهم الذي جاء ليرسي دعائمهم، ويدعو إليه، ويبرهن صلى الله عليه وسلم، من خلال مواقفه هذه على أن العمل السياسي حين يتضافر مع العمل العسكري، وينطلق وإياه من منظومة القيم والمبادئ السامية، المستقاة من معين الوحي السماوي، والهلدي الرباني، فسوف يأتي بالنتائج المذهلة، على صعيد الانتصار بالحق على الباطل، ودحر العدوان الآثم، وإحلال السلام والأمن للبشرية، عوضاً عن الاضطراب المتمخض عن سياسة القهر، والظلم، والإثم، والعدوان. وحينها يفرح المؤمنون بنصر الله، الذي وعدنا جلّ في علاه أن يكون قريباً، فقال تعالى في محكم التنزيل: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ⁽⁴⁾.

سائلين الله العليّ القدير أن يهبنا من لدنه نصراً مؤزراً، يعز فيه أوليائه، ويرفع به رايات الحق، فوق ربوع أرضنا ومقدساتنا، إنه سبحانه سميع الدعاء، ونعم الحبيب، وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا الأكرم محمد بن عبد الله، وعلى آله الأطهار، وأزواجه الطيبات، وصحابته الغر الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

1- آل عمران: 95.

2- النساء: 125.

3- الأنعام: 161.

4- البقرة: 214.

الرسول الأُسوة محمد صلى الله عليه وسلم بحث الأُمة على القيام بواجبها نحو الانتصار لقدسها وأقصاها

عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: (الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ، كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ) ⁽¹⁾، وفي رواية عن أبي هريرة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (... الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ...) ⁽²⁾.

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يقر وجهاً مهماً من وجوه علاقة المسلم بالمسلم، فيبين أن المسلم يرتبط بغيره من المسلمين برابط الأخوة، التي قررها الله تعالى في كتابه العزيز، فقال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ...} ⁽³⁾، وبقتضي هذا الرابط العظيم من الأخوة نحو بعضهم بعضاً لوازم تجب مراعاتها والعناية بها من قبلهم، ومنها ما قرره هذا الحديث النبوي الشريف، حيث ينفي عليه الصلاة والسلام عن المسلم ظلمه أو تسليمه أو خذلانه أو احتقاره لأخيه المسلم، ويشير هذا النفي إلى معنى النهي والذم، فلا يصح للمسلم أن يقع في خطأ مقصود أو غير مقصود في سلوكه مع أخيه ومواقفه من قضاياها، يتعلق فحواه بخذله أو تسليمه أو ظلمه أو احتقاره. ومعنى لا يخذله أي لا يترك نصرته. ⁽⁴⁾ وفي شرح النووي على صحيح مسلم: "الخذل ترك الإعانة والنصر، ومعناه إذا استعان به في دفع ظالم ونحوه لزمه إعانتته إذا أمكنه ولم يكن له عذر شرعي، ولا يحقره هو بالقاف والحاء المهملة أي لا يحتقره فلا ينكر عليه ولا يستصغره" ⁽⁵⁾.

1- صحيح البخاري، كتاب الإكراه، باب يمين الرجل لصاحبه إنه أخوه إذا خاف عليه القتل أو نحوه.

2- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله.

3- الحجرات: 10.

4- عمدة القاري، 105/24.

5- صحيح مسلم بشرح النووي، 120/16.

القدس والأقصى يستصرخان همم المسلمين ونجاتهم

فإذا كان هذا حال المسلم مع أخيه وواجه نحوه، فكيف إذا كان المستعين وطالب الانتصار هو مسرى الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، الذي يستصرخ وامنتصره، من كيد الظالمين، واغوثه من إجحاف المتربصين العابثين، فما رد المسلمين؟ ألم يسمعوا الاستنصار والاستعانة والاستغاثة؟ وهل عملوا ما يعذرهم إلى ربهم؟ أم لم يعلموا أيضاً بواجب نصره المظلوم بموجب دينهم ومبادئ إسلامهم، حيث أوجب الرسول، صلى الله عليه وسلم، عليهم نصره المظلوم، كما ورد في صحيح الحديث الشريف عن أنس، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (أَنْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَنْصُرَهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَمْ أَنْصُرَهُ؟ قَالَ: تَحْجِزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ، فَإِنْ ذَلِكَ نَصْرُهُ)⁽¹⁾، والقدس والمسجد الأقصى والمرابطون فيهما ومن حولهما مظلومون، أسرى بين يدي جلاد لا يرحم، وتحت سياط لا تفرق بين أخضر وبابس، ولا بين مقدس أو غيره.

وحين يئن المسجد الأقصى ناشداً غوث المسلمين ومددهم، فإنه ينطلق من المسؤولية المنوطة بهم، التي تتجلى في صور ومجالات عديدة، منها وجوب الانتصار للمستضعفين، فقال تعالى: {وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا}⁽²⁾

ولا يخفى على أحد ما تعانيه القدس وأهلها والمسجد الأقصى ورواده من حالة الاستضعاف الصعبة، التي تستوجب على الأمة بأكملها مد يد العون الحقيقي، الذي يكفل تحقيق الإنقاذ المطلوب لهذا الجزء المهم من مكونات الأمة وعناصر وجودها، وإلا فالطامة صعبة، والنهية مأساوية، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

1- صحيح البخاري، كتاب الإكراه، بين الرجل لصاحبه إنه أخوه إذا خاف عليه القتل أو نحوه.

2- النساء: 75.

المسجد الأقصى في عقيدة المسلمين وعبادتهم ووجدانهم

يرتبط المسجد الأقصى على مدار الزمان بعقيدة المسلمين وإيمانهم ووجدانهم، حيث أسرى الله برسوله محمد بن عبد الله من المسجد الحرام في مكة المكرمة إلى المسجد الأقصى في القدس، وسطر الله خبر الإسراء في قرآنه الكريم، فقال تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}.⁽¹⁾

ومن المحال أن يكون هذا الربط بين طرفي رحلة الإسراء صدفة أو عبثاً أو دون هدف، وإنما يحرك هذا الربط في وجدان المسلم الشجون الدائم إلى هذين المسجدين العظيمين، فالمنطلق قبلتهم ومقصد حجهم ومنبت دعوتهم، والمنتهى قبلتهم الأولى، وإليهما وإلى المسجد النبوي في مدينة رسولهم الكريم محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، تشد رحالهم، استجابة لحثه صلى الله عليه وسلم، حيث قال: (لَا تُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَسْجِدِ الْأَقْصَى).⁽²⁾ وفي هذه المساجد الثلاثة يتضاعف أجر أداء الصلاة وثوابها، فعن أبي هريرة، رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: (صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ).⁽³⁾

والمسجد الأقصى ثاني المساجد التي وضعت في الأرض لعبادة الله، فعن أبي ذرٍّ، رضي الله عنه، قال: (قلت: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الْأَرْضِ أَوْلَى؟ قال: الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ، قال: قلت: ثُمَّ أَيٌّ؟ قال: الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى، قلت: كَمْ كَانَ بَيْنَهُمَا؟ قال: أَرْبَعُونَ سَنَةً، ثُمَّ أَيْنَمَا أَدْرَكْتِكَ الصَّلَاةُ بَعْدَ فَصْلِهِ، فَإِنَّ الْفَضْلَ فِيهِ)⁽⁴⁾، فللقدس ومسجدها

1- الإسراء: 1.

2- صحيح البخاري، أبواب التطوع، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة.

3- صحيح البخاري، أبواب التطوع، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة.

4- صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: {يزفون} النسلان في المشي.

الأقصى المبارك أهمية بالغة في عقيدة الإسلام وشريعته، مما يستدعي العناية بهما، والذود عن حياضهما، مهما بلغ المدى، وعظم الثمن.

تشبث المسلم بقدسه وأقصاه

إن المسلم الذي يؤمن بهذه العقيدة، لا يتزعزع عن شيء منها، فلا يقبل ولا يستقبل، فيبقى المسجد الأقصى مسرى نبيه المصطفى، صلى الله عليه وسلم، وقبله المسلمين الأولى في وجدانه، ويسري حبه في قلبه سريان الدم في عروقه، رغم أنف الكارهين المتربصين، الذين يظنون أنه بإجراءاتهم القمعية، وقراراتهم التسلطية الظالمة، وبطش جبروتهم، سيستطيعون محو وجود المسجد الأقصى والقدس من ذاكرة المسلمين الصادقين، فهم واهمون، يخدعون أنفسهم بأضاليل باطلة وظنون لا تغني من الحق شيئاً، فالقدس في عقيدة المسلم إسلامية الوجود والقداسة، باركها الله في قرآنه الكريم، الذي يتعبد المسلم بتلاوته آناء الليل وأطراف النهار، وإن وقوعها ومسجدها في أسر الظلمة ما هو إلا لمرحلة عابرة، يتلي فيها الله عقيدة المؤمنين، ويختبر صبرهم، فمن زاغ عن يقينه؛ فقد خاب وخسر، ومن ازداد ثقة بعقيدته ودينه، وبقي مصراً على حمل العقيدة التي تربطه بالمسجد الأقصى وبيت المقدس وما حولهما؛ فقد ربح البيع بإذن الله.

المطلوب من المسلمين تجاه قدسهم وأقصاهم

لقد طال زمن القهر الذي أصاب المسجد الأقصى والقدس وما حولهما من الأرض المباركة وأهلها، وتمادى الظالمون في غيهم، فقد مضى أربعة وأربعون عاماً على حرب 1967م، التي انتكس فيها العرب والمسلمون، بسقوط القدس ومسجدها الأقصى وما جاورهما من الأرض المباركة، سبايا في يد عدو قتلته الجشع والطمع الأعمى في قلب الحقائق، وتزييف الأمور والوثائق، زاعماً حقه الأبدي في القدس وما جاورها من الأرض الفلسطينية، وما فيها من مقدسات، وعلى رأسها المسجد الأقصى، الذي يكيدون له كيداً، ويمكرون له سوء، مبتغين هدمه، وإقامة الهيكل المزعوم على أنقاضه، والله لهم بالمرصاد، وهو القائل سبحانه وتعالى: **{ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ }**

وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ⁽¹⁾، ويتنوعد الله الظالمين وكيدهم، فيقول سبحانه: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهْلِلُ الْكَافِرِينَ أَهْمَلَهُمْ رُؤِيدًا}.⁽²⁾

ويستدعي هذا الحال من المسلمين قادة وشعوباً، أفراداً وجماعات، أحزاباً ومستقلين، عرباً وعجماً ليهبوا لنجدة قدسهم ومسرى نبيهم، منافحين بذلك عن عقيدتهم، وحيث إن الحال على ما هو عليه الآن، من استفراد المحتل بأسر أرض المسلمين ومسجدهم الأقصى، وجزء من جماعتهم، فهم مطالبون بأن يقوموا بواجبهم الذي يمليه عليهم دينهم الذي ارتضاه الله لهم، وإلا فالويل لهم، من يوم تشخص فيه الأبصار لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، حين يحاسبهم على ما قصروا تجاه عقيدتهم، التي ربطتهم بمسجدهم الأقصى وما حوله من الأرض التي باركها الله، فالواجب عظيم، والخطب جلل، وسؤال المحاسبة سيكون صعباً، حين يقف المسلمون بين يدي العزيز الجبار، والله تعالى أعلم بحقيقة ما سيكون عليه يوم الحساب، {إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا}.⁽³⁾

تواصل الصراع على القدس

إن المعركة على القدس قديمة جديدة، حيث كان الاهتمام بها على أشده، وتعددت صورته وأشكاله، وقد دخلت القدس ومسجدها الأقصى على خط الصراع بين الإيمان والكفر، {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا * إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا * عَسَى

1- الأنفال: 30.

2- الطارق: 15-17.

3- النبا: 40.

رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمُ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا⁽¹⁾، وكان من عون الله لنبيه الكريم، صلى الله عليه وسلم، أن ساق له المسجد الأقصى؛ ليتمكن من وصفه على الوجه المطلوب، خلال محاججة منكري حدث الإسراء الخارق للعادة والمألوف، وستبقى المعركة قائمة في مجالات أخرى، من أبرزها تلك التي يتنطع فيها من ينكر حق المسلمين في مسجدهم وقدهم التي أكرمهم الله بهما.

سائلين الله العلي القدير أن يمن على المسلمين بتحرير مسجدهم الأقصى من نير الاحتلال البغيض، وأن ييسر لهم سبل إعمارهِ وشد الرحال إليه، وإقامة العدل في أكنافه، وصلى الله على رسولنا الأكرم، محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه وأزواجه، ومن والاه بإحسان إلى يوم الدين.

الرسول الأُسوة محمد صلى الله عليه وسلم

ومشاركة المرأة في أداء الواجبات العسكرية

عن أنسٍ رضي الله عنه، قال: (لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ، انْهَزَمَ النَّاسُ عَنِ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: وَلَقَدْ رَأَيْتُ عَائِشَةَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ وَأُمَّ سُلَيْمٍ، وَإِنْتَهُمَا لَمْشَمَّرَتَانِ، أَرَى خَدَمَ سَوْقِهِمَا تَنْقُزَانِ الْقِرْبَ⁽¹⁾)، وَقَالَ غَيْرُهُ: تَنْقُلَانِ الْقِرْبَ عَلَى مُتُونِهِمَا، ثُمَّ تُفْرِغَانِيهِ فِي أَفْوَاهِ الْقَوْمِ، ثُمَّ تَرْجِعَانِ فَيَمْلَأْنِيهَا، ثُمَّ تَجِيئَانِ، فَتُفْرِغَانِيهَا فِي أَفْوَاهِ الْقَوْمِ⁽²⁾).

ففي هذا الحديث النبوي الشريف الصحيح إخبار عن مشاركة المرأة الرجال في جيش المسلمين، وقيامها بمهمات في الخدمة العسكرية، تتناسب مع ما تملك من قدرة وتميز، والذكر هنا لامرأتين من الصحابيات، فالأولى امرأة الرسول، صلى الله عليه وسلم، عائشة، والثانية أم سليم الرميضاء بنت ملحان الأنصارية، امرأة أبي طلحة⁽³⁾، أي هي أم أنس بن مالك، الذي خدم الرسول، صلى الله عليه وسلم، منذ هجرته إلى المدينة حتى توفاه الله، بما يقارب عشر سنوات.

وهناك شواهد أخرى على مشاركة المرأة للرجال في أداء الواجب العسكري ولوازمه، ومن قبل ابنة المسؤول الأول في المسلمين، وهو الرسول، صلى الله عليه وسلم، الذي كانت ابنته فاطمة، رضي الله عنها، مع جيش المسلمين في غزوة أحد، فقد (سئل سهل بن سعد الساعدي، رضي الله عنه، بأي شيءٍ دُوي جرح النبي، صلى الله عليه وسلم؟ قال: ما بقي من الناس أحدٌ أعلمُ به مني، كان عليٌّ يحيئُ بالماءِ في ترسِهِ، وكانتُ - يَعْنِي فَاطِمَةَ - تَغْسِلُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ، وَأُخِذَ حَصِيرٌ، فَأُحْرِقَ، ثُمَّ حُشِيَ بِهِ جُرْحُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ⁽⁴⁾).

1- قال ابن حجر: إن قوله خدم سوقهما هي الخلاخيل، وهذه كانت قبل الحجاب، ويحتمل أنها كانت عن غير قصد للنظر، وقوله: تنقزان بضم القاف بعدها زاي، والقرب بكسر القاف، جمع قربة. وقوله: تنقزان قال الداودي: معناه تسرعان المشي، كالمرولة. وقال عياض: قيل معنى تنقزان تبيان، والنقر الوثب والقفز، كناية عن سرعة السير؛ أي تحركان القرب لشدة عدوهما، وقال الخطابي: أحسب الرواية تزفران بدل تنقزان، والزفر حمل القرب النقال. (فتح الباري، 6/79-78، باختصار)

2- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب غزو النساء وقتانهم مع الرجال.

3- التعديل والتجريح، الباجي، 3/1283.

4- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب دواء الجرح بإحراق الحصير وغسل المرأة عن أبيها الدم عن وجهه وحمل الماء في الترس.

وعن أم عطية الأنصارية قالت: (غزوتُ مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، سبع غزواتٍ، أخلفهم في رحالهم، فأصنع لهم الطعام، وأداوي الجرحى، وأقوم على المرضى).⁽¹⁾

وفي صحيح البخاري باب (مداواة النساء الجرحى في الغزو)، وباب (رد النساء الجرحى وأقتلى)، وفيهما، عن الربيع بنت معوذ قالت: (كنا مع النبي، صلى الله عليه وسلم، نسقي ونداوي الجرحى، ونرد القتلى إلى المدينة).⁽²⁾

وقيل: "بؤب البخاري على غزوهن وقتلهن، وليس في الحديث أنهن قاتلن، فأما أن يريد إن إعاتتهن للغزاة غزو، وإما أن يريد أنهن ما ثبتن للمداواة ولسقي الجرحى، إلا وهن يدافعن عن أنفسهن، وهو الغالب، فأضاف إليهن القتال لذلك، وكلا الوجهين جيد".⁽³⁾

والمهم في الأمر أنه كان للمرأة دور ريادي يساند دور الرجال، في مواجهاتهم العسكرية مع أعدائهم، وذلك حصل في خير العصور الإسلامية، وأكثرها التزاماً بالإسلام، بل بحضور الرسول، صلى الله عليه وسلم، وإقراره ورضاه عن هذه المشاركة الإيجابية، التي تدل على احترام الإسلام وتقديره واهتمامه بالنشاط البناء للمرأة، والعمل المثمر الذي يخدم مصالحها وأمتها ودينها.

غزو المرأة في البحر

ولم يقتصر دور المرأة العسكري على مهمة تريض الجنود، وتقديم الطعام والماء لهم، بل تعدى ذلك إلى مشاركتها الفعلية في المهمات العسكرية، ففي صحيح البخاري، باب (غزو المرأة في البحر)، وفيه عن عبد الله بن عبد الرحمن الأنصاري قال: (سمعت أنساً، رضي الله عنه، يقول: دخل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، على ابنة ملحان، فأتكأ عندها، ثم ضحك، فقالت: لِمَ تضحك يا رسول الله، فقال: ناس من أمتي يركبون البحر الأخضر⁽⁴⁾ في سبيل الله، مثلهم

1- صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب النساء الغازيات يرضخ هن ولا يسهم، والنهي عن قتل صبيان أهل الحرب.

2- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب مداواة النساء الجرحى في الغزو.

3- عمدة القاري، 166/14.

4- ورد في فتح الباري أن الكرمانى قال في الأخضر: هي صفة لازمة البحر لا مخصصة. وقيل: إنه يتمثل أن تكون مخصصة؛ لأن البحر يطلق على الملح والعدب، فجاء لفظ الأخضر لتخصيص الملح بالمراد، قال: والماء في الأصل لا لون له، وإنما تعكس الخضرة من انعكاس الهواء وسائر مقابلاته إليه، وقال غيره: إن الذي يقابله السماء، وقد أطلقوا عليها الخضراء، لحديث ما أظلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء، والعرب تطلق الأخضر على كل لون ليس بأبيض ولا أهر. (فتح الباري 74/11).

مَثَلُ الْمَلُوكِ عَلَى الْأَسِيرَةِ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَني مِنْهُمْ، قَالَ: اللَّهُ اجْعَلْهَا مِنْهُمْ، ثُمَّ عَادَ فَضَحِكَ، فَقَالَتْ لَهُ: مِثْلَ، أَوْ مِمْ ذَلِكَ، فَقَالَ لَهَا مِثْلَ ذَلِكَ، فَقَالَتْ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَني مِنْهُمْ، قَالَ: أَنْتِ مِنَ الْأَوَّلِينَ، وَلَسْتَ مِنَ الْآخِرِينَ، قَالَ: قَالَ أَنَسٌ: فَتَزَوَّجَتْ عَبْدَةَ ابْنِ الصَّامِتِ، فَرَكِبَتْ الْبَحْرَ مَعَ بِنْتِ قَرْظَةَ، فَلَمَّا قَفَلَتْ رَكِبَتْ دَابَّتَهَا، فَوَقَّصَتْ بِهَا، فَسَقَطَتْ عَنْهَا، فَمَاتَتْ⁽¹⁾.

تكريم المرأة المناضلة

على قاعدة الإسلام في مكافأة أصحاب الفداء والتضحيات، فإن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب خص بالتكريم المميز حين توافر المرأة التي قدمت التضحيات، ونافحت عن دينها بما تملك من قوة وقدرة، ففي صحيح البخاري، بَاب (حَمَلِ النِّسَاءِ الْقُرْبَ إِلَى النَّاسِ فِي الْغَزْوِ)، وفيه عن ثَعْلَبَةَ بن أَبِي مَالِكٍ، (أَنَّ عُمَرَ بنَ الْخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَسَمَ مَرُوطًا⁽²⁾ بَيْنَ نِسَاءِ مَنْ نِسَاءِ الْمَدِينَةِ، فَبَقِيَ مَرُوطٌ جَيِّدٌ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ مَنْ عِنْدَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ أَعْطِ هَذَا ابْنَةَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الَّتِي عِنْدَكَ، يُرِيدُونَ أُمَّ كَلْثُومِ بِنْتِ عَلِيٍّ، فَقَالَ عُمَرُ: أُمَّ سَلَيْطِ أَحَقُّ، وَأُمَّ سَلَيْطِ مِنْ نِسَاءِ الْأَنْصَارِ مِمَّنْ بَايَعَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ عُمَرُ: فَإِنَّهَا كَانَتْ تَزْفِرُ لَنَا الْقُرْبَ يَوْمَ أُحُدٍ، قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: تَزْفِرُ تَخِيْطُ⁽³⁾).

النهي عن قتل النساء والصبيان في الحرب

ومن حسن احترام الإسلام للمرأة، فإنه يحظر التعرض للنساء والصبيان بالقتل حتى وقت الحرب، فعن ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: (وُجِدَتْ امْرَأَةٌ مَقْتُولَةٌ فِي بَعْضِ مَغَازِي رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصَّبِيَّانِ⁽⁴⁾)، فماذا سيقول المجرمون لربهم، حين يسألهم عن قتل النساء والأطفال وترويعهم، والتبشيع بهم من أبناء جلدتهم وغيرهم!!!

1- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة المرأة في البحر.

2- مروطاً: جمع مرط وهو كساء من صوف أو حرير.

3- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب حمل النساء القرب إلى الناس في الغزو.

4- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب قتل النساء في الحرب.

الأسيرة هناء شلبي تؤكد على معاناة الأسرى والأسيرات

شهد واقعنا الخلي مواقف بطولة لنساء وفتيات فلسطينيات، سواء على صعيد التضحية بأنفسهن من أجل تحرير الوطن، والدفاع عن الحياض والكرامة والمقدسات، أم بالتضحية بحريتهن من خلال الصبر على قيد الأسر، أم على صعيد الصبر على معاناة فراق الزوج أو الابن أو الأب أو الأخ، بسبب استشهاده أو سجنه أو إبعاده قسراً عن وطنه، وشواهد التضحيات في هذا المجال كثيرة، وهي قديمة وجديدة، بل إنها تتجدد مع تجدد فصول العام وشهوره وأسابيعه وأيامه.

ومن أحدث تضحيات المرأة الفلسطينية على هذا الصعيد، ما تقوم به الآن المناضلة الأسيرة هناء شلبي، التي قررت أن تحذو حذو المناضل الأسير خضر عدنان في محاولة جادة ضمن الإمكانيات المتاحة للتعبير عن رفض الأحكام الإدارية الجائرة، التي سلطت على كثير من المعتقلين من أبناء شعبنا الفلسطيني المرابط على أرضه الطهور، متطلعين إلى أن يرحمهم الله بنصره وتأييده وعونه ومدده، لترابطهم ومرابطتهم وصبرهم، وأن يجزيهم خير الجزاء في الدنيا والآخرة، نبراسهم في ذلك، قوله تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}. (1)

عسى أن يصدق في حالهن ما قاله عمرو بن كلثوم في معلقته:

عَلَى آثَارِنَا يَبِضُّ حِسَانُ نُحَاذِرُ أَنْ تُقَسَمَ أَوْ تَهُونَا
أَخَذْنَا عَلَى بُعُولَتِهِنَّ عَهْدًا إِذَا لَاقُوا كِتَابَ مُعَلِّمِينَا
يَقْتَنَ حِيَادَنَا وَيَقْلَنَ لِسْتُمْ بُعُولَتَنَا إِذَا لَمْ تَمْنَعُونَا
إِذَا لَمْ نَحْمِهِنَّ فَلَا بَقِينَا لِشَيْءٍ بَعْدَهُنَّ وَلَا حَيِينَا

سائلين الله العلي القدير أن يهيئ أسباب الفرج القريب لأسرانا وأسيراتنا، وأن يحررنا في أوطاننا، وأن يرفع مقته وغضبه عنا رجالاً ونساء، وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا الأسوة محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه، ومن تبعه ووالاه بإحسان إلى يوم الدين.

الرسول الأُسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يحذر من عواقب احتلال الأرض ظلماً

جاء في صحيح البخاري، باب إثم من ظلم شيئاً من الأرض، عن سالم، عن أبيه، رضي الله عنه، قال: (قال النبي صلى الله عليه وسلم: من أخذ من الأرض شيئاً يغير حقه، خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين).⁽¹⁾

يدور معنى هذا الحديث الشريف حول ما يجري بين الناس من عمليات ظلم بسرقة الأرض من أصحابها الشرعيين، وبين الرسول، صلى الله عليه وسلم، في هذا الحديث ما يترتب على هذا الاعتداء من عقاب رباني، من خلال توعده المعتدي الذي احتل أرض غيره، واستحوذ عليها ظلماً وعدواناً بالخسف إلى سبع أرضين، وقد أطلقت الأحاديث الشريفة على عملية احتلال الأرض ظلماً وصف الأخذ بغير حق، والاقطاع ظلماً، ويطلق عليها كذلك الغصب، وهو يعني في اللغة أخذ الشيء ظلماً.⁽²⁾

مجموعة من الأحاديث الصحيحة التي تعرضت لهذه القضية

تعددت روايات الحديث الشريف التي تتوعد مغتصب أرض غيره، فمنها ما جاء بلفظ الأخذ بغير حق، كالرواية المذكورة أعلاه، ومنها ما عبر عن العملية الاحتلالية الجائرة للأرض بلفظ الاقتراع ظلماً، فعن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (من اقتطع شيئاً من الأرض ظلماً، طوقه الله إياه يوم القيامة من سبع أرضين)⁽³⁾، وعن وائل بن حجر، قال: (كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتاه رجلاًن يختصمان في أرض، فقال أحدهما: إن هذا انتزى على أرضي⁽⁴⁾ يا رسول الله في الجاهلية - وهو امرؤ القيس بن عابس الكندي، وخصمه ربيعة بن عبدان - قال: بيتك؟ قال: ليس

1- صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئاً من الأرض.

2- لسان العرب، 54/11.

3- صحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها.

4- انتزى على أرضي: بمعنى وثب عليها، والانتزاء والنتزي أيضاً: تسرع الإنسان إلى الشر، لسان العرب، 14/239.

لي بئنه. قال: يمينه، قال: إذن يذهب بها. قال: ليس لك إلا ذلك. قال: فلما قام ليخلف؛ قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: من اقتطع أرضاً ظالماً، لقي الله وهو عليه غضبان⁽¹⁾.

وجاءت روايات أخرى لتعبر عن عملية احتلال الأرض بلفظ الظلم من الأرض، فعن سعيد بن زيد، رضي الله عنه، قال: (سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: من ظلم من الأرض شيئاً طوقه من سبع أرضين⁽²⁾).

وورد قريب من هذا التعبير في روايات أخرى بلفظ (ظلم قيد شبر من الأرض)؛ فعن محمد بن إبراهيم، أن أبا سلمة حدثه - وكان بينه وبين قومه خصومة في أرض - أنه دخل على عائشة، فذكر ذلك لها، فقالت: (يا أبا سلمة؛ اجتنب الأرض، فإن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: من ظلم قيد شبر من الأرض، طوقه من سبع أرضين⁽³⁾).

وعيد مغتصب الأرض ومحتلها ظلماً

رغم تعدد الألفاظ اللغوية والصيغ التي تعبر عن عملية اغتصاب الأرض واحتلالها ظلماً، إلا أنها تُجمع في مضامينها ودلالاتها على تواعد محتل الأرض ظلماً بعقاب بئس يوم القيامة، فهو سيطوق ما اغتصب واحتل ظلماً إلى سبع أرضين، وفي رواية أنه سيخسف به بمقدار ما اغتصب إلى عمق سبع أرضين، وفي الأحوال والأوصاف كلها، فإن عقاب مغتصب الأرض صعب وشديد، وأداة عقابه وشكله تتعلق بالأرض التي اغتصبها ظلماً وعدواناً.

ووعيد مغتصب أرض غيره ظلماً يشمل الأفراد والجماعات، فهو يشمل الفرد الذي يسرق شيئاً من أرض جاره، أو قريبه، أو ما عدا ذلك من الناس، ويشمل العائلات والعشائر التي تسرق أراضي غيرها، ويشمل كذلك الدول التي تحتل أراضي غيرها، وتصادر ممتلكات أصحابها، بدافع غرورها بقوتها، وضعف خصمها، فتستقوي عليه، وتعتدي على حقوقه المشروعة، حتى إن الأمر وصل بالظالمين إلى أن يقيموا حدائق تلمودية على أنقاض مقابر المسلمين المقامة على أرضهم وثرى أوطانهم، أو مكان مقدساتهم وأراضيهم ودورهم ومزارعهم.

1- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار.

2- صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب إن من ظلم شيئاً من الأرض.

3- صحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها.

الإنكار القرآني على مُهجري الناس من أراضيهم وديارهم بغير حق

يعمل الظلمون على اقتلاع الناس من أراضيهم وديارهم، وعلى حرمانهم من حقوقهم المشروعة فيها، ليحلوا محلهم، ويبتزوا خيراتها، وقد أنكر الله تعالى جرائم المعتدين الذين تجاوزوا الحق إلى الباطل في تهجير أصحاب الحقوق من ديارهم، فقال تعالى: {ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتِكُمْ أَسَارَى تَفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفْتَوْمُنُونَ بَعْضُ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِّنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} (1).

وقوله: {وَهُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ} متعلق بقوله: {وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ} وما بينهما اعتراض، والضمير للشأن، أو مبهم، ويفسره إخراجهم، أو راجع إلى ما دل عليه تخرجون. (2)

فهذه الآية الكريمة تضمنت ذكر حجة من الله، احتج بها على بعض أهل الكتاب، فإنه كان قد أخذ عليهم الميثاق ألا يقتل بعضهم بعضاً، ولا يجلبه عن دياره، وأن يفدي بعضهم بعضاً من الأسر، فهذه ثلاث عهود، خالفوا منها عهدين، وأخذوا بالثالث، فقتل بعضهم بعضاً، وأخرجوهم من ديارهم، ثم فادوا أسراهم؛ لأن الله تعالى أمرهم بذلك، فإن كنتم قد فاديتهم الأسارى؛ لأن الله أمركم بفدائهم، فلم تقتلتم بعضهم بعضاً، وأخرجتموهم من ديارهم، والله قد نهاكم عن ذلك، والأخذ ببعض الكتاب، يوجب عليكم الأخذ بجميعه. (3)

وبعد أن وصفت الآية الكريمة عملية التلبس بجرية إخراج أصحاب الحقوق المشروعة من ديارهم، جاءت بوعيد الله للذين قاموا بعملية الإخراج والتهجير الظلمة، فقال تعالى: {أَفْتَوْمُنُونَ بَعْضُ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِّنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}.

1- البقرة: 85.

2- تفسير البضاوي، 1/356.

3- بدائع الفوائد، 4/953.

ومما اشتمل عليه وعيد الذين أخرجوا قومهم من ديارهم، أن الله تعالى حذرهم من الخزي والعار والعذاب الذي سَيَحِلُّ بهم، جراء ما اقترفوا، وأصل الخزي الذل والمقت، يقال: أخزاه الله؛ إذا مقته وأبعده، وقيل: أصله الاستحياء، فإذا قيل: أخزاه الله كأنه قيل: أوقعه موقعاً يستحيا منه، وبالجملة فالمراد منه الذم العظيم. (1)

ثواب الصابرين المتشبهين بأرضهم وحقهم ومبادئهم وثوابتهم المشروعة

في مقابل وعيد المحتلين المغتصبين لأرض غيرهم، ومُهَجَّرِي أصحابها الشرعيين منها ظلماً وعدواناً، فإن الله سبحانه وعد الذين وقع عليهم ظلم الإخراج من ديارهم بغير حق، حسن الثواب، المتمثل في تكفير سيئاتهم، ودخولهم جناته التي تجري من تحتها الأنهار، فقال تعالى: {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّمَّنْ ذُكِّرَ أَوْ أَنْتَى بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الثَّوَابِ} (2)، ووعدهم الله كذلك بنصر مؤزر، وهو آتٍ آت، ولو بعد حين، فقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ* أذن للذين يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ* الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدَمَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} (3).

وأثنى الله تعالى على الذين هُجِّرُوا من ديارهم، ابتغاء فضل الله تعالى ورضوانه، فوصفهم الله بالصادقين، فقال سبحانه وتعالى: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} (4).

1- التفسير الكبير، 3/ 158.

2- آل عمران: 195.

3- الحج: 38-40.

4- الحشر: 8.

جاء في التفسير الكبير، أن المراد من {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ} الذين أُلجأهم الكفار إلى الخروج، ثم إن الله تعالى وعد المهاجرين في سبيله بأمر ثلاثة؛ أولها: نحو السيئات وغفران الذنوب، وثانيها: إعطاء الثواب العظيم، وثالثها: أن يكون ذلك الثواب ثواباً عظيماً مقروناً بالتعظيم والإجلال.⁽¹⁾

ربط حكم موالاة غير المسلم وموادته بقضية التهجير من الأرض والديار

إن من بواعث النهي الرباني عن موالاة أعداء الإسلام والمسلمين، أنهم أخرجوا المؤمنين من ديارهم ظلماً، فقال تعالى: {إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تُوَلُّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}.⁽²⁾

بخلاف الذين لم يقتروا هذه الجريمة، ولم يتلبسوا بجريرة اضطهاد المؤمنين وتهجيرهم من أرضهم وديارهم، فأولئك تصح موادتهم، ويصح البر إليهم، فقال تعالى: {لَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}.⁽³⁾

الاحتلال الظالم للأرض الفلسطينية ومقدساتها

منذ عقود زمنية وقعت الأرض الفلسطينية فريسة لاحتلال اغتصبها، وفرض سيطرته وهيمنته الظلمتين عليها، بحجج وذرائع ما أنزل الله بها من سلطان، والحقيقة الساطعة تتمثل في أنَّ المحتل وضع خطط، وقام بإجراءات مختلفة ومتنوعة على درب تنفيذها، بهدف فرض تلك السيطرة الاحتلالية بسلاح البطش، وقوة العضلات، ضد أصحاب هذه الأرض الشرعيين، الذين لم يملكوا من وسائل القوة وأسبابها ما يكفي لصد المعتدي في مرحلة تاريخية، ستصل حدَّ نهايتها في يوم قريب، إن شاء الله تعالى، مهما اشتدَّ ظلام الليل، وعظمت الزوابع والأعاصير، ومن أبرز عوامل انهيار وجود الظالم؛ غروره مجبروته، وتبججه بظلمه،

1- التفسير الكبير، 9/ 123.

2- الممتحنة: 9.

3- الممتحنة: 8.

ونسبانه قدرة الله وبطشه، وهو القائل سبحانه وتعالى: {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ* إِنَّهُ هُوَ يُبْدِيُ وَيُعِيدُ* وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ* ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ* فَعَلَّ لَمَّا يُرِيدُ} (1)، وسبق أن حلَّ بطش الله بالسالفين من الظالمين والجبارين، فقال تعالى: {فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ} (2)، وضرب الله مثلاً لبطشه الذي اقتلع جذور الذين تبجحوا بظلمهم، وكانوا أعظم بطشاً وقوة ممن جاء بعدهم، فقال تعالى: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَّحِيصٍ} (3).

وبطش الله واقع لا محالة بالطغاة والظالمين، والله تعالى يتوعدهم به، فيقول سبحانه وتعالى: {يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ} (4).

فغداً لناظره قريب، يوم تبدل الأرض غير ما هي عليه، فينصهر الباطل ويزول، ويعلو صوت الحق، بتكبير الله، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لا يعجزه خلق في الأرض ولا في السماء، ولو اجتمعوا لذلك.

هدانا الله خير الهدى، ووقفنا لنكون من الصابرين المرابطين على ثرى أرضنا الطهور، وعلى عهد المؤمنين الذين صدقوا الله ما عاهدوه، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، والعاقبة للمتقين، ولو كره الظالمون.

وصلى الله وسلم على نبينا وأسوتنا، محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه، ومن والاه بإحسان إلى يوم الدين.

1- البروج: 12-16.

2- الزخرف: 8.

3- ق: 36.

4- الدخان: 16.

الرسول الأُسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يحث على رعاية ذوي الشهداء والأسرى ويحذر من خيانتهم

عن زيد بن خالدٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (من جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِخَيْرٍ، فَقَدْ غَزَا).⁽¹⁾

يبين الرسول، صلى الله عليه وسلم، في هذا الحديث النبوي الشريف كيف يتقاسم المسلمون المهمات والأعمال، بحيث تتكامل أدوارهم، لتحقيق غاياتهم النبيلة، فالكل يعمل، والكل يجد، وإن اختلفت صور أعمالهم وأشكالها، فهي في المحصلة تخدم أهدافهم العليا، وغاياتهم البعيدة، التي يصبون من خلالها لنيل رضا الله، وهم يسعون إليها تخطيطاً وعملاً ومثابرةً وتعاوناً، عملاً بهدي الله وتوجيهاته القرآنية، حيث يقول سبحانه وتعالى: {...وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} ⁽²⁾، ويحث الله سبحانه وتعالى على العمل الصالح، فيقول: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالتَّشَاهُدِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} ⁽³⁾.

والأسير الذي يقيده أعداء الإسلام بالسلاسل، ويحرمونه من حرية الحركة والعيش الكريم؛ لأنه يقول لا لظلمهم، ونعم لكرامته وحقوقه المشروعة، وألف نعم لحرية شعبه وأمته وحفظ مقدساته، فإنه بهذا يضحى بأعلى ما يملك من أجل الله، والمحافظة على المصالح العليا لأُمَّته، وقضاياها المصيرية، فهو الغازي في سبيل الله، الذي حق له أن يخلفه إخوانه في أهله بخير، من حيث منحهم الرعاية والحفظ، ومنع الضرر والأذى عنهم، فمن فقه هذا الواجب، وأدى مقتضاه، فله أجر عظيم، وثواب جليل يضاهي ثواب الغازي

1- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل من جهز غازياً أو خلفه بخير.

2- المائدة: 2.

3- التوبة: 105.

والأسير، والرسول، صلى الله عليه وسلم، يؤكد مبدأ قسمة الأجر بين الأسير الغازي، وبين من يخلفه في أهله وماله وعياله بخير، فعن أبي سعيد الخدري، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، بَعَثَ بَعْثًا إِلَى بَنِي لَحْيَانَ - من هُدَيْلٍ - فَقَالَ: (لِيَبْعَثَ مِنْ كُلِّ رَجُلَيْنِ أَحَدَهُمَا، وَالْأَجْرُ بَيْنَهُمَا).⁽¹⁾

وفي رواية عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (بَعَثَ إِلَى بَنِي لَحْيَانَ لِيَخْرُجَ مِنْ كُلِّ رَجُلَيْنِ رَجُلٌ، ثُمَّ قَالَ لِلْقَاعِدِ: أَيُّكُمْ خَلَفَ الْخَارِجَ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ يَخِيرُ، كَانَ لَهُ مِثْلُ نِصْفِ أَجْرِ الْخَارِجِ).⁽²⁾

فضل إعالة ذوي الشهداء والأسرى

كثيرة هي النصوص الشرعية، التي تحت على الإنفاق في سبيل الله، وتبين فضله وأهميته، والتي منها ما رواه أبو مسعود الأنصاري، قال: (جاء رجلٌ بناقةً مخطومةً)⁽³⁾، فقال: هذه في سبيل الله، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعُمِائَةَ نَاقَةٍ، كُلُّهَا مَخْطُومَةٌ).⁽⁴⁾

وسبيل الله أحد مصارف الزكاة الثمانية، التي حددها القرآن الكريم، فقال تعالى: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}⁽⁵⁾، وفي تفسير القرطبي: (أن سهم "في سبيل الله" يقصد به الغزاة، وموضع الرباط، يعطون ما

1- صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره وخلافته في أهله بخير.

2- صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره وخلافته في أهله بخير.

3- والمقصود بالناقة المخطومة: التي فيها خِطام، وهو الحبل الذي يعلق على حلق البعير، ثم يعقد على أنفه، ليقاد به. (لسان العرب، 5/ 105-106).

4- صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الصدقة في سبيل الله وتضعيفها.

5- التوبة: 60.

ينفقون في غزوهم، كانوا أغنياء أو فقراء، وهذا قول أكثر العلماء⁽¹⁾، ومن مستلزمات حاجة الغزاة والأسرى، الإنفاق على من يعولون خلال فترة غيابهم عنهم.

والآيات القرآنية التي وردت بشأن الحث على الإنفاق في سبيل الله، وبيان فضله وأهميته كثيرة، فجاء في بيان فضل الإنفاق قوله تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِثَّةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} ⁽²⁾، فالإنفاق في سبيل الله يستثمر للأخرة، وينمو قدره ويتضاعف، مثل الحبة التي تُنبت سبع سنابل، ويكون في كل سنبل مائة حبة، فتكون محصلة مضاعفات الحبة الأولى سبعمائة حبة، يبين الله تعالى وجوهاً أخرى من وجوه فضل الإنفاق في سبيل الله، فيقول تعالى: {وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَشِيئًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ حَبَّةٍ يَرْبُوَةٌ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكْلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِيبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} ⁽³⁾، ويقول تعالى: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنْأً وَلَا أَدَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} ⁽⁴⁾، ويقول تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ} ⁽⁵⁾، وقال سبحانه وتعالى: {وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ} ⁽⁶⁾.

1- تفسير القرطبي، 8/185.

2- البقرة: 261.

3- البقرة: 265.

4- البقرة: 262.

5- فاطر: 29.

6- الرعد: 22.

وحث الله تعالى على البذل والإنفاق في سبيله، فقال تعالى: { وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ }⁽¹⁾، وقال جل شأنه: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ }⁽²⁾، وقال تعالى: { وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَّ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ }⁽³⁾.

وجاء حثُّ الله على الإنفاق في سبيله مقترناً بالحثُّ على تقوى الله، فقال تعالى: { فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لَأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }⁽⁴⁾.

واستنكر الله المماطلة والتسويف في الإقدام على الإنفاق في سبيل الله، أو الامتناع عنه، فقال تعالى: { وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ }⁽⁵⁾.

فهذه عينة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، التي تحث على الإنفاق في سبيل الله، وتبين فضله وأهميته، وعوائده الطيبة على المنفق الذي أنفق محتسباً الأجر والثواب، لا مستهدفاً السمعة، ولا قاصداً الرياء منه، مع كونه غير متلبس بالبن والأذى، وبما لا شك فيه أن الإنفاق على أسيرة الأسير أو الشهيد وذويهما وعيالهما، مع صون كرامتهما، والمحافظة على مشاعرهما، من أن تخذش بأي مس، من خلال إعالتهما دون إشعارهما بالبن، ودون إلحاق الأذى بهما بأي شكل، فلذلك فضل عظيم عند الله؛ لأن هذا الإنفاق

1- البقرة: 195.

2- البقرة: 267.

3- المنافقون: 10.

4- التغابن: 16.

5- الحديد: 10.

يصب في صالح من سلف بالفضل والخير لأمته، بمجموعها، وأفرادها، ووجودها، فلهما عليهم واجب كبير، وفضل سابق، وحق عظيم، ومن بعض ذلك الحق أن يكون الوفاء لهما بتأمين العيش الكريم لأهلها وعيالهما، أو المساهمة بذلك وفق القدرة والاستطاعة، انطلاقاً من كون هذا الإنفاق حقاً وواجباً، لا تفضلاً وتطوعاً.

وقائع تاريخية شاهدة على حسن احترام مقام الأسرى والشهداء

حين يتحلى المسلمون بالقيم النبيلة، فإنهم يؤثرون العطاء على البخل، والإيثار على الأنانية، فيستحقون ثناء الله تعالى الذي تفضل به على سلفهم، حيث قال تعالى فيهم: {وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْمَةَ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (1)، ومن خير المقامات التي تستحق أن تؤثر بالبذل والعطاء، مقام ذوي الشهداء والأسرى.

ومن الآثار التي تشهد على استشعار المسلمين فضل الأسرى والشهداء والمجاهدين في سبيل الله، ما روي أن فرقد السلمي، فاتح شمال العراق وأذربيجان، كان كريماً مضيافاً؛ وعندما كان في (أذربيجان) أكل (الخبيص) فوجده طيباً حلواً، فأرسل منه سفتين هدية إلى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فلما ذاقه عمر، قال: (إن هذا لطيب! أكل المهاجرين أكل منه شبعة؟!)، فلما علم أنه هدية خاصة به، أعاده إلى عتبة، وفي صحيح مسلم، عن عتبة ابن فرقد، أن عمر، رضي الله عنه، كتب لهم وهم بأذربيجان: (يَا عُبْتَةُ بْنُ فَرَقْدٍ؛ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْكَ كَذْكُ، وَلَا مِنْ كَدِّ أَيْيَكُ، وَلَا مِنْ كَدِّ أُمَّكَ، فَأَشْبِعِ الْمُسْلِمِينَ فِي رِحَالِهِمْ مِمَّا تَشْبَعُ مِنْهُ فِي رَحْلِكَ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّنْعَمَ، وَزِيَّ أَهْلِ الشَّرْكِ، وَكُبُوسَ الْحَرِيرِ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ

عليه وسلم، نَهَى عَنْ لَبُوسِ الْحَرِيرِ، قَالَ: إِلَّا هَكَذَا، وَرَفَعَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِصْبَعِيهِ الْوُسْطَى وَالسَّبَابَةَ وَضَمَّهُمَا).⁽¹⁾

وعن بكر بن خنيس، (أَمَا بَعْدُ؛ فَإِنَّكُمْ تَعُدُّونَ أَنْفُسَكُمْ الْأَسَارَى، وَمَعَادَ اللَّهِ، بَلْ أَنْتُمْ الْحَبَسَاءُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَاعْلَمُوا أَنِّي لَسْتُ أَقْسِمُ شَيْئًا بَيْنَ رَعِيَّتِي إِلَّا خَصَصْتُ أَهْلِيكُمْ بِأَكْثَرِ ذَلِكَ وَأَطْيَبِهِ، وَإِنِّي قَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بِخَمْسَةِ دَنَانِيرَ، وَلَوْلَا أَنِّي خَشِيتُ أَنْ يَحْسِبَهَا عَنْكُمْ طَاغِيَةُ الرُّومِ لَزِدْتُكُمْ، وَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، يُفَادِي صَغِيرَكُمْ وَكَبِيرَكُمْ، وَذَكَرَكُمْ وَأُنْثَاكُمْ، وَحَرَّكُمْ وَمَمْلُوكَكُمْ بِمَا يُسْأَلُ بِهِ، فَأَبْشِرُوا، ثُمَّ أَبْشِرُوا، وَالسَّلَامُ).⁽²⁾

التحذير من خيانة الأسير أو الشهيد في أهلها

في مقابل بيان فضل من يخلف الأسير أو الغازي في أهلها بخير، فإن الذي يخلفه بشر إثم عظيم كذلك، فعن سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: (قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: حُرْمَةُ نِسَاءِ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ كَحُرْمَةِ أُمَّهَاتِهِمْ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ مِنَ الْقَاعِدِينَ يَخْلُفُ رَجُلًا مِنَ الْمُجَاهِدِينَ فِي أَهْلِهِ، فَيَخُونُهُ فِيهِمْ، إِلَّا وَقَفَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَأْخُذُ مِنْ عَمَلِهِ مَا شَاءَ، فَمَا ظَنُّكُمْ؟).⁽³⁾

فالرسول، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يتوعد صاحب النفس الدنيئة، والخلق الذميم، الذي ينتهز فرصة غياب الغازي أو الأسير عن عيالهما وأهلها، فيسعى لخيانته فيهما، فيغريهما بالفساد والانحراف، أو يجبرهما عليه، أو يسقطهما به، فله الويل العظيم، والوبال الجسيم، لأن الغازي والأسير يقضيان عمرهما وحياتهما ووقتهما ونشاطهما في خير العمل وأشرفه، وخائنتهما منشغل بالسفاسف والرذيلة والانحطاط، ومع من؟ مع نساء

1- صحيح مسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة على الرجال والنساء، وخاتم الذهب والحريز على الرجل،

وإباحته للنساء، وإباحة العلم ونحوه للرجل ما لم يزد على أربع أصابع.

2- شعب الإيمان، 37/4.

3- صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب حرمة نساء المجاهدين وإثم من خانهن فيهن.

جعل الله حرمتهم عليه كحرمة أمه، منهن نساء الغزاة والأسرى، فكيف سيجيب حين يكشف عن السوءات يوم القيامة، وتفضح الأسرار، ويقتص المظلوم من الظالم، والأمين من الخائن، والضعيف الطاهر من الذي مسه بالزيلة أو حاولها مع أهله. حينها يدعى من وقعت الخيانة ضده ليأخذ مقابلها من عمل الخائن وحسناته، حتى إذا ما فنيت حسناته، أخذ من سيئاته، فألقيت على كاهل الخائن، وبشأن اقتصاص المظلوم من الظالم، يقول رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لَتَوَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ⁽¹⁾ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ).⁽²⁾

وشبه الرسول، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حال من يعتدي على حقوق الناس بحال المفلس، حين تسدد فواتير مستحقاتهم من رصيد أعماله يوم القيامة، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: (أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَدَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ)⁽³⁾، فإذا كان هذا حال المفلس، الذي يعتدي على حقوق عموم الناس، فكيف بالذي يعتدي على حقوق خواص المؤمنين، الذين بذلوا الغالي والنفيس في سبيل الله، لا ريب أن من يمسهم وعيالهم وحقوقهم بسوء، سيكون عقابه عظيماً، والعياذ بالله العلي العظيم، من الشيطان الرجيم، وجنوده أجمعين.

جنبنا الله من الوقوع في إثم الاعتداء على حرمت الأسرى والشهداء، ووفقنا لنيل ثوابهم، والحشر معهم برفقة نبينا محمد، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَصَحْبِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

1- الجلحاء: التي لا قرن لها.

2- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم.

3- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم.

الفصل الخامس

مناهج وقيم

123	بين فضل التفقه في الدين	21.
129	يعلمنا الإيثار ويبين فضله (ح 1)	22.
135	يعلمنا الإيثار ويبين فضله (ح 2)	23.
141	يتمثل حسن الخلق ويدعو إلى التحلي به	24.
148	يحث على صيام الجوارح عن اقتراف الآثام والمنكرات (ح1)	25.
155	يحث على صيام الجوارح عن اقتراف الآثام والمنكرات (ح2)	26.
161	ينهى عن الظلم ويحذر من عواقبه الوخيمة وينتصر للمظلوم	27.
169	يحذر من آفة الخذلان	28.
176	يحنو على اليتيم	29.
183	يشيد بثبات المبتلى وصبره ويبلسم جراحه	30.
188	يؤكد على حرمة دماء الأبرياء	31.
195	يحذر من النميمة	32.
200	العبد الشكور	33.
206	يحذر المحامين والخصوم والقضاة من تجاوز الحق	34.
211	يحذر من سلب المال العام واختلاسه	35.

الرسول الأُسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يبين فضل التفقه في الدين

عن حميد بن عبد الرحمن، أَنَّهُ سَمِعَ مُعَاوِيَةَ يَقُولُ: (قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: من يُرِدْ الله به خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَاللَّهُ الْمُعْطِي، وَأَنَا الْقَاسِمُ، وَلَا تَزَالُ هَذِهِ الْأُمَّةُ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ).⁽¹⁾

الرسول، صلى الله عليه وسلم، يبرز في حديثه الشريف هذا أهمية العلم الشرعي، وطلبه وتعليمه، فمن أراد الله له الخير والرفعة يوقفه إلى التفقه في الدين، وتعلم علومه، وخير الله نعمة عظيمة، يتفضل الله بها على عباده وخلقه، ولا شيء يفوق هذه النعمة أو يعدلها، عند من يعرف قدرها وفضلها، فهي واسعة الأثر، دائمة الوجود، وفيها الخير الحقيقي، بخلاف بعض مظاهر المنافع التي يطمع لنيلتها بعض الناس، ويحرصون على تحصيلها كل الحرص، ثم يكتشفون أنها كانت شرًا عليهم، فيندمون على ما بذلوا في طلبها، أما خير الله فلا يندم على نيته موهوب، والله يعلم الخير والشر، فيقدر لمن يشاء، وأحياناً على خلاف تقدير الناس وتطلعاتهم والله تعالى يقول: {...وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} ⁽²⁾، وحتى لو لم تكن ملذات الدنيا شرًا في الحقيقة، فهي محدودة، وقصيرة المدى؛ لأنها ستنقطع بعد حين، بخلاف خيرات الله، التي ينعم الذي يحظى بها في الدنيا، ويتواصل أثرها معه للأخرة، فطلب العلم الشرعي بفروعه وتخصصاته كافة يعود بالخير على طالبه، مصداقاً لإخباره صلى الله عليه وسلم الوارد في قوله: (من يُرِدْ الله به خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ)، وقد ودنا التذكير في هذا المقام بهذا الفضل مع اقتراب ساعة الالتحاق بالمدارس

1- صحيح البخاري، كتاب الخمس، باب قول الله تعالى {فإن الله حمسه وللرسول}.

2- البقرة: 216.

والمعاهد والكليات الجامعية؛ حيث الآلاف من الطلبة يتوجهون إلى مقاعد الدراسة على اختلاف مستوياتها، وكثير منهم يتوجهون إلى تخصصات علمية مفيدة ونافعة، حثَّ الإسلام على طلبها، بل جعل تعلمها فرض كفاية على المسلمين، إذا قام به منهم من يكفي حاجتهم، سقط الفرض عن الآخرين، وإن حصل التقصير في طلبها عما يلزم المسلمون منها، أمّوا؛ لأنهم لم يقوموا بفرض أوجبه الله عليهم، والعلوم الشرعية منها ما يجب تعلمه على كل مسلم، مثل الأمور التي ينبغي أن تعلم من الدين بالضرورة، وتعلم أحكام الحلال والحرام، وكيفية أداء الصلاة، ومتطلبات الطهارة، والأمور الرئيسة في الصيام، والزكاة، والحج، أما التبحر في التفاصيل، والتخصص في التفسير، والحديث، والفقه، وغير ذلك من العلوم الشرعية، فلا يلزم به كل مسلم بعينه، وإنما يقوم بأداء الواجب المطلوب فئة تسد حاجة المسلمين فيه، وتقوم بواجب تعلمه والتبحر فيه عنهم، ومع ذلك يبقى الخير ميزة تفضل الله بها على الذين يوفقههم الله إلى التفقه في الدين وعلومه.

الربانيون

ورد في القرآن الكريم توجيه من الله تعالى للناس ليكونوا ربانيين، فقال تعالى: {مَا كَانَ لِيَشْرَ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ} (1)، والمراد بالربانيين هنا: العلماء العاملون، فهم يتلقون العلم من لدنه سبحانه وتعالى ويعلمونه للناس، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: (كُونُوا رَبَّانِيِّينَ حُلَمَاءَ فُقَهَاءَ حُكَمَاءَ عُلَمَاءَ وَيُقَالُ الرَّبَّانِيُّ الَّذِي يُرَبِّي النَّاسَ بِصِغَارِ الْعِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ). (2)

وبالإضافة إلى وصف الربانيين الذي وصف الله به العلماء الفقهاء، فإن الرسول، صلى الله عليه وسلم، بيّن في عدد من الأحاديث الشريفة فضل العلماء ومكانتهم،

1- آل عمران: 79.

2- صحيح البخاري، كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل.

وفضل العلم وطلبه، ففي الحديث الصحيح أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، نهى عن الحسد، إلا في اثنتين، تعلقت إحداهما بالتصرف في المال على الوجه الذي يرضي الله من خلال الإنفاق في سبيله سبحانه، وتعلقت الثانية في نيل العلم الرباني، وتبليغه للناس، فعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، رضي الله عنه، قال: (قال النبي، صلى الله عليه وسلم: لا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ؛ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكْتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيَعْلَمُهَا). (1)

وفي صحيح البخاري، باب فَضْلِ مَنْ عِلِمَ وَعَلَّمَ، وفيه عن أَبِي مُوسَى، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ الْعَيْثِ الْكَثِيرِ، أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ، قِيلَتْ الْمَاءُ، فَأُنْبِتَتْ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتْ الْمَاءَ، فَفَنَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا، وَسَقَوْا، وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قَيْعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَهُ فِي دِينِ اللَّهِ وَتَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: قَالَ إِسْحَاقُ: وَكَانَ مِنْهَا طَائِفَةٌ قِيلَتْ الْمَاءُ، قَاعٌ يَعْلُوهُ الْمَاءُ، وَالصَّفْصَفُ الْمُسْتَوِي مِنَ الْأَرْضِ). (2)

ولما أراد الرسول، صلى الله عليه وسلم، أن يخص عبد الله بن عباس بدعاء مميز، دعا له بأن يعلمه الله الكتاب، فعن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: (ضَمَّنِي رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ عَلِّمَهُ الْكِتَابَ) (3). وفي رواية صحيحة أخرى، دعا له النبي، صلى الله عليه وسلم، أن يفقهه الله في الدين، فعن ابن عباس، رضي الله عنهما: (أَنَّ النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، دَخَلَ الْخَلَاءَ، فَوَضَعَتْ لَهُ وَضُوءًا، قَالَ: مَنْ وَضَعَ هَذَا؟ فَأُخْبِرَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ فَتِّهِ فِي الدِّينِ). (4)

1- صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب إنفاق المال في حقه.

2- صحيح البخاري، كتاب العلم، باب فضل من علم وعلم.

3- صحيح البخاري، كتاب العلم، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: اللهم علمه الكتاب.

4- صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب وضع الماء عند الخلاء.

الحث على تبليغ العلم وتعليمه

حرص الرسول، صلى الله عليه وسلم، على حث الذين يتعلمون العلم، ليعلموه الآخرين، ففي حجة الوداع خطب الرسول، صلى الله عليه وسلم، خطبته الشاملة، التي تضمنت كثيراً من الوصايا والتوجيهات النبوية، وختمها بحث السامعين على تبليغ ما سمعوا للغائبين، وساق مبرراً لهذا الحث، دلَّ عليه قوله: **(رُبَّ مُبَلِّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ)**⁽¹⁾، فعن أبي بكرٍ: **(...لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ الْعَائِبَ؛ فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يُبَلِّغَ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنْهُ)**.⁽²⁾

من هنا؛ كان كبار الصحابة وخيارهم، رضي الله عنهم، يحرصون كل الحرص على طلب العلم الشرعي من منبعه، من لدن الرسول، صلى الله عليه وسلم، فكان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يتناوب مع أحد الصحابة حضور مجالس الرسول، صلى الله عليه وسلم، حتى لا يفوته بعض العلم خلال غيابه عن مجلسه، ففي صحيح البخاري، باب التَّنَاوُبِ فِي الْعِلْمِ، وفيه عن عُمَرَ قَالَ: **(كُنْتُ أَنَا وَجَارٌ لِي مِنَ الْأَنْصَارِ فِي بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ زَيْدٍ، وَهِيَ مِنْ عَوَالِي الْمَدِينَةِ، وَكُنَّا نَتَنَاوَبُ النُّزُولَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَنْزِلُ يَوْمًا، وَأَنْزَلُ يَوْمًا، فَإِذَا نَزَلْتُ جِئْتُهُ بِخَبَرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنَ الْوَحْيِ وَغَيْرِهِ، وَإِذَا نَزَلَ فَعَلَّ مِثْلَ ذَلِكَ، فَنَزَلَ صَاحِبِي الْأَنْصَارِيُّ يَوْمَ نَوْبَتِهِ، فَضَرَبَ بَابِي ضَرْبًا شَدِيدًا، فَقَالَ: أَنْتُمْ هُوَ؟ فَفَزِعْتُ فَخَرَجْتُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: قَدْ حَدَّثَ أَمْرٌ عَظِيمٌ، قَالَ: فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ، فَإِذَا هِيَ تَبْكِي، فَقُلْتُ: طَلَّقُكُنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتْ: لَا أَدْرِي ثُمَّ دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ وَأَنَا قَائِمٌ: أَطَلَّقْتَ نِسَاءَكَ؟ قَالَ: لَا؛ فَقُلْتُ: اللَّهُ أَكْبَرُ)**.⁽³⁾

1- صحيح البخاري، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى.

2- صحيح البخاري، كتاب العلم، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: رب مبلغ أوعى من سامع.

3- صحيح البخاري، كتاب العلم، باب التناوب في العلم.

وكانت عائشة، رضي الله عنها، تستوضح وتسال عما يلتبس عليها فهمه؛ حتى تكون على بصيرة فيما تنقل من العلم عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ففي صحيح البخاري، باب من سمع شيئاً فرآجعه حتى يعرفه، وفيه عن عائشة، زَوْجَ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (كَانَتْ لَا تَسْمَعُ شَيْئاً لَا تَعْرِفُهُ إِلَّا رَاجَعَتْ فِيهِ حَتَّى تَعْرِفَهُ، وَأَنَّ النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: مَنْ حُوسِبَ عُدْبَ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: أَوْ لَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: {فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا}، قَالَتْ: فَقَالَ: إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرَضُ، وَلَكِنْ مِنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَهْلِكُ).⁽¹⁾

فما كان يجوز للمسلمين عن التفقه في الدين مانع، سواء أكانوا نساء أم رجالاً، بل كانوا يحرصون أشد الحرص على تعلم ما يخص حياتهم للدنيا والآخرة. ففي صحيح البخاري، باب الحياء في العلم، وقال مجاهد: لَا يَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ مُسْتَحْيٍ، وَلَا مُسْتَكْبِرٍ، وَقَالَتْ عَائِشَةُ: نِعْمَ النِّسَاءُ نِسَاءُ الْأَنْصَارِ؛ لَمْ يَمْنَعُنَّ الْحَيَاءُ أَنْ يَتَفَقَّهْنَ فِي الدِّينِ، وَفِي هَذَا الْبَابِ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: (جَاءَتْ أُمُّ سَلِيمٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ، فَهَلْ عَلَى الْمَرْأَةِ مِنْ غُسْلِ إِذَا احْتَلَمَتْ؟ قَالَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِذَا رَأَتْ الْمَاءَ، فَغَطَّتْ أُمُّ سَلَمَةَ، تَعْنِي وَجْهَهَا، وَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ وَتَحْتَلِمُ الْمَرْأَةُ، قَالَ: نَعَمْ؛ تَرَبَّتْ يَمِينُكَ، فِيمَ يُشْبِهُهَا وَوَلَدُهَا).⁽²⁾

وكان الصحابة، رضي الله عنهم، يبذلون ما استطاعوا من الجهود في سبيل طلب العلم والتمكن منه، حتى إنَّ الصحابي الجليل أبا هريرة، الذي يُعدُّ أكثر الصحابة رواية للحديث عن الرسول، صلى الله عليه وسلم، يذكر تميز الصحابي عبد الله بن عمرو عنه، لاستخدامه الكتابة في تثبيت أحاديث النبي، صلى الله عليه وسلم، فعن أبي هريرة قال: (مَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَحَدٌ أَكْثَرَ حَدِيثًا عَنْهُ مِنِّي، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، فَإِنَّهُ كَانَ يَكْتُبُ وَلَا أُكْتُبُ).⁽³⁾

1- صحيح البخاري، كتاب العلم، باب من سمع شيئاً فرآجعه حتى يعرفه.

2- صحيح البخاري، كتاب العلم، باب الحياء في العلم.

3- صحيح البخاري، كتاب العلم، باب كتابة العلم.

مما يعني أن الصحابة، رضي الله عنهم، كانوا يستخدمون طاقاتهم كلها خلال طلبهم للعلم من مدرسة النبي، صلى الله عليه وسلم، فحفظوا حديثه وسنته، وكتبوها، وبلغوها وبينوها، فكانوا التلاميذ النجباء، والعلماء الأفاضل، بشهادة التاريخ والواقع، فحديث الرسول، صلى الله عليه وسلم، ورسالاته ودينه وصل الدنيا، ويتحدث به العرب والعجم، بل يدين بها الملايين منهم، بفضل الله وحفظه ورعايته، حيث يسر الله لدينه من ينقله بأمانة ووعي عن رسوله، صلى الله عليه وسلم، إلى الدنيا برمتها، عبر الزمان كله بعد بعثته صلى الله عليه وسلم.

وفي ضوء بيان النبي، صلى الله عليه وسلم، لفضل التفقه في الدين وما جاء في القرآن الكريم بهذا الخصوص من مثل قوله تعالى: **{قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ}**⁽¹⁾، وقال تعالى: **{يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}**⁽²⁾، فإن المسلمين اليوم مطالبون بأن يعطوا العلم الشرعي الاهتمام اللازم، وأن يحثوا أبناءهم على تعلمه ومدارسته؛ لما فيه خيرهم في الدنيا والآخرة، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1- الزمر: 9.

2- المجادلة: 11.

الرسول الأُسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يعلّمنا الإيثار ويبين فضله

الحلقة الأولى

عن سهلٍ، رضي الله عنه، (أَنَّ أُمَّرَأَةً جَاءَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُبْرِدَةَ مَنَسُوجَةٍ فِيهَا حَاشِيَتُهَا، أَتَدْرُونَ مَا الْبُرْدَةُ؟⁽¹⁾ قَالُوا: الشَّمْلَةُ، قَالَ: نَعَمْ. قَالَتْ: نَسَجْتُهَا بِيَدِي، فَجِئْتُ لَأَكْسُوكَهَا، فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مُحْتَجِجًا إِلَيْهَا، فَخَرَجَ إِلَيْنَا، وَإِنهَا إِزَارُهُ، فَحَسَنَهَا فُلَانٌ، فَقَالَ: أَكْسُنِيهَا مَا أَحْسَنَهَا، قَالَ الْقَوْمُ: مَا أَحْسَنَتْ، لَيْسَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مُحْتَجِجًا إِلَيْهَا، ثُمَّ سَأَلْتُهُ، وَعَلِمْتَ أَنَّهُ لَا يَرُدُّ، قَالَ: إِنِّي وَاللَّهِ مَا سَأَلْتُهُ لَأَلْبَسَهَا، إِنَّمَا سَأَلْتُهُ لِتَكُونَ كَفَنِي، قَالَ سَهْلٌ: فَكَانَتْ كَفَنَهُ).⁽²⁾

فالرسول الأُسوة، صلى الله عليه وسلم، في هذا الموقف الثابت عنه في صحيح الرواية، يضرب للمسلمين، خاصتهم وعامتهم، المثل الأعلى في إيثار السائل بما سأل، مما توافر لدى المسؤول من حاجات شخصية، وممتلكات خاصة، رغم حاجته إليها، ورغبته فيها. فكيف بالذين يتنعمون بحيرات البلاد والعباد دون حق، وإنما جشعاً واستثثاراً، ويحرمون ذوي الحاجة والمساكين، وأصحاب الحقوق من أبسطها؟! أولئك الذين بطروا العيش، وظلموا الخلق، واستبدوا بالاستثثار والأنانية، حتى أُنحمت جنباتهم بالسيئات والأوزار، وتمنى الضعفاء أن يروا فيهم يوماً أسوداً، فكان في بعضهم ما كان.

مفهوم الإيثار ومعناه في اللغة والاصطلاح

الإيثار في اللغة: من أثر وآثر: أي فضّل وقدم، وقال الأصمعي: آثرتك إيثاراً أي:

فضلتك.⁽³⁾

1- قائل ذلك هو سهل بن سعد، راوي الحديث.

2- صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب من استعد الكفن في زمن النبي، صلى الله عليه وسلم، فلم ينكر عليه.

3- لسان العرب، 53/1.

والإيثار بالمفهوم العام هو أن تقدم ما تحبه لغيرك مع حاجتك إليه. وأما الاستئثار: فهو الانفراد بالشيء، والأثرة والاستئثار ضد الإيثار، ففي لسان العرب: استأثر بالشيء على غيره: خص به نفسه، واستبد به.⁽¹⁾ فصد الإيثار الأثرة والاستئثار والأنانية، ويخدم ذلك كله الشح، والبخل، والطمع، والهلع، والجشع.

وفي أحكام القرآن لابن العربي، أن الإيثار هو تقديم الغير على النفس في حظوظها الدنيوية، رغبةً في الحظوظ الدنيوية؛ وذلك ينشأ عن قوة النفس، ووكيد المحبة، والصبر على المشقة، وذلك يختلف باختلاف أحوال المؤثرين، كما روي في الآثار أن النبي صلى الله عليه وسلم، قيل من أبي بكر ماله، ومن عمر نصف ماله، وردَّ أبا لبابة وكعباً إلى الثلث؛ لقصورهما عن درجتي أبي بكر وعمر؛ إذ لا خير له في أن يتصلَّق، ثم يندم، فيحبط أجره ندمه.⁽²⁾

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، يؤثر غيره على نفسه

كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، أسوة للمسلمين في امتثال مكارم الأخلاق، وأنبل السمات، ومن أخلاقه الكريمة أنه كان يقدم حاجة غيره على حاجة نفسه، وشواهد ذلك كثيرة، منها ما جاء عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أنه كان يقول: (الله الذي لا إله إلا هو، إن كنت لأَعْتَمِدُ بِكَيْدِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْجُوعِ، وَإِنْ كُنْتُ لِأَشُدُّ الْحَجَرَ عَلَى بَطْنِي مِنَ الْجُوعِ، وَلَقَدْ قَعَدْتُ يَوْمًا عَلَى طَرِيقِهِمْ الَّذِي يَخْرُجُونَ مِنْهُ، فَمَرَّ أَبُو بَكْرٍ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، مَا سَأَلْتُهُ إِلَّا لِيُشَبِّعَنِي، فَمَرَّ وَلَمْ يَفْعَلْ، ثُمَّ مَرَّ بِي عُمَرُ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، مَا سَأَلْتُهُ إِلَّا لِيُشَبِّعَنِي، فَمَرَّ وَلَمْ يَفْعَلْ، ثُمَّ مَرَّ بِي أَبُو الْقَاسِمِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَتَبَسَّمَ حِينَ رَأَيْتِي، وَعَرَفَ مَا فِي نَفْسِي، وَمَا فِي وَجْهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؛ قُلْتُ: لَيْتَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: الْحَقُّ، وَمَضَى فَتَبِعْتُهُ، فَدَخَلَ، فَاسْتَأْذَنَ، فَأَذِنَ لِي، فَدَخَلَ فَوَجَدَ لَبَنًا فِي قَدَحٍ، فَقَالَ: مَنْ

1- لسان العرب، 53/1.

2- أحكام القرآن، ابن العربي، 220/4.

أَيْنَ هَذَا اللَّبَنِ؟ قَالُوا: أَهْدَاهُ لَكَ فُلَانٌ أَوْ فُلَانَةٌ، قَالَ: أَبَا هِرٍّ؛ قُلْتَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: الْحَقُّ إِلَى أَهْلِ الصُّفَّةِ، فَادْعُهُمْ لِي، قَالَ: وَأَهْلُ الصُّفَّةِ أَضْيَافُ الْإِسْلَامِ لَا يَأْوُونَ عَلَى أَهْلِ، وَلَا مَالٍ، وَلَا عَلَى أَحَدٍ، إِذَا أَتَتْهُ صَدَقَةٌ بَعَثَ بِهَا إِلَيْهِمْ، وَلَمْ يَتَنَاوَلْ مِنْهَا شَيْئًا، وَإِذَا أَتَتْهُ هَدِيَّةٌ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ، وَأَصَابَ مِنْهَا، وَأَشْرَكَهُمْ فِيهَا، فَسَاءَ نَبِيٌّ ذَلِكَ، فَقُلْتَ: وَمَا هَذَا اللَّبَنِ فِي أَهْلِ الصُّفَّةِ؟! كُنْتُ أَحَقُّ أَنَا أَنْ أُصِيبَ مِنْ هَذَا اللَّبَنِ شَرْبَةً أَتَقَوَّى بِهَا، إِذَا جَاءَ أَمْرِي، فَكُنْتُ أَنَا أُعْطِيهِمْ، وَمَا عَسَى أَنْ يَبْلُغَنِي مِنْ هَذَا اللَّبَنِ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَدًّا، فَأَتَيْتُهُمْ، فَدَعَوْتُهُمْ، فَأَقْبَلُوا، فَاسْتَأْذَنُوا، فَأَذِنَ لَهُمْ، وَأَخَذُوا مَجَالِسَهُمْ مِنَ الْبَيْتِ، قَالَ: يَا أَبَا هِرٍّ؛ قُلْتَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: خُذْ فَأَعْطِهِمْ، قَالَ: فَأَخَذْتُ الْقَدَحَ، فَجَعَلْتُ أُعْطِيهِ الرَّجُلَ، فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرَوِي، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ الْقَدَحَ، فَأُعْطِيهِ الرَّجُلَ، فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرَوِي، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ الْقَدَحَ، فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرَوِي، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ الْقَدَحَ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ رَوَى الْقَوْمُ كُلَّهُمْ، فَأَخَذَ الْقَدَحَ، فَوَضَعَهُ عَلَى يَدِهِ، فَنَظَرَ إِلَيَّ، فَتَبَسَّمَ، فَقَالَ: أَبَا هِرٍّ؛ قُلْتَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: بَقِيْتُ أَنَا وَأَنْتَ، قُلْتَ: صَدَقْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: اقْعُدْ فَاشْرَبْ، فَقَعَدْتُ فَشَرِبْتُ، فَقَالَ: اشْرَبْ فَشَرِبْتُ، فَمَا زَالَ يَقُولُ: اشْرَبْ حَتَّى قُلْتَ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا أَجِدُ لَهُ مَسْلَكًا، قَالَ: فَأَرِنِي، فَأَعْطَيْتُهُ الْقَدَحَ، فَحَمِدَ اللَّهُ، وَسَمَّى، وَشَرِبَ الْفَضْلَةَ⁽¹⁾.

فما أروعه من شاهد على حسن إيثاره، صلى الله عليه وسلم! حيث أمسك عن احتساء اللبن الذي وجده مهدياً إليه، ولم يأذن لصاحبه أبي هريرة، رضي الله عنه، الذي كان يتضور جوعاً وعطشاً باحتساء شيء منه، حتى دعا أضياف الإسلام من أهل الصفة - مما يشير إلى تذكره حاجة أولئك إلى مثل هذا الشراب - في لحظة كان يمكن لأي بشر آخر أن ينسى غيره فيها؛ لأنها تتعلق بأمر بسيط، وحاجة الحاضرين ماسة إليها، وبالتقدير العادي؛ فإنها لا تكاد تكفيهم.

1- صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي، صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وتخليهم من الدنيا.

ورغم ذلك؛ فإن الرسول، صلى الله عليه وسلم، كلف صاحبه أبا هريرة، الذي كان في ظاهر الأمر في أمس الحاجة ليشرب من ذلك اللبن في تلك الأثناء، بإحضار مجموعة أهل الصفة ليمارس عملياً إيثارهم بالشرب من هدية اللبن التي وصلته، وبعد أن انتهوا من أخذ حاجتهم منه، قال لصاحبه: **(بَقِيْتُ أَنَا وَأَنْتَ)**، ثم استرسل في ممارسة سلوك الإيثار، فأمر صاحبه أبا هريرة، رضي الله عنه، بالشرب قبله، ولما توقف؛ طلب منه ثانية أن يشرب، وما زال يقول له: اشْرَبْ، حتى قال: **(لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أَجِدُ لَهُ مَسَلَكًا)**، حينها طلب القدرح، فسمي الله، وشرب الفضلة، شرب ماذا؟! شرب الفضلة، صلى الله عليه وسلم، وهو أكرم الخلق أجمعين.

فيا الله ما أجمل هذا الموقف، الذي يتجلى فيه الإيثار النبوي، وما أروع! وما أصدقه في التعبير عن خلق الإيثار الذي تحلى به خير الأنام محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم! فكان به قدوة حسنة لأتباعه، والخلق كلهم من بعده؛ لأنهم إن امتثلوا هذا الخلق الطيب؛ فستشيع الحبة بينهم، وسترفع عنهم الضغينة، حيث يجد المحروم حاجته، ويحصل الضعيف على حقه، دون أن يستأثر الأقوياء بالحقوق، أو يسلبوها من أصحابها، ولم يتنعموا بها أمام مرأى أعينهم، ولو فعلوا ذلك؛ لازداد الفقراء والضعفاء غيظاً عليهم، وحقداً على واقعهم المشؤوم.

يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة

نعم؛ إن ذروة سنام الإيثار، تبرز حين يكون من المرء وهو في أمس الحاجة لما يؤثر غيره به، تلك الصورة التي عبّر عنها القرآن الكريم، بقوله تعالى: **{ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ }** جاء ذلك في سياق الثناء الرباني على الأنصار، رضي الله عنهم، الذين آووا المهاجرين، وتقاسموا معهم لقمة العيش، ومستلزمات الحياة، فقال الله تعالى فيهم: **{ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَن هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }**.⁽¹⁾

وفي سبب نزول هذه الآية الكريمة، جاءت روايات في صحاح السنة عن أبي هريرة، رضي الله عنه: **(أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ بَاتَ بِهِ ضَيْفٌ، فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ إِلَّا قُوْتُهُ، وَقُوْتُ صَبِيَانِهِ، فَقَالَ**

لَامْرَأَتِهِ: نَوْمِي الصَّبِيَّةَ، وَأَطْفِي السَّرَاجَ، وَقَرِّي لِلضَّيْفِ مَا عِنْدَكَ، قَالَ: فَنَزَلَتْ هَذِهِ آيَةٌ { وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ } (1).

وفي رواية صحيحة أخرى؛ عنه رضي الله عنه، قال: (جاء رجلٌ إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: إني مجهُودٌ، فأرسلَ إلى بعضِ نِسَائِهِ، فقالت: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أُخْرَى، فقالت: مِثْلَ ذَلِكَ، حَتَّى قُلْنَ كُلُّهُنَّ مِثْلَ ذَلِكَ، لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ، فقال: مَنْ يُضَيِّفُ هَذَا اللَّيْلَةَ؛ رَحِمَهُ اللهُ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فقال: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ؛ فَأَنْطَلَقَ بِهِ إِلَى رَحْلِهِ، فقال لَامْرَأَتِهِ: هل عِنْدَكَ شَيْءٌ؟ قالت: لا؛ إِلَّا قُوتٌ صَبِيَانِي، قال: فَعَلَّلِيهِمْ بِشَيْءٍ، فإذا دخل ضَيْفُنَا، فَأَطْفِئِ السَّرَاجَ، وَأَرِيهِ أَنَا نَأْكُلُ، فإذا أَهْوَى لِيَأْكُلَ، فَقُومِي إِلَى السَّرَاجِ، حَتَّى تُطْفِئِيهِ، قال: فَفَعَدُوا، وَأَكَلَ الضَّيْفُ، فلما أَصْبَحَ؛ غَدَاً عَلَى النَّبِيِّ، صلى الله عليه وسلم، فقال: قد عَجِبَ اللهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ. (2).

فهذه الحادثة التي تسببت في نزول آية قرآنية على الرسول، صلى الله عليه وسلم، متضمنة الثناء على سلوك المؤثرين غيرهم على أنفسهم، رغم ما بهم من خصاصة وحاجة لما تم الإيثار به، بل إن حيلة المرأة وزوجها وهما يقومان ببطولة الإيثار في هذه الحادثة، أفضت إلى أن يعجب الله منهما، وفي رواية: (فَقَالَ ضَجِكَ اللهُ اللَّيْلَةَ، أَوْ عَجِبَ مِنْ فَعَالِكُمَا) (3)، فمبالغة من هذين الزوجين في رفع الحرج عن ضيف بيتهما، طلب الزوج من امرأته أن تطفئ السراج؛ حتى يأكل الضيف دون أن يرى قلة الطعام؛ لأنه لا يكفيه وإياهم، إضافة إلى أنهما سعيا قبل ذلك إلى إنامة صبيانهما؛ لأن ما سيقدمانه للضيف هو طعامهم، وليس عندهم غيره.

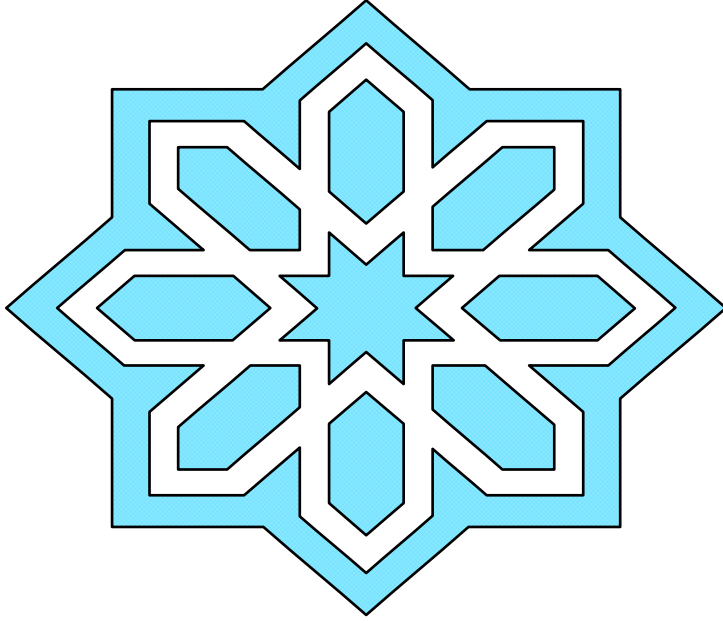
فيا ليتنا نتدبر معاني هذه القيم التي تنفخ هذه الحوادث بالتعبير الزكي عنها، وتسطر بها جملة من قطوف الخير للأفراد ومجتمعاتهم.

1- صحيح مسلم، كتاب الأشربة، باب إكرام الضيف وفضل إيثاره.

2- صحيح مسلم، كتاب الأشربة، باب إكرام الضيف وفضل إيثاره.

3- صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب قول الله تعالى: { وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ }.

وإلى لقاء في الحلقة القادمة مع مزيد من الحديث عن منهج الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، في تعليم الإيثاء، وبيان فضله، وصلى اللهم على نبينا محمد بن عبد الله، وعلى آله وأصحابه وأزواجه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.



الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يعلّمنا الإيثار ويبين فضله

الحلقة الثانية

عن أنس، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ). (1)

لاحقاً لما تضمنته الحلقة السابقة من بيان لمدى اهتمام الرسول، صلى الله عليه وسلم، بخلق الإيثار، حيث برز هذا الخلق الكريم واضحاً في سلوكه صلى الله عليه وسلم، وبين فضله، وحث عليه، وتحلى به صحابته الغر الميامين في سلوكهم مع الآخرين، وفي الحديث الذي بين أيدينا، يوثق صلى الله عليه وسلم جذور خلق الإيثار وعراه، من خلال ربط حب الخير للآخرين بالإيمان من ناحية، وتحديد المستوى المطلوب في هذا الحب، من ناحية أخرى، فينفي الرسول، صلى الله عليه وسلم، كمال الإيمان عمن يفوته حب الخير لأخيه كما يجب لنفسه، مستهدفاً تربية المسلمين على حب الإيثار، واستشعار أهميته، وإدراك الواجب نحوه.

الإيثار بالنفس أفضل الجود

آثر الرسول، صلى الله عليه وسلم، دعوته ودينه على ملذات العيش، استجابة للأوامر الربانية الأولى التي نزلت عليه، طالبة منه أن يهجر فراشه، ويقم ليله، كما جاء في سورة المزمل، إذ يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمَزْمُلُ * قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلاً}. (2)

ولم يقف إيثار الرسول، صلى الله عليه وسلم، بنفسه على هذا النحو، بل كان يتقدم الصحابة في ساحات الوغى، فجرح في أحد، وأشيع أنه قتل، وثبت في حنين، ولما ارتاع

1- صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

2- المزمل: 5-1.

المسلمون من صوت سمعوه في المدينة، وجدوا الرسول، صلى الله عليه وسلم، قد سبقهم لاستطلاع الأمر، وعاد إليهم بخبره، فعن أنسٍ رضي الله عنه، قال: (كان النبي صلى الله عليه وسلم، أحسنَ الناس، وأشجعَ الناس، ولقد فرغ أهلُ المدينة ليلَةً، فخرجوا نحو الصوت، فاستقبلهم النبي، صلى الله عليه وسلم، وقد استبرأ الخبر وهو على فرسٍ لأبي طلحة، عُرِي، وفي عنقه السيفُ، وهو يقول: لم تُراعوا، لم تُراعوا، ثم قال: وجدناه بحرًا، أو قال: إنه لبحرٌ).⁽¹⁾

وفي أحكام القرآن لابن العربي: "أن الإيثار بالنفس فوق الإيثار بالمال، وإن عاد إلى النفس، ومن الأمثال السائرة أن الجود بالنفس أقصى غاية الجود، ومن عبارات الصوفية في حد المحبة إنها الإيثار، ألا ترى أن امرأة العزيز لما تناهت في حبها ليوסף، عليه السلام، أثرته على نفسها بالتبرئة، فقالت: {أَنَا رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ}⁽²⁾".⁽³⁾

ومن صور الإيثار بالنفس؛ ما جاء عن الصحابي الجليل أبي طلحة، الذي فدى حياة الرسول، صلى الله عليه وسلم، بحياته، فعن أنسٍ رضي الله عنه، قال: (لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ؛ انْهَزَمَ النَّاسُ عَنِ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَبُو طَلْحَةَ بَيْنَ يَدَيْ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مُجَوَّبٌ⁽⁴⁾ بِهِ عَلَيْهِ بِحَجَفَةٍ⁽⁵⁾ لَهُ، وَكَانَ أَبُو طَلْحَةَ رَجُلًا رَأْمِيًّا، شَدِيدَ الْقِدِّ⁽⁶⁾، يَكْسِرُ يَوْمَيْدٍ قَوْسَيْنِ، أَوْ ثَلَاثًا، وَكَانَ الرَّجُلُ يَمُرُّ مَعَهُ الْجَعْبَةَ مِنَ النَّبْلِ⁽⁷⁾، فيقول: انثرها لأبي طلحة، فأشرف النبي، صلى الله عليه وسلم، ينظر إلى القوم، فيقول أبو طلحة: يا نبي الله؛ بأبي أنت وأمي، لا تُشرف يصبك سهمٌ من سهام القوم، نحري دون نحرك⁽⁸⁾، ولقد

1- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الحمائل وتعليق السيف بالعنق.

2- يوسف: 51.

3- أحكام القرآن، ابن العربي، 219/4.

4- المقصود بـ مُجَوَّبٌ به: مئزر عليه بنفسه، يقيه من ضربات المشركين ونباهم.

5- الحجفة: ترس من الجلد ليس فيها خشب.

6- شديد القد: هو السير من جلد مدبوغ، والمعنى أن وتر قوسه شديد في النزاع والمد.

7- الجعبة: الكنانة المملوءة بالنبل.

8- نحري دون نحرك: أقف بين يديك، بحيث إذا جاء سهم يصيب نحري، ولا يصيب نحرك، والنحر: الصدر وأسفل العنق.

رَأَيْتَ عَائِشَةَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ، وَأُمَّ سَلِيمٍ، وَإِنَّهُمَا لَمُشَمَّرَتَانِ، أَرَى خَدَمَ سَوْفِهِمَا تُنْقِزَانِ الْقُرْبَ (1) عَلَى مَتُونِهِمَا، تُفْرِغَانِيهِ فِي أَفْوَاهِ الْقَوْمِ، ثُمَّ تَرْجِعَانِ فَتَمْلَأْنِيهَا، ثُمَّ تَحِيَّانِ فَتُفْرِغَانِيهِ فِي أَفْوَاهِ الْقَوْمِ، وَلَقَدْ وَقَعَ السَّيْفُ مِنْ يَدَيَّ أَبِي طَلْحَةَ إِمَّا مَرَّتَيْنِ، وَإِمَّا ثَلَاثًا. (2)

الإيثار بأحب المال

المال شقيق الروح، ويأتي في الدرجة الثانية بعد النفس والروح في الفداء والإيثار، فإذا كان الذي يؤثر حياة غيره على حياة نفسه، يحتل المقام الأول في الإيثار، فإن الذي يليه في الدرجة، ذاك الذي يقدم أحب ماله إلى الآخرين؛ إيثاراً لهم على نفسه، مبتغياً من وراء ذلك مقاماً رفيعاً، وفضلاً عظيماً عند ربه، والصحابه، رضي الله عنهم، الذين تتلمذوا في مدرسة النبوة الأخلاقية، ضربوا أعظم الأمثلة، وأبهى الشواهد لإيثار سبيل الله بخير ما وجدوا من ممتلكات وأموال، بل قدم بعضهم أحب ماله في هذا السبيل، كما فعل أبو طلحة الأنصاري، رضي الله عنه، فعن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: (كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا من نخل، وكان أحب أمواله إليه بئرحاء⁽³⁾، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يدخلها، ويشرب من ماء فيها طيب، قال أنس: فلما أنزلت هذه الآية {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} قام أبو طلحة إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله؛ إن الله تبارك وتعالى يقول: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ}، وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرِحَاءَ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ، أَرْجُو بِرَّهَا وَدُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ، فَضَعَهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بَخٍ؛ ذَلِكَ مَالٌ رَائِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَائِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ، فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفْعَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَفَسَمَّهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقْرَابِهِ، وَبَنِي عَمِّهِ. (4)

1- تُنْقِزَانِ: تسرعان المشي كاهرولة، كناية عن سرعة السير.

2- صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب أبي طلحة، رضي الله عنه.

3- المقصود بالبئرحاء، اسم بستان.

4- صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الزكاة على الأقارب.

وكان الصحابة، رضي الله عنهم، يتنافسون في إثارة غيرهم بأموالهم، فعن زيد بن أسلم، عن أبيه، قال: (سمعت عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يقول: أمرنا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يوماً أن نتصدق، فوافق ذلك مالا عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً، فحئت بنصف مالي، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: ما أبقيت لأهلك؟ قلت: مثله، قال: وأتى أبو بكر، رضي الله عنه، بكل ما عنده، فقال له رسول الله، صلى الله عليه وسلم: ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسأيتك إلى شيء أبداً).⁽¹⁾

إثارة المهاجرين والأنصار

لا ريب أن السابقين الأولين من المسلمين، كانوا أنموذجاً متقدماً في البذل والإيثارة، حيث قدموا انتماءهم لدينهم، وحملهم لدعوة الإسلام، ونصرة رسولهم، صلى الله عليه وسلم، على مصالحهم الأخرى، مستجيبين بذلك لفحوى قوله تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}.⁽²⁾

ولما هاجر الأولون من ديارهم؛ تركوا المال، والأهل، والعلاقات الاجتماعية مع ذوي القربى، وذهبوا إلى بلد يأوي دينهم، ويحمي بيضتهم، وجدوا من أهله النصر والإيثارة، الذي كان من شواهد، ما أخبر عنه عبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنه، قال: (لَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ، أَخَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، فَقَالَ سَعْدُ ابْنُ الرَّبِيعِ: إِنِّي أَكْثَرُ الْأَنْصَارِ مَالاً، فَأَقْسِمُ لَكَ نِصْفَ مَالِي، وَأَنْظُرُ أَيَّ زَوْجَتِي هَوَيْتَ، نَزَلْتُ لَكَ عَنْهَا، فَإِذَا حَلَّتْ تَزَوَّجْتَهَا، قَالَ: فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: لَا حَاجَةَ لِي فِي ذَلِكَ، هَلْ مِنْ سَوْقٍ فِيهِ تِجَارَةٌ؟ قَالَ: سَوْقٌ قَيْنَقَاعٍ، قَالَ: فَغَدَا إِلَيْهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، فَأَتَى بِأَقِطٍ وَسَمْنٍ، قَالَ: ثُمَّ

1- سنن أبي داود، كتاب الزكاة، باب في الرخصة في ذلك، وحسنه الألباني.

2- التوبة: 24.

تَابَعَ الْغُدُوَّ، فَمَا لَيْتَ أَنْ جَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَلَيْهِ أَثَرُ صُفْرَةٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تَزَوَّجْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: وَمَنْ؟ قَالَ: امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، قَالَ: كَمْ سُقْتَ؟ قَالَ: زَنَةَ نَوَاةٍ مِنْ دَهَبٍ، أَوْ نَوَاةٍ مِنْ دَهَبٍ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَوْلِمَ وَلَوْ بِشَاةٍ. (1)

إيثار الوالدين أبناءهما على نفسيهما

إن من الإيثار الفطري الذي يظهر من فاعليه بعفوية دون تكلف، ما يكون من الآباء والأمهات نحو أبنائهم، فيؤثرون سلامتهم وراحتهم وأمنهم على متطلبات أجسادهم ونفوسهم، ويكدون ويتعبون في سبيل توفير قوت أبنائهم، ومتطلبات سعادتهم وبقائهم، ومن شواهد هذا الإيثار ما جاء في الرواية الصحيحة عن عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: (جَاءَتْني مِسْكِينَةٌ، تَحْمِلُ ابْنَتَيْنِ لَهَا، فَأَطْعَمْتُهَا ثَلَاثَ تَمَرَاتٍ، فَأَعْطَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا تَمْرَةً، وَرَفَعَتْ إِلَيَّ فِيهَا تَمْرَةً لِتَأْكُلَهَا، فَاسْتَطَعْتُهَا ابْتِئَاهَا، فَشَقَّتِ التَّمْرَةَ الَّتِي كَانَتْ تُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَهَا بَيْنَهُمَا، فَأَعْجَبَنِي شَأْنُهَا، فَذَكَرْتُ الَّذِي صَنَعَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْجَبَ لَهَا بِهَا الْجَنَّةَ، أَوْ أَعْتَقَهَا بِهَا مِنَ النَّارِ). (2)

صور من الإيثار في أحداث تاريخية

وردت الأحداث الشاهدة على الإيثار في كثير من أفعال السلف وأخبارهم، ومن ذلك ما جاء في قيس بن سعد بن عبادة، الذي اشتهر بالإيثار، فقيل أنه مَرَضَ فاستبطن إخوانه، فقيل: إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين. فقال: أحزى الله مالا يمنع الإخوان من الزيارة. ثم أمر منادياً فنادى: من كان لقيس عليه حق فهو منه في حل، فكسرت درجته "بالعشي" لكثرة من عاده. (3)

ويروي حذيفة العدوي خبراً ينفخ بالإيثار، خلال إحدى معارك المسلمين التاريخية، فيقول: (انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عمي، ومعى شنة من ماء، وإناء، فقلت: إن كان

1- صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب ما جاء في قول الله تعالى: { فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ }.

2- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الإحسان إلى البنات.

3- المستجد من فعلات الأجواد، القاضي التنوخي، 51/1.

به رماق سقيته من الماء، ومسحت به وجهه، فإذا أنا به ينشغ، فقلت: أسقيك؟ فأشار أن نعم، فإذا رجل يقول: آه فأشار ابن عمي أن أنطلق إليه، فإذا هو هشام بن العاص - أخو عمرو بن العاص - فأتيته، فقلت: أسقيك؟ فسمع آخر يقول: آه، فأشار هشام أن أنطلق به إليه، فجئته، فإذا هو قد مات، ثم رجعت إلى هشام، فإذا هو قد مات، ثم أتيت ابن عمي فإذا هو قد مات.⁽¹⁾

ويحكى عن أبي الحسن الأنطاكي أنه اجتمع عنده نيف و ثلاثون رجلاً بقرية بقرب الري، ولهم أرغفة معدودة، لم تسع جميعهم، ونشروا الرغفان، وأطفؤوا السراج، وجلسوا للطعام، فلما رفع؛ فإذا الطعام بحاله، لم يأكل واحد منهم؛ إيثاراً لصاحبه.⁽²⁾

صورة للإيثار في شعر الإمام الشافعي

ورد في ديوان الإمام الشافعي، رحمه الله، قوله في الإيثار والجود:

أجود بموجودٍ ولو بت طويلاً	على الجوع كشحاً والحشا يتألم
وأظهر أسباب الغنى بين رفقتي	ليخافهم حالي وإني لمعدم
وبيني وبين الله أشكو فاقتي	حقيقاً فإن الله بالحال أعلم

هدانا الله تعالى لنمثل قيم الإسلام ومكارم أخلاقه، لنكون من خير الشواهد الدالة على خير هذا الدين العظيم، وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا الأسوة، وعلى آله وأزواجه وصحبه، ومن تبعه ووالاه بإحسان إلى يوم الدين.

1- الجهاد، ابن المبارك، 97/1.

2- تاريخ الإسلام، 498/28.

الرسول الأُسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يتمثل حسن الخلق ويدعو إلى التحلي به

ورد في الحديث الصحيح قول الرسول، صلى الله عليه وسلم: {إِنَّ مِنْ أٰخَيْرِكُمْ أَحْسَنَكُمْ خُلُقًا} (1)، فبين الرسول، صلى الله عليه وسلم، في هذا الحديث النبوي مكانة الخلق وصاحبه، الذي يحظى بالأفضلية على سواه، مثلما حظي صاحب التقوى الأفضلية على غيره من الناس، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} (2).

وقد سئل الرسول، صلى الله عليه وسلم، عن البر والإثم، فأجاب بأن البر حسن الخلق، فعن النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ، قال: (سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ، فَقَالَ: الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ). (3).

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يربط حسن الخلق بالبر، مؤكداً بذلك أهمية تمثل حسن الخلق، وقد بين الله تعالى بعض أنواع البر ذات الصلة بحسن الخلق، فقال تعالى: {لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} (4)، فقد أشارت الآية الكريمة إلى جملة من القيم والمبادئ العقائدية

1- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب لم يكن النبي، صلى الله عليه وسلم، فاحشاً ولا متفحشاً.

2- الحجرات: 13.

3- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير البر والإثم.

4- البقرة: 177.

والسلوكية التي يستدل بها على تمتع صاحبها بمنزلة البر والقبول عند الله، فالبر ليس زعماً يدعى، ولا مظهراً فارغاً من محتوى الصلاح ومضمونه، وإنما تظهر دلالاته ومؤثراته بالتزام أركان الإيمان والإسلام، وتمثل حسن الخلق؛ من الوفاء بالعهد، والجود في الإنفاق، والصبر في الشدائد، والصدق في المواقف والأقوال والأفعال، وليس من البر مناقضة السلوك مع ما يتظاهر به المرء من حسن الاستقامة والصلاح، فالله تعالى يقول: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} (1)، وينكر سبحانه أن يحصل هذا التناقض في سلوك المؤمنين، فيقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} (2).

وقد تمثل الرسول، صلى الله عليه وسلم، والصحابة الأخيار والسلف الصالح الإسلام في سلوكهم وأخلاقهم، فكان عليه الصلاة والسلام خلقه القرآن، بخلاف الذين يتظاهرون بصور الصلاح والورع، ويجانبون أخلاق الإسلام في سلوكهم ومعاملتهم، فكبر مقت تناقضهم العجيب هذا عند الله، وفي أشباههم، قال الشاعر:

لَا تَنَّهُ عَن خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلَهُ
عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمٌ

وقال آخر:

وَإِذَا أُصِيبَ الْقَوْمُ فِي أَخْلَاقِهِمْ
فَأَقِمْ عَلَيْهِمْ مَأْتَمًا وَعَوِيلاً

وللأسف؛ فإن فاسدي الخلق يعطون انطباعات سيئة عن سلوك المسلمين، ويفتحون الأبواب مشرعة للمتربصين بالدين وأهله، حتى وصل الأمر ببعض الناس أن يقول: أخلاق بلا تدين، خير من تدين بلا أخلاق.

من هنا يكون من الخير التذكير بحسن أخلاقه صلى الله عليه وسلم، التي أثنى عليها الله تعالى في قرآنه الكريم، ووصفها أهل بيته وأصحابه، ومدحها الناس والشعراء، عسى أن يكون لنا فيها قدوة وأسوة حسنة.

1- البقرة: 44.

2- الصف: 2-3.

ثناء الله على حسن خلق الرسول، صلى الله عليه وسلم

يثني الله تبارك وتعالى على خلق النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، ويصفه بالعظيم، فقال تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ} (1)، وبين الله تعالى دور حسن خلقه صلى الله عليه وسلم في ترغيب الناس بالإسلام، وتعزيز التفاهم حوله، فقال تعالى: {فَيَمَّا رَحِمَهُ مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّيْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} (2).

ومن حسن أخلاق الرسول، صلى الله عليه وسلم، التي نبه إليها القرآن الكريم، أنه كانت تؤذيه مشقة المؤمنين والمكروه الذي يصيبهم، وكان يحرص على هدايتهم، وصلاح حالهم، فقال تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} (3).

وصف الصحابة خلق الرسول، صلى الله عليه وسلم

وصف الصحابة حسن أخلاقه صلى الله عليه وسلم في مواطن كثيرة، ومن ذلك ما ورد عن أنس قال: (كان النبي، صلى الله عليه وسلم، أحسنَ الناس، وأجودَ الناس، وأشجعَ الناس، ولقد فرغ أهل المدينة ذات ليلة، فأنطلقَ الناس قبل الصوت، فاستقبلهم النبي، صلى الله عليه وسلم، قد سبقَ الناس إلى الصوت، وهو يقول: لم تُراعوا، لم تُراعوا، وهو على فرس لأبي طلحة عري، ما عليه سرج، في عنقه سيف، فقال: لقد وجدته بحرًا، أو إنه لبحر) (4)، فقد قدّم الصحابي الكريم أنس بن مالك شواهد على تميز النبي، صلى الله عليه وسلم، على الناس، فبين أنه كان أحسن الناس، وأجودهم، وأشجعهم، وساق خبراً عن شجاعة الرسول، صلى الله عليه وسلم، إذ خاف أهل المدينة لما سمعوا صوتاً

1- القلم: 4.

2- آل عمران: 159.

3- التوبة: 128.

4- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل.

مفزعاً ذات ليلة، فتوجهوا نحو الصوت، فوجدوا أن النبي، صلى الله عليه وسلم، راجع بعد أن سبقهم ناحية الصوت، يستقبلهم، قائلاً: لم تراعوا، أي لا تفرعوا، وهي كلمة تقال عند تسكين الروح، تأنيساً وإظهاراً للرفق بالمخاطب.⁽¹⁾

ويشهد الصحابة الكرام أن الرسول، عليه الصلاة والسلام، كان مهذب القول، لا فحاشاً ولا سباباً، فعن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: (لم يكن النبي، صلى الله عليه وسلم، سباباً، ولا فحاشاً، ولا لعاناً، كان يقول لأحدنا عند المعتبة: ما له ترب جبينه)⁽²⁾، أي كان إذا عاتب أحدهم في أمر يقول له قولاً ليناً لطيفاً: ما لك ترب جبينك؛ أي التصق جبينك بالتراب، ومن أحسن أحوال المؤمن حين يكون ساجداً لله، ويكون جبينه وقتها ملتصقاً بالأرض، ومثل ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (... فَأظْفَرُ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ).⁽³⁾

وفي رواية عن عبد الله بن عمرو، قال: (لم يكن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فاحشاً ولا متفحشاً...)⁽⁴⁾، وعن ابن المنكدر قال: (سمعت جابراً، رضي الله عنه، يقول: ما سئل النبي، صلى الله عليه وسلم، عن شيء قط، فقال: لا)⁽⁵⁾، وتجاوبه مع السائلين، يدل على حسن ملاطفته ورفقه ولينه معهم صلى الله عليه وسلم.

وصف أزواجه وخادمه لحسن خلقه صلى الله عليه وسلم

تحدثت أزواج النبي، صلى الله عليه وسلم، عن حسن أخلاقه في بيته، فجاء في صحيح البخاري، باب كيف يكون الرجل في أهله، وفيه عن الأسود، قال: (سألت عائشة ما كان النبي، صلى الله عليه وسلم، يصنع في أهله، قالت: كان في مهنة أهله، فإذا حضرت

1- عمدة القاري، ج22، ص118-119.

2- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب لم يكن النبي، صلى الله عليه وسلم، فاحشاً ولا متفحشاً.

3- صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين.

4- صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي، صلى الله عليه وسلم.

5- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل.

الصَّلَاةُ، قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ⁽¹⁾، يدل هذا الحديث الشريف على صفة خلقه صلى الله عليه وسلم في بيته، ومع أهله، فقد كان في مهنة أهله.

وكان صلى الله عليه وسلم في بيته الودود الوفي، حتى لمن مات من أزواجه، فعن عَائِشَةَ أنها قالت: (ما غُرْتُ على امْرَأَةٍ لِرَسُولِ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، كما غُرْتُ على خَدِيجَةَ، لِكَثْرَةِ ذِكْرِ رَسُولِ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، إِيَّاهَا، وَتَنَائِهِ عَلَيْهَا، وَقَدْ أُوحِيَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، أَنْ يُبَشِّرَهَا بِبَيْتٍ لَهَا فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ).⁽²⁾

وبالإضافة إلى أزواجه، يشهد لحسن أخلاقه صلى الله عليه وسلم مخالطوه في بيته، وبخاصة الصحابي الجليل أنس بن مالك، الذي قال: (خَدَمْتُ النَّبِيَّ، صلى الله عليه وسلم، عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا قَالَ لِي أَفٌّ، وَلَا لِمَ صَنَعْتُ، وَلَا أَلَا صَنَعْتُ).⁽³⁾

شهادة الناس للرسول بحسن الخلق

فقد شهد للنبي، صلى الله عليه وسلم، مستمعوه ومجالسوه، ليس فقط بحسن الخلق، بل بالدعوة إليه أيضاً، فيقول أبو ذرٍّ، رضي الله عنه: (إِنَّهُ لَمَّا بَلَغَهُ مَبْعَثُ النَّبِيِّ، صلى الله عليه وسلم، قَالَ لِأَخِيهِ: ارْكَبْ إِلَى هَذَا الْوَادِي، فَاسْمَعْ مِنْ قَوْلِهِ، فَارْجِعْ، فَقَالَ: رَأَيْتُهُ يَأْمُرُ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ).⁽⁴⁾

ولما سأل هرقل، عظيم الروم، أبا سفيان عن خلق الرسول، صلى الله عليه وسلم، قال: (...كُنْتُمْ تَتَهَمُونَهُ عَلَى الْكُذْبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قلت: لا...)⁽⁵⁾، وأخبر ابن عباس

1- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب كيف يكون الرجل في أهله.

2- صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب غيرة النساء ووجدهن.

3- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل.

4- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل.

5- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي، صلى الله عليه وسلم، إلى الإسلام والنبوة، وأن لا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من

دون الله.

عن أبي سفيان، أَنَّ هِرْقَلَ قَالَ لَهُ: (سَأَلْتُكَ مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ فَزَعَمْتَ أَنَّهُ أَمَرَكُمْ بِالصَّلَاةِ، وَالصَّدَقِ، وَالْعَفَافِ، وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، قَالَ: وَهَذِهِ صِفَةُ نَبِيِّ).⁽¹⁾

قصيدة لأمير الشعراء في مدح أخلاق الرسول، صلى الله عليه وسلم

من شرف الشعر أن يوفق إلى مدح الرسول، صلى الله عليه وسلم، ومن الشعراء الذين وفقوا إلى مدح أخلاق الرسول، صلى الله عليه وسلم، أمير الشعراء أحمد شوقي، في قصيدته المشهورة "ولد الهدى" التي افتتحها بقوله:

وُلِدَ الْهُدَى فَالكَائِنَاتِ ضِيَاءٌ *** وَفَمِ الزَّمَانِ تَبَسُّمٌ وَثَنَاءٌ

يا من له الأخلاقُ ما تهوى العلاء	منها وما يتعشقُ الكبراءُ
لو لم تُقِمْ ديناً لقامت وحدها	ديناً تُضيءُ بنوره الأناءُ
زانتك في الخلق العظيم شمائلُ	يُغري بهن ويولعُ الكرماءُ
فإذا سخوتَ بلغت بالجود المدى	وفعلتَ ما لا تفعلُ الأنواءُ
وإذا عفوتَ فقادراً ومُقَدَّراً	لا يستهينُ بعفوك الجُهلاءُ
وإذا رحمتَ فأنت أمُّ أو أبُ	هذان في الدنياهما الرحماءُ
وإذا غضبتَ فإنما هي غضبةٌ	في الحق لا ضغن ولا بغضاءُ
وإذا خطبتَ فلمنابرِ هِزَّة	تَعْرُو النَّبِيَّ وللقلوب بكاءُ
وإذا قضيت فلا ارتيابَ كأنما	جاء الخصومَ من السماء قضاءُ
وإذا حميت الماءَ لم يُوردَ ولو	أن القياصيرَ والملوكَ ظمأُ
وإذا أجرتَ فأنت بيتُ الله لم	يدخل عليه المستجيرُ عداً
وإذا أخذتَ العهدَ أو أعطيتَه	فجميعُ عهدك ذمةٌ ووفاءُ
يا أيها الأمي حَسْبُكَ رتبةٌ	في العلم أن دانت بك العلماءُ
الذِّكْرُ آية رَبِّكَ الكبرى التي	فيها لباغي المعجزاتِ غناءُ
صدرُ البيان له إذا التقت اللُغى	وتقدمَ البلغاءُ والفصحاءُ

1- صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد.

وجاء في هذه القصيدة:

حسدوا فقالوا شاعرٌ أو ساحرٌ ومن الحسودِ يكونُ الاستهزاءُ
دينٌ يُشيدُ آيةً في آيةٍ لِنَاتِهِ السُّورَاتُ والأصْوَاءُ
الحق فيه هو الأساسُ وكيف لا؟ واللهُ جلُّ جلالهُ البناءُ

واجب التأسى بخلقه صلى الله عليه وسلم

يجدر بالمؤمنين أن يتمثلوا خلق النبي، صلى الله عليه وسلم، ويتأسوا به ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، عملاً بأمر الله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا}. (1)

ولزوم السعي إلى التحلي بأخلاق الرسول، صلى الله عليه وسلم، يشمله الأمر الرباني العام للمؤمنين، بأن يأخذوا ما أمرهم الرسول، صلى الله عليه وسلم، به، وينتهوا عما نهاهم عنه، عملاً بقوله تعالى: {...وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}. (2)

وخير مخرج من حالة التذبذب بين التحلي بكمارم الأخلاق والتخبط في ذميمها، يكون بتتبع آثار الرسول، صلى الله عليه وسلم، والأخذ بها، وقد دعا عليه الصلاة والسلام إلى لزوم العمل بما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، فقال: (... فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ) (3)، أعاننا الله تعالى على حسن التأسى برسولنا محمد، صاحب الخلق العظيم، صلى الله عليه وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

1- الأحزاب: 21.

2- الحشر: 7.

3- صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

الرسول الأُسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يحث على صيام الجوارح عن اقتراف الآثام والمنكرات

الحلقة الأولى

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (من لم يَدْعُ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ).⁽¹⁾

يربط الرسول، صلى الله عليه وسلم، في حديثه هذا بين سلوك الصائم، وبين إمساكه عن مفطرات الصيام المعروفة، في إشارة واضحة الدلالة على أهمية استقامة السلوك إلى جانب الأهمية الخاصة بأداء الشعائر التعبدية الأخرى، وذلك حتى يتناغم ما يصدر عن المسلم من أقوال وأعمال مع عقيدته وتعبده لله، وذكر الرسول، صلى الله عليه وسلم، قول الزور في هذا الحديث على سبيل المثال للسلوك الشائن المنحرف الذي يتنافى مع القيام بأداء عبادة الصيام، وأنواع السلوك المنحرف كثيرة، لا تعد ولا تحصى، غير أن لفت الانتباه إلى نوع منها بهذا الأسلوب المنفر من اقترافها يدل على ضرورة أن يتحرى العابد تجنب كل ما من شأنه التناقض مع روح العبادة وأهدافها ودوافعها المشروعة، حتى يرجو قبولها ونيل ثوابها، فالله فرض على الصائم أن يمسك عن تناول الطعام والشراب خلال يوم صيامه، لكن هذا الإمساك يعتريه النقص والخلل والعيب إن رافقه تجاوز حدود الله في أنواع السلوك الأخرى التي يقوم بها الصائم، فالله يهدب الصائمين بالصيام؛ ليصبحوا أكثر قرباً منه سبحانه وتعالى، ولا تتحقق هذه الغاية السامية مع مجانبة منهج الشرع الحنيف فيما يصدر عن الصائمين من أقوال وأعمال في ميادين علاقاتهم الاجتماعية وتطلعاتهم الشخصية، وسلوكهم العام والخاص، فلا بد من انضباط جوارح الصائم بقيود الشرع وآدابه، لتتحقق فيه الصورة المتكاملة للمسلم الحق،

1- صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم.

التي أَرَادَهُ اللهُ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهَا، وَلَخَصَّ الرَّسُولَ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الْحِرْصَ عَلَى أَخْذِ كُلِّ مُسْلِمٍ بِهَا، حِينَ أَجَابَ مَنْ سَأَلَهُ عَنْ قَوْلِ عَظِيمٍ فِي الْإِسْلَامِ، فَطَلَبَ مِنْهُ الْإِيمَانَ وَالِاسْتِقَامَةَ، فَعَنْ سُهَيْبَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ التَّخْفِيِّ قَالَ: (قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ، وَفِي حَدِيثِ أَبِي أُسَامَةَ غَيْرِكَ، قَالَ: قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ فَاسْتَقِيمَ).⁽¹⁾

ومن صور ربط عبادة الصوم بالسلوك، أن الإسلام شرع الصوم كفارة عن بعض الأعمال السلوكية، مثل كفارة الحنث باليمين، والظهار، والقتل الخطأ، وما إلى ذلك من الأعمال التي يكفر المسلم عن ارتكابها بالصوم ضمن شروط وضوابط حددها الشرع لكل منها.

صيام الجوارح

جوارح الإنسان هي أعضاؤه، التي منها عيناه وأذناه ولسانه ويدها ورجلاه وفرجه، ولا بدَّ لهذه الجوارح من أن تنضبط بأحكام الإسلام وآدابه وقيمه إذا ما أراد صاحبها النجاة من النار، والفوز بالجنة التي وعدّها الله عباده المتقين، وعملية الانضباط المطلوبة تتمثل في الكف عن المخطور، إلى جانب أداء المأمور به، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يقول: (...فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ).⁽²⁾

فالمطلوب من صاحب الجوارح أن يسكها عما نهى عنه الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم؛ حتى لا يوردها المهالك، فتأتي يوم القيامة تخصمه، بل تشهد على جنائياته ومعاصيه، إذ يقول تعالى: {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}.⁽³⁾

1- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام.

2- صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

3- النور: 24.

وقال تعالى: { حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ* وَقَالُوا لِيَجْلُدِهِمُ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ* وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ}. (1)

صوم اللسان

ورد في صوم الجوارح عن الآثام والخطايا، تفصيل كثير في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وفي صوم اللسان بحفظه عن التلفظ بالشر والسوء والفحش، جاء في الحديث الصحيح عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قوله: (...وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ) (2)، وفي كف اللسان عن الحلف بغير الله، يقول النبي، صلى الله عليه وسلم: (مَنْ كَانَ حَالِفًا؛ فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ). (3)

ويتماشى الحث النبوي على إمساك اللسان عن الشر، مع الوعيد الرباني الذي عبر عنه الإخبار القرآني عن رصد أقوال الإنسان، وتسجيلها من قبل ملكين وكلهما الله بهذه المهمة، فقال تعالى: { مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}. (4)

فتبعات زلات اللسان وفحشه وخيمته، تلحق بصاحبه الإثم، وتورده أبواب الندم، وقد حذر الرسول، صلى الله عليه وسلم، مما يوصل إلى هذه التبعات، فعَنْ سَفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيِّ: (قَلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ مَا أَخَوْفُ مَا تَخَافُ عَلَيَّ؟ قَالَ: فَأَخَذَ بِلِسَانِ نَفْسِهِ، ثُمَّ قَالَ: هَذَا). (5)

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ فِي مَعْنَى ذَلِكَ: (إِنَّهُ - أَيِ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَخْبَرَ السَّائِلَ بِأَنَّ أَخَوْفَ مَا يَخَافُ عَلَيْهِ أَنْ يُورِدَ صَاحِبَهُ الْمَوَارِدَ، وَأَمْرَهُ أَنْ يَقْبِضَ عَلَيْهِ، وَلَا يُطْلِقَهُ). (6)

1- فصلت: 20-22.

2- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره.

3- صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب كيف يستحلف.

4- ق: 18.

5- مسند أحمد، مسند المكين، حديث سفيان بن عبد الله الثقفي، وصححه شعيب الأرنؤوط.

6- صحيح ابن حبان، 6/13، وصححه الأرنؤوط.

وفي هذا السياق يقول الإمام الشافعي في ديوان شعره:

إذا رمت أن تحيا سليماً من الردى ***
ودينك موفور وعرضك صين
فلا ينطقن منك اللسان بسوءة ***
فكلك سوءات وللناس ألسن

وبيين الرسول، صلى الله عليه وسلم، أن من أبرز خصائص المسلم، أنه يحفظ لسانه عن إيذاء الآخرين، فعن أبي موسى، رضي الله عنه، قال: **(قالوا: يا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَيُّ الإِسْلَامِ أَفْضَلُ؟ قال: من سَلِمَ المُسْلِمُونَ من لِسَانِهِ وَيَدِهِ).** (1)

فقد ربط الرسول، صلى الله عليه وسلم، في هذا الحديث بين إسلام المرء وسلوكه مع الآخرين، فإذا كفَّ أذى لسانه ويده عنهم، ينزل منازل الخيرية، وينال أرفع درجات الفضل. ومن النواهي الربانية التي جاءت في القرآن الكريم، فيما يخص إلزام اللسان بالكف عن سوء القول وفحشه وإثمه والإمساك عنها، ما جاء من نهى الله تعالى عن الكذب، والغيبة، والنميمة، والهمز، واللمز، والتنازب بالألقاب، والسخرية من الآخرين والاستخفاف بهم وازدرائهم، ويقوم بمعظم هذه السلبيات السلوكية اللسان غير المهذب، لذا نهى الله عن هذه الخطايا السلوكية، وقد حفلت سورة الحجرات بذكر عدد وافر من النواهي الخاصة بأفات اللسان، ففي النهي عن إساءة الأدب مع الرسول، صلى الله عليه وسلم، يقول تعالى: **{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ* إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ* إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ* وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}**. (2)

1- صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب أي الإسلام أفضل.

2- الحجرات: 5-2.

وفي لزوم كف اللسان عن التسرع في اتهام الآخرين، بسبب أخبار غير موثوقة، يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَيَّ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ} (1).

وفي النهي عن السخرية من الآخرين، يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرَكُم مِّن قَوْمٍ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُم الظَّالِمُونَ} (2).

وفي النهي عن الغيبة، يقول تعالى: {...وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ} (3).

ومن السور القرآنية سورة سميت بمسمى له صلة مباشرة بأفة لسانية، وهي سورة الهمزة، التي افتتحت بوعيد من الله تعالى بالويل للهماز، فقال تعالى: {وَيْلٌ لَّكُم مِّن هَمْزَةٍ لُّمَزَةٍ} (4).

وعن سوء مقام الهماز والمشاء بالنميمة، يقول تعالى في سورة القلم: {وَلَا تُطْعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَاءٍ بِنَمِيمٍ} (5).

ومما ورد في شرح معنى النميمة، وبيان بشاعة الكذب، ما روي عن الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود قال: (إِنَّ مُحَمَّدًا، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: أَلَا أُنبِّئُكُمْ مَا الْعِضَّةُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ، وَإِنَّ مُحَمَّدًا، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: إِنَّ الرَّجُلَ يَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ صَدِيقًا، وَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ كَذَّابًا). (6).

1- الحجرات: 6.

2- الحجرات: 11.

3- الحجرات: 12.

4- الهمزة: 1.

5- القلم: 10-11.

6- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم النميمة.

وورد في الحديث الصحيح ما ينفر من النميمة أشد التنفير، ففي صحيح البخاري باب النَّمِيمة من الكَبَائِرِ، وفيه عن ابن عَبَّاسٍ قال: (خَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ بَعْضِ حَيْطَانِ الْمَدِينَةِ، فَسَمِعَ صَوْتَ إِنْسَانَيْنِ يُعَدَّبَانِ فِي قُبُورِهِمَا، فَقَالَ: يُعَدَّبَانِ وَمَا يُعَدَّبَانِ فِي كَيْبٍ، وَإِنَّهُ لَكَيْبٌ، كَانَ أَحَدُهُمَا لَا يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ، وَكَانَ الْآخَرُ يَمْشِي بِالنَّمِيمةِ، ثُمَّ دَعَا بِجَرِيدَةٍ، فَكَسَرَهَا بِكَسْرَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَتَيْنِ، فَجَعَلَ كِسْرَةً فِي قَبْرِ هَذَا، وَكِسْرَةً فِي قَبْرِ هَذَا، فَقَالَ: لَعَلَّهُ يُخَفِّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَبْسَأْ).⁽¹⁾

وعن حَدِيثِهَا قَالَ: (سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَاتٌ)⁽²⁾⁽³⁾.

من هنا؛ تبرز فظاعة اقتراف اللسان لمنكرات القول واللفظ، مما يعد من الفسق والفجور، كيف لا؟ والرسول، صلى الله عليه وسلم، يقول: (سَبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ).⁽⁴⁾

فإذا كان صدور السباب عن أي مسلم يُعتبر من قبيل الفسق، فإنه حين يصدر عن المسلم الصائم، يكون أفسق؛ لأنه يدل على تضارب بين حالين، حال الصوم، وحال انفلات اللسان من عقل الانضباط الشرعي، والتهذيب الأخلاقي؛ حسب ما جاءت به تعاليم ديننا الحنيف وآدابه وقيمه، فإذا ما اجتمع الحالان المتناقضان، فستكون صورة حاملهما بالتأكيد في غاية التشويه والبشاعة، فهذه وقفة مع جارحة من جوارح الإنسان، وهي اللسان، ثم خلاها عرض بعض ما يمكن استثماره من مدرسة الصيام في تهذيب اللسان، وجعله ناطقاً بالخير، صائماً عن الشر في رمضان وسائر الأيام.

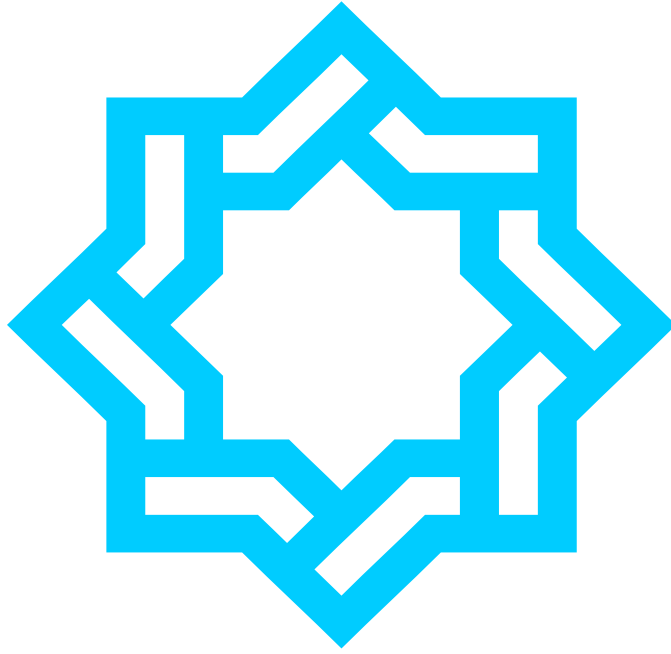
1- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب النميمة من الكبائر.

2- القتات هو النمام، والنميمة: نقل الكلام على وجه الفساد. (مراجعة المفاتيح، 59/9).

3- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ما يكره من النميمة.

4- صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر.

أعاذنا الله من آفات اللسان، وأعاننا على حسن ضبطه وكفه عن الفحش والفجور
والإثم، وإلى لقاء آخر في الحلقة القادمة عما تيسر من حديث عن صيام الجوارح، وصلى
الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى
يوم الدين.



الرسول الأُسوة محمد صلى الله عليه وسلم

بحث على صيام الجوارح عن اقتراح الآثام والمنكرات

الحلقة الثانية

عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيْبُهُ مِنَ الزَّنَى، مُدْرِكُ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَالْعَيْنَانُ زَنَاهُمَا النَّظْرُ، وَالْأُذُنَانُ زَنَاهُمَا الِاسْتِمَاعُ، وَاللِّسَانُ زَنَاهُ الْكَلَامُ، وَالْيَدُ زَنَاهَا الْبَطْشُ، وَالرِّجْلُ زَنَاهَا الْخَطَا، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ وَيُكَذِّبُهُ).⁽¹⁾

قبل أيام انتهى المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها من صيام أيام شهر رمضان، وها هم يعودون لتناول وجبات طعامهم وشرابهم النهاري، مما أمروا بالإسك عنه طيلة نهار أيام شهر رمضان، وإذا ما صاموا خلال أيام شهر شوال أو ما بعده من أيام العام، فيكون ذلك على سبيل التطوع، والحرص على تحصيل مزيدٍ من الفضل والخير والثواب، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، شجّع على إتباع رمضان بصيام ست من شوال، فعن أبي أيوب الأنصاري، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (مَنْ صَامَ رَمَضَانَ، ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَالٍ؛ كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ)⁽²⁾، مما يشير إلى فضل التطوع بالصيام، بعد الانتهاء من صوم الفريضة.

وفي حلقة سابقة من هذه الزاوية الصحفية تناولنا موضوع صوم الجوارح عن اقتراح الآثام والمنكرات، وركزنا على صوم اللسان، ونود هنا الوقوف عند ما تيسر من النصوص الشرعية ذات العلاقة بصيام جوارح أخرى عن الآثام، مثل صيام العينين والفرج عما حرم الله، ففي حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، أعلاه، يبين الرسول، صلى الله عليه وسلم، أن جوارح الإنسان تتعرض للانغماس بالمعصية والإثم، مما قد يؤدي إلى الوقوع في برائن جريمة

1- صحيح مسلم، كتاب القدر، باب قدر على ابن آدم حظه من الزنى وغيره.

2- صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب استحباب صوم ستة أيام من شوال إتباعاً لرمضان.

الزنى، وهي من أقبح المعاصي، ويكون ذلك حين تنطلق بعض جوارح الإنسان من ضوابطها وأسوارها التي حد الشرع حدودها، فالشرع منع الاسترسال في النظر والتحديق بالعينين من قبل أطراف يشتهون بعضهم بعضاً دون إذن شرعي، وقد يؤدي هذا التحديق - وبخاصة إذا ما وجدت محفزات أخرى - للإثارة من صوت عذب، أو التعبير بمجديث وكلام وحركات في الجسد والأطراف بما يثير الشهوات، وخاصة إذا تم ذلك في خلوة محرمة، مما يساعد على تحقيق هوى النفس الأمارة باستخدام الفرج فيما حرم الله، أما إذا حصل الإمساك عن مثيرات الشهوة، وحجبت الجوارح عن الحرام من نظر وكلام وزينة وحركات مثيرة، فيساعد ذلك الفرج على الاستعصام عن الوقوع في برائن الفاحشة والإثم الكبير، الذي وصفه الله بالسبيل السيء، فقال تعالى في معرض نهيه عن اقتراف جريمة الزنى: **{وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا}**.⁽¹⁾

ومن لطيف النهي القرآني عن ارتكاب الفواحش أن الله نهى عن اقترافها جهاراً إلى جانب النهي عن اقترافها بالسر والخفية، فقال تعالى: **{...وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ...}**⁽²⁾، ولا شك أن الذين يخافون الله، ويخشون عقابه، ويطمعون في مثوبته، يتهون أنفسهم عن الهوى، ولا يقعون في غمار الفواحش ومثالبها، والرسول، صلى الله عليه وسلم، يراهن على إيمان المرء في تجنب الوقوع في الزنى، فيقول صلى الله عليه وسلم: **{لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ...}**.⁽³⁾

وإن من ثمار مدرسة الصيام التربوية، أنها تعمل على تهذيب نفس الصائم عن اقتراف الموبقات والآثام، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، نهى الصائم عن الرفث والصخب، فعن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: **{قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله: كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصِّيَامَ؛ فَإِنَّهُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، وَالصِّيَامُ جَنَّةٌ، وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ**

1- الإسراء: 32.

2- الأنعام: 151.

3- صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب ما يجذر من الحدود الزنى وشرب الخمر.

أَحَدِكُمْ، فَلَا يَرُفُثُ، وَلَا يَصْخَبُ، فَإِنْ سَابَهُ أَحَدٌ، أَوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ إِنِّي أَمْرٌ صَائِمٌ...»⁽¹⁾،

والمراد بالرفث الكلام الفاحش، ويطلق على الجماع ومقدماته، وعلى ذكره مع النساء.⁽²⁾

فالصيام إذن لا تنقطع خيراته وثماره وآثاره بالفطر على المباح الذي منع منه الصائم أثناء نهار الصيام، وإنما يمتد دور الصيام ليلا مس سلوك الصائم ببصمات التهذيب الخلقي، فيحقق له بذلك سمواً ورفعة في حركاته وسكناته، عدا عن نيل درجات المثوبة التي يتفضل الله بمنحها للصائمين، الذين اتقوا الله حق تقاته، وعملوا على أن لا يموتوا إلا مسلمين، والمطالع لآيات فرض الصيام يجد ما يلفت النظر إلى سر ربط الصيام بالتقوى، فلم تكن مصادفة أن يختم الله بعض الآيات القرآنية ذات الصلة بفرض الصوم وأحكامه بتعقيب خاص بالتقوى، فالآية التي فرض الله فيها الصيام ختمت بقوله تعالى: {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}.⁽³⁾

وقد فسر الإمام علي المراد بالتقوى، فقال: هي الخوف من الجليل سبحانه وتعالى، والعمل بالتنزيل، والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل. فالتقوى مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالسلوك، وختم آية فرض الصوم بما يعبر عن استهداف تحصيل التقوى من قبل المؤمنين المخاطبين بالصوم، يدل دلالة واضحة على عمق ارتباط العبادة في الإسلام بسلوك العابدين وعقيدتهم. وتعرضنا في هذا المقام لنماذج من صوم الجوارح - في ضوء ما يتيسر الاستدلال به من النصوص الشرعية- يهدف إلى التأكيد على أن أعمال الصيام لا تنتهي بعيد الفطر، وإنما ينبغي أن تمتد آثارها السلوكية وبصماتها التربوية والانضباطية طيلة أيام العام ولياليه، ضمن قاعدة لزوم الكف عن الحرام، والإمسك عن اقترافه، وترويض النفس على الاقتصار على المباح، قولاً وعملاً، حتى نكون من عباد الله الذين اصطفى، ممن عملوا على تطهير

1- صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب هل يقول إني صائم إذا شتم.

2- فتح الباري، 4/ 104.

3- البقرة: 183.

أنفسهم من الموبقات والخطايا، الذين وعدهم الله بالفلاح، فقال تعالى: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا* قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا* وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا*}. (1)

حفظ الفرج

إن مما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، عن صوم الجوارح عن الآثام والخطايا، ما جاء عن سَهْلِ بن سَعْدٍ عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: (من يَضْمَنَ لي ما بين لَحْيَيْهِ وما بين رِجْلَيْهِ، أَضْمَنَ له الْجَنَّةَ) (2)، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يُرَكِّز في هذا الحديث الشريف على أهمية إمساك الفرج عن الفاحشة، حيث يَعِدُّ الذي يحفظ فرجه عن اقرار الخطايا بالجنة، وقد أثنت الآيات القرآنية الكريمة على المؤمنين الذين يحفظون فروجهم، فقال تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ}. (3)

وربط الرسول، صلى الله عليه وسلم، بين الصوم وبين إحصان الفرج، فحث الذي تتوق نفسه للزواج، ولم تتوافر له القدرة عليه بأن يصوم، مشيراً إلى دور الصيام في معالجة جموح الجنس والتوقان إليه، فعن عبد الله، رضي الله عنه، قال: (كنا مع النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: من استطاع البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فإنه أغضُّ للبَصْرِ، وأحصنُ للفرجِ، ومَن لم يستطعْ، فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ فإنه له وِجَاءٌ). (4)

وفي سياق البيان القرآني لبعض أحكام الصيام، ورد الحديث المفصل عن قضية المعاشرة الجنسية بين الزوجين، فأبيحت خلال ليل الصوم، ومُبِعَتْ خلال نهاره، فقال تعالى: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَأَبْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ

1- الشمس: 7-10.

2- صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان.

3- المؤمنون: 5، المعارج: 29.

4- صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة.

أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ⁽¹⁾.

والرسول، صلى الله عليه وسلم، ذكر أن ترك الشهوة سبب من أسباب نيل الصائم جائزة ربه، ففي الحديث الصحيح عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِلَّا الصَّوْمَ؛ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي، لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ؛ فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ، وَلَخُلُوفُ فِيهِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ)⁽²⁾. ومن بين دلالات التطرق لموضوع المعاشرة الجنسية وترك الشهوة خلال الحديث عن الصيام وأحكامه، التنبيه إلى ضرورة انضباط العمل الجنسي بالحكم الشرعي، مما يعني الكف عن كل سبيل أو أسلوب أو ظرف يمنع الشرع أن تتم المعاشرة فيه، والتقيد بما يبيحه الشرع الحنيف، فلا تحل المعاشرة إلا في نطاق الزواج المشروع، وبين أطراف يجوز لهم الزواج من بعضهم بعضاً، ولا تحل المعاشرة الجنسية التي تتمثل في الجماع ومقدماته خلال نهار الصيام، ولا يجوز أن تكون المعاشرة إلا حيث أمر الله وأباح، فلا يجوز أن تتم من الدبر، ولا أن تكون خلال فترة حيض المرأة أو نفاسها، ولا يجوز أن تتم عن طريق المخادنة، والحيانة المتمثلة في الزنى سواء أكان ذلك برضا الطرفين أم باغتصاب أحدهما من قبل الآخر.

صوم العين

ومن الجوارح التي ينبغي أن تصوم عن الحرام؛ العين، حيث أمر الله المؤمنين والمؤمنات بكف العين عن النظر إلى بعضهم بعضاً على سبيل الاشتهاة إلا إذا كانوا أزواجاً، فأمر الله تعالى المؤمنين قائلاً: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ}⁽³⁾، والملاحظ أن الله تعالى قرن في هذه الآية الكريمة بين الأمر بغض البصر، وبين لزوم حفظ الفروج عن اقرار الفاحشة، مبيناً أن من ثمار الانضباط

1- البقرة: 187.

2- صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب فضل الصيام.

3- النور: 30.

بهذين الأمرين نبيل التزكية والطهر، وتلك درجة من درجات الرفعة والتكريم التي يتفضل الله بها على عباده المتقين، المسكين عن اقتراف الآثام.

وفي الآية التالية لهذه الآية من سورة النور أمر الله المؤمنات بنفس أمر غض البصر، فقال تعالى: { وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطُّفُلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } (1).

وهنا أكد الله قرن الأمر بغض البصر وبين حفظ الفروج، مضافاً إليهما النهي عن إبداء الزينة التي حرم الله ظهورها لخلاف الزوج أو المحرم، وأكد الله على أمر النساء بترك كشف العورات التي أمر بسترها، ونهاهن الله عن القيام بحركات إغرائية، تجذب شهوات الرجال، على منوال الضرب بالأرجل لإخراج أصوات للزينة المستورة، وسواء أتمت حركات لفت النظر إلى الزينة بهذه الطريقة أم بغيرها من الأساليب التي لا تعد ولا تحصى، فينبغي للمرأة المؤمنة، والفتاة التي تحشى يوماً تلقى فيه ربها، أن تصوم عن القيام بتلك الحركات المثيرة، حتى تكون ممن يعينون على اتباع الحق، ويتعاونون على الخير والبر والتقوى، ولا يتعاونون على الإثم والعدوان، جعلنا الله تعالى من الذين يحرصون على اتباع الحق في أقوالهم وأعمالهم، في عبادتهم وسلوكهم، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الرسول الأُسوة محمد صلى الله عليه وسلم

ينهى عن الظلم ويحذر من عواقبه الوخيمة وينتصر للمظلوم

عن أبي ذرٍّ، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، فيما روى عن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أَنَّهُ قَالَ: (يَا عِبَادِي؛ إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا...) (1)، فالله تعالى منزه عن أن يصدر عنه الظلم سبحانه، أو أن يرضى به حاشاه. وينهى الله عباده عن الوقوع في دهاليز الظلم، فهو ظلمات يوم القيامة، فعن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (الظُّلْمُ ظُلُمَاتُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ) (2)، وفي شرح النووي على صحيح مسلم قيل: إن المعنى على ظاهره، فيكون أظلم ظلمات على صاحبه، لا يهتدي يوم القيامة سبيلاً، حتى يسعى نور المؤمنين بين أيديهم وبأيمانهم، ويحتمل أن الظلمات هنا الشدائد، وبه فسروا قوله تعالى: {قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} (3)؛ أي شدائدهما، ويحتمل أنها عبارة عن الأنكال والعقوبات. (4)

فكيف بالذين يتجرأون على الله، في انتهاك حرمت الخلق دون حق، فيقتلون الأبرياء من الناس شيوخاً ونساءً وأطفالاً، شيباً وشباناً، ويأسرونهم ظلماً وعدواناً، على مرأى من العالم وسمعه، دون أن يلقي الظالمون ردعاً يحجزهم عما هم فيه غارقون من بشاعة الظلم وفضائعه، قالين بجرائمهم ظهر الجن لنهي الله عن الظلم، وإنكاره سبحانه التعدي على الأبرياء من خلقه، إذ يقول تعالى: {ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجَهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ

1- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم.

2- صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب الظلم ظلمات يوم القيامة.

3- الأنعام: 63.

4- صحيح مسلم بشرح النووي، 134/16.

مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ⁽¹⁾، فالويل والخزي والعار لكل الذين لا يابهون بتحذير الله من الوقوع في الظلم، فيظلمون الناس بانتهاك أعراضهم، وامتهان كراماتهم، وإزهاق أرواحهم، وإهراق دمائهم، ومنعهم حقهم في الحياة الكريمة، والعيش بحرية وكرامة وعدالة.

اتقاء دعوة المظلوم

إن من أوجه ظلمات الظلم، وصور عواقبه الوخيمة، أن الله تعالى أكرم المظلوم بمنحه ضمان وصول صوته المرفوع بالشكوى لربه ضد الظالم دون حجاب يحجزه، ولا موانع تحول دون بلوغه سمع الله وبصره وإرادته في الانتقام له من ظلمه، فعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ، فَقَالَ: (... وَأَتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ).⁽²⁾

فالظلم يعود بوخيم النتائج على مقترفه، التي منها توجه المظلوم إلى ربه في الدعوة على ظلمه، وطلب العون الرباني عليه، وفي هذا يقول الشاعر:

لا تظلمنَّ إذا ما كنتَ مُقتدراً فالظلمُ مرتعُهُ يُفْضي إلى النَّدَمِ
تنام عينُكَ والمظلومُ منتبهُهُ يدعو عليك وعينُ الله لم تَنَمِ
والإمام العادل، عمر بن عبد العزيز، الذي دُعي بالخليفة الراشد الخامس، يروى عنه أنه نصح بعض عماله، فقال: (أَمَّا بَعْدُ، فَإِذَا دَعَتَكَ قُدْرَتُكَ عَلَى النَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَادْكُرْ قُدْرَةَ اللَّهِ عَلَيْكَ).⁽³⁾

والمظلومون الذين يعانون الأمرين من جلاديتهم، ومغتصبي حقوقهم، وقاهريهم، لا شك أنهم يقومون عبر طول الزمان والمكان وعرضهما، بتسليط أحر الأدعية على ظالميتهم، منطلقين من إيمانهم و يقينهم بأن للظالم نهاية حتمية في خزيها وشناعتها، طال الزمان أم

1- البقرة: 85.

2- صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا.

3- شعب الإيمان: 517/9.

قصر، فالله يجهل ولا يهمل، وهو سبحانه للظالمين بالمرصاد، يحصي عليهم أعمالهم، ويعد عليهم تجاوزاتهم درب الحق وسبيل العدل مصادقاً لوعيدهم الوارد في مثل قوله سبحانه وتعالى: {...وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ} (1)، وقوله تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ} (2).

أنموذج لعاقبة من أخذ حقوق الآخرين ظلماً

تتعدد صور الظلم الذي يقع على المظلومين من الظالمين، وهي تختلف في الشكل والمستوى والأثر والجمال، غير إنها تلتقي عند قواسم مشتركة عديدة، مثل إنكار تجاوزهم الحق إلى الباطل، ووعيدهم بالسخط والعذاب، ومن النماذج التي ورد ذكرها في سياق الأحاديث النبوية الصحيحة، ما جاء بشأن مغتصبي أراضي الآخرين، بغض النظر عن الأساليب والوسائل، والجهة الظالمة، التي سولت لها نفسها أن تظلم الآخرين وتسلبهم حقوقهم، وتنتهك حرمانهم، وتمس كراماتهم، ظلماً وعدواناً، فعن هشام بن عروة، عن أبيه، (أَنَّ أَرْوَى بِنْتَ أُوَيْسٍ ادَّعَتْ عَلَى سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ، أَنَّهُ أَخَذَ شَيْئاً مِنْ أَرْضِهَا، فَخَاصَمَتْهُ إِلَى مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ، فَقَالَ سَعِيدٌ: أَنَا كُنْتُ أَخَذْتُ مِنْ أَرْضِهَا شَيْئاً بَعْدَ الَّذِي سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!!؟!! قال: وما سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: مَنْ أَخَذَ شَيْئاً مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا؛ طُوقَهُ إِلَى سَبْعِ أَرْضِينَ، فَقَالَ لَهُ مَرْوَانُ: لَا أَسْأَلُكَ بَيْنَهُ بَعْدَ هَذَا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ كَاذِبَةً، فَعَمَّ بَصَرُهَا، وَأَقْتُلْهَا فِي أَرْضِهَا، قَالَ: فَمَا مَاتَتْ حَتَّى دَهَبَ بَصَرُهَا، ثُمَّ بَيْنَا هِيَ تَمْشِي فِي أَرْضِهَا، إِذْ وَقَعَتْ فِي حُفْرَةٍ، فَمَاتَتْ). (3)

وفي رواية عنه بشأن أروى التي خاصمته في بعض دأره، قال: (فَرَأَيْتَهَا عَمِيَاءَ تَلْتَمِسُ الْجَدْرَ، تَقُولُ: أَصَابَتْنِي دَعْوَةُ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ، فَبَيْنَمَا هِيَ تَمْشِي فِي الدَّارِ، مَرَّتْ عَلَى يَثْرٍ فِي الدَّارِ، فَوَقَعَتْ فِيهَا، فَكَانَتْ قَبْرَهَا). (4)

1- الشعراء: 227.

2- إبراهيم: 42.

3- صحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها.

4- صحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها.

وجاهل من يعتقد أن انتقام الله من الظالم يقتصر على صورة دون غيرها من صور الظلم، فكما أن مغتصب أرض الآخرين ظالم، فإن مغتصب أعراض الناس، وحرقاتهم، وحقوقهم المعنوية والمادية والبدنية الأخرى، لا يقل في عدوانه وظلمه وجريمته عن مغتصب حقوقهم المادية، التي تمثلت في غصب أرض أو دار ظلماً وعدواناً، كما ورد في روايات وأحاديث نبوية صحيحة أخرى، على غرار نموذج الظلم المتضمنة صورته في نص الحديث المذكور آنفاً، فالظالمون ينتهون إلى مصير مقيت، ووبال عظيم، وخسران مبین، والعياذ بالله رب العالمين.

الاتعاض من مال الظالمين وعاقبة مصيرهم

إن الذي أعمى أروى بنت أويس، واستجاب لدعاء خصمها المظلوم سعيد بن زيد، لاغتصابها حقه في أرضه وداره، قادر سبحانه على أن يزلزل الأرض من تحت أقدام منتهكي حقوق خلقه المظلومين، ومصادري أراضيهم، ومضيقى الخناق عليهم بغير حق، بسبب ضعفهم وقلة حيلتهم، عن مواجهة آلات الفتك والبطش، التي ابتلي الظالم في تملكها، فعاث وزبانيته في الأرض الفساد، مغترين بجبروتهم، متناسين مال الظالمين، الذين ضرب الله فيهم الأمثال، وجعل سحقهم وخراب ديارهم آية لمن كانت لهم أعين يبصرون بها، وآذان يسمعون بها أخبار الغابرين، الذين أضحت ديارهم أثراً بعد عين، إثر نزول السخط بهم، والغضب الرباني عليهم، كما حصل للظالم فرعون وحزبه، الذين أغرقهم الله في اليم وهو مليم، بسبب ظلمهم وطغيانهم، ونجى الله خصمهم موسى، عليه السلام، والذين آمنوا معه، فقال تعالى: {كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَدَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ} (1)، وفرعون طغى في الأرض، وسعى في إخراج موسى من أرض مصر ظلماً وعدواناً، فعوقب بالغرق القاتل، مصداقاً لقوله تعالى: {فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَّعَهُ جَمِيعًا} (2).

1- الأنفال: 54.

2- الإسراء: 103.

ونجى الله نوحاً من مآل قومه وعذابهم، حين بلعهم الماء المنهمر، لظلمهم وطغيانهم، بعد أن استجاب نوح ومن معه من المؤمنين لأمر ربهم بصنع سفينة النجاة، حيث خاطب الله نوحاً قائلاً: **{وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ}** (1)، وسرد الله أخبارهم وأخبار غرقهم ليعتبر الظالمون وغيرهم، ويتعظوا، فالعذاب الأليم ينتظر الظالمين، في آخرتهم بعد دنياهم، فقال تعالى: **{وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَا لَهُمُ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا}**. (2)

فهذه بعض الإشارات القرآنية الدالة على هلاك الظالمين، ونهاياتهم الدالة على قدرة الله بالانتصار للمظلوم من الظالم، لكن أكثر الناس ينكرون، ولا يبصرون، ولا يتدبرون، منتظرين أن ينزل بهم ما حاق بأمثالهم وأسلافهم الذين ظلموا في الأرض، وأفسدوا ونغصوا، مرتقين أن تحل عليهم صاعقة، أو يهب عليهم عاصف من ريح، فيغرقهم بما ظلموا، ثم لا يجدون ملجأ يلوذون إليه، ولا نصيراً يحميهم من بطش الله، الذي طال الظالمين أصحاب القوة والجبروت، فكيف بالذين من دونهم؟ والله تعالى يقول: **{فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَنْصِيًّا مَثَلُ الْأَوَّلِينَ}** (3)، فبطش الله شديد، **{إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ}**. (4)

فليحذر الظالمون اليوم إذن من أن يرسل الله عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات، على صورة الريح التي أرسلها على قوم عاد وثمود، الذين أخبر الله عن مآلهم الأليم، وخزيهم الوخيم، فقال تعالى: **{فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ}** (5)، ووصف الله تلك الريح بأوصاف عدة ونعوت دالة على فظاعتها، فكانت صرصراً وعقيماً وعاتيةً، وفيها عذاب أليم، جاءتهم في أيام مشؤومات نكدات، فقال تعالى: **{إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمٍ}**

1- هود: 37.

2- الفرقان: 37.

3- الزخرف: 8.

4- البروج: 12.

5- فصلت: 16.

نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ⁽¹⁾، وقال سبحانه: {وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ⁽²⁾} وقال جل شأنه: {وَأَمَّا عَادُ فَاهْلَكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ⁽³⁾، وذكر الله العذاب الأليم الذي حملته للظالمين، فقال تعالى: {فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ⁽⁴⁾.

فمصير الظالمين مقفهر معبس، وحاشى لله أن يكون ذلك بظلم من الله، وإنما هو جراء ما اقترفوا من أعمال الظلم وجرائمه، مصداقاً لقوله تعالى: {فَكَلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ⁽⁵⁾.

فالخذر الخذر من بطش الله وغضبه، لأنه إذا غضب انتقم، وحينها ستضيق الأرض على الظالمين بما رحبت، وستخاصمهم السماء وجندها، وستقاتلهم الرياح والأمطار والصواعق، ولن تكون لهم نجاة ولا فرار من مواجهة الحقيقة المؤلمة، إذ يقول تعالى: {فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ⁽⁶⁾.

وينبه الله تعالى إلى أن الخطيئة هي السبب في تسليط بطش الله وعذابه على مرتكبيها، حيث يقول تعالى: {مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا⁽⁷⁾.

ومن غريب أمر الظالمين وعجيبه أنهم يتمادون في الغي والطغيان، والظلم والعدوان، غير متعظين بما حصل للظالمين في غابر الزمان، وكأنهم يظنون -مخطئين - أنهم في مأمن من أن تأتيهم عاصفة تزلزل أركانهم، أو زلزال يدمرهم وعماراتهم الشاهقة وحياتهم الباذخة،

1- القمر: 19.

2- الذاريات: 41.

3- الحاقة: 6.

4- الأحقاف: 24.

5- العنكبوت: 40.

6- الزخرف: 55.

7- نوح: 25.

أو ماء منهمر يغرقهم، أو ريح تعصف بديارهم، أو صيحة تتركهم صرعى، كما أخذت قوم شعيب وقوم صالح، فقال تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ} (1)، وقال سبحانه وتعالى: {فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ عَثَاءً فَلِئَلَّامُ لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} (2).

التحلل من المظلوم قبل الموت

ليس من سبيل أمام الظالم، إذا أراد التوبة النصوح إلى الله، والنجاة من مواجهة مصير الظالمين، إلا أن يتحلل من مظلوميه، فيردَّ إليهم حقوقهم التي سلبهم إياها، ويستسمحهم، قبل أن يأتي عليه يوم، يقتص الله لهم منه، فعن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (من كانت له مَظْلَمَةٌ لأحد من عَرَضِهِ أو شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ، أُخِذَ مِنْهُ بِقَدَرٍ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ، أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ، فَحُمِلَ عَلَيْهِ) (3). وعنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (لَتُؤَدَّنَ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنََاءِ). (4)

نصرة المظلوم وردع الظالم

على طريقة الإسلام ومنهجه، في بث الروح الإيجابية بين الخلق، وتحفيز عباد الله المكرمين على القيام بما أنيط بهم من واجبات، فإنه يدعو إلى وقفة إيجابية في مناهضة الظلم، فيحث المسلم على الانتصار للمظلوم، على درب الذين قضاوا نحبهم في هذا السبيل من السالفين الأخيار، ويدعو كذلك إلى العمل الجاد على ردع الظالم، حتى يعود إلى صوابه، ويرجع عن غيه وعدوانه، بغض النظر عن كونه من جلدتنا أو من جلود غيرنا، فعن أنس، رضي الله عنه، قال: (قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: انصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أو مَظْلُومًا،

1- هود: 94.

2- المؤمنون: 41.

3- صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب من كانت له مظلمة عند الرجل، فحللها له، هل يبين مظلمته؟

4- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم.

فقال رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَنْصِرْهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَمْ تَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا، كَيْفَ أَنْصِرُهُ؟ قَالَ: تَحْجِزُهُ، أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ، فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ⁽¹⁾. ومناهضة الظلم تتطلب في كثير من الأحيان تقديم تضحيات جسيمة، وثمناً باهظاً، فقد تبلغ استحقاقات فاتورتها حد التضحية بالمهيج والأرواح، أو تلقي القمع الظالم، والربط بقيد الأسر الجائر، من أجل المصابرة عليها، غير أن مما يواسي الذي يقوم بهذا الواجب أن ثوابه عظيم، وأجره كبير، فهي جنة عرضها السماوات والأرض، أعدت للقابضين على جمر الصبر في سبيل ربهم والاستقامة على دينه ونهجه، والانتصار لحقه على باطل الظالمين، بغض النظر عن جنسهم ولونهم ولغتهم ومكانتهم في هذه الغابرة، ويتمشى الانتصار للمظلوم مع النهي النبوي عن ظلم المسلم وخذلانه، إذ يقول رَسُولُنَا الْأَعْظَمُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ، كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ).⁽²⁾

فهل يفوق الساكتون من المسلمين عن الظالمين من غفلتهم، ويهبون لأداء واجبهم في مناهضة الظلم، فمن واجب المسلم نحو أخيه المسلم، أن لا يهنأ له عيش، ولا يهدأ له بال، حتى يسعى جهده، ويبذل وسعه، لرفع الظلم عن أخيه، فيلقى الله راضياً مرضياً، شاكحاً بإيمانه، ألباً في تطلعاته، مستقيماً في سيرته وسلوكه واعتقاده.

وصلى الله على رسولنا محمد الذي انتصر للمظلوم، وعلى آله وأصحابه الذين مضوا على نهجه ودربه، فكانوا خير الأهل والأسوة، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

1- صحيح البخاري، كتاب الإكراه، باب يمين الرجل لصاحبه إنه أخوه إذا خاف عليه القتل أو نحوه.

2- صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه.

الرسول الأُسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يحذر من آفة الخذلان

عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ، كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ).⁽¹⁾

ينبه الرسول، صلى الله عليه وسلم، في حديثه الشريف هذا إلى بعض واجبات المسلم نحو أخيه، التي منها الامتناع عن ظلمه وخذلانه، إضافة إلى لزوم بذل الجهد لقضاء حوائجه، واستخدام في هذه الرواية لفظ (يُسْلِمُهُ) للتعبير عن الخذلان، وفي رواية أخرى تم النص صراحة على لفظ الخذلان، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: (قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَا هُنَا، وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ؛ دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعَرَضُهُ)⁽²⁾، وفي هذه الرواية ينهى النبي، عليه الصلاة والسلام، المسلم عن ارتكاب بعض المحرمات السلوكية في علاقته مع أخيه المسلم، فهو لا يجسد، ولا يناجش، ولا يدابر، ولا يبيع على بيع غيره، وإذا كان خذلان المسلم لأخيه منكراً واجب الاجتناب بموجب هاتين الروايتين الصحيحتين، فإن ممارسة الخذلان الجماعي من قبل طوائف الأمة ومجموعاتها تجاه فئات مستضعفة أو مظلومة من فئات الأمة، يعتبر جريمة نكراء، لا يقل عنها غلظة ارتكاب

1- صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه.

2- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله.

جرمة خذلان الدين والمقدسات، فحين تتعرض حرمة الدين وشخصية خاتم النبيين محمد، صلى الله عليه وسلم، إلى تناول المسيئين، وحين تُستهدف مقدسات المسلمين ومساجدهم باعتداءات الحاقدين، وحين تحاك المؤامرات، وتحبك الخطط ضد وجود مسرى النبي، صلى الله عليه وسلم، والأمة تسمع وترى، وباتت تبخل أن تقدم مجرد شجب حقيقي يرعد فرائص المعتدين، بل صارت مجريات الأحداث تشير إلى تهاون فاضح نحو ما يجري من فظائع ضد المسجد الأقصى، ولا يلوح في آفاق الأمة سوى بيانات هزيلة مقتضبة، لا تسمن ولا تغني من ذب عن حرمة مقدساتها، مما ينذر بتفاقم الخطر العظيم القادم، الذي قد يتمخض عنه هدم المسجد الأقصى المبارك، وإقامة الهيكل المزعوم مكانه، أو على الأقل تقسيم المسجد الأقصى بين المسلمين والطامعين في السطو عليه، وفق أنموذج المسجد الإبراهيمي في مدينة خليل الرحمن، مما يعني أن انقلاباً في حقائق الواقع والتاريخ قادم لا محالة، ستكون آثاره داميةً، وجرحه عميقاً، ونزفه خطيراً، وسيدرك المسلمون في شتى أنحاء الدنيا حجم التقصير الذي باءوا بمصائبه؛ بسبب خذلانهم مسجدهم الأقصى أولى القبلتين، ومسرى نبيهم، صلى الله عليه وسلم، وثالث المسجدين التي تشد إليها رحال المسلمين تعبداً لله، عملاً بتوجيهات الرسول، صلى الله عليه وسلم، الذي قال: **(لا تُشَدُّ الرَّحْلُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَسْجِدِ الْأَقْصَى).** (1)

والله سبحانه وتعالى ربط المسجد الأقصى بعقيلة المسلم، من خلال ربطه بالكعبة المشرفة وبيت الله العتيق، محج المسلمين، وقبله صلاتهم، ومن خلال الإسراء بنبيه محمد، صلى الله عليه وسلم، إليه من المسجد الحرام في مكة المكرمة، فقال تعالى في فاتحة سورة الإسراء: **{سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِن آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}**. (2)

1- صحيح البخاري، أبواب التطوع، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة.

2- الإسراء: 1.

مبدأ النصرة الواجبة

التزام المسلم بمبدأ نصرة دينه، وإخوانه، ومقدساته، ليس أمراً تطوعياً يخضع لمعايير الأمزجة والأهواء، بل هو أمر لازم، أقره الرسول، صلى الله عليه وسلم؛ قائلاً: **(انصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ هَذَا نُنصِرُهُ مَظْلُومًا، فَكَيْفَ نُنصِرُهُ ظَالِمًا؟ قَالَ: تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ).**⁽¹⁾

فمن واجبات المسلم نحو أخيه أن يردعه عن الظلم والتبجح؛ انطلاقاً من مبدأ النصرة الواجبة من الأخ لأخيه، والتي من مقتضياتها لزوم القيام بتقديم العون الصادق والشجاع للأخ من قبل أخيه، حال تعرضه لظلم أو اعتداء من فرد أو أفراد أو جماعات، فنصرة المظلوم من الأمور الواضحة التي لا يلزمها دليل، والنصوص التي تتضمن الحث على القيام بها كثيرة، منها ما روي عن البراء بن عازب، رضي الله عنهما، قال: **(أمرنا النبي، صلى الله عليه وسلم، بسبع، ونهانا عن سبع؛ فذكر عيادة المريض، وأتباع الجنائز، وتشميت العاطس، ورد السلام، ونصر المظلوم، وإجابة الداعي، وإبرار المقسم).**⁽²⁾

والله أثنى على مسلمي المدينة المنورة لإيوائهم إخوانهم المهاجرين من مكة المكرمة، فسامهم الأنصار، فقال تعالى: **{وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}**⁽³⁾، جاء هذا الثناء بعد الشهادة للمهاجرين بالصدق، حيث قال تعالى: **{لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضواناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}**⁽⁴⁾، فالله شهد للمهاجرين بالصدق، وللأنصار بالفلاح، ورضي عن الفريقين،

1- صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب عن أخاك ظالماً أو مظلوماً.

2- صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب نصر المظلوم.

3- الحشر: 9.

4- الحشر: 8.

ووعدهم بجنت الخلد، والفوز العظيم، حيث قال تعالى: {وَالسَّائِقُونَ الْأَوْلُونَ مِنْ
الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ
جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}. (1)

ووثق الله تعالى عرى العلاقة بين المهاجرين والأنصار بالولاية التي مقتضياتها
معلومة لديهم، فقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ
يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ
النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (2)، فالأنصار أدوا
مهمة النصر لإخوانهم المهاجرين بصورة نادرة النظر، من خلال ولاية عقدها الله بينهم،
والقيام بمستلزمات هذه الولاية بما في ذلك تقديم النصر والعون من الأخ لأخيه،
يستجلب الرحمت الربانية، واللطائف الجليلة، فهل من معتبر؟

الانتصار للمستضعفين

في سياق بيان الشرع لوجوب نصره الأخ لأخيه، ولزوم نصره الدين، وتقريع
المتخاذلين عن أداء هذا الواجب العظيم، تأتي الآية القرآنية التي تنكر مثل هذا التقاعس،
وتعرض هذا الإنكار بأسلوب يثير النفوس، ويبرز خطورة الخذلان، فيقول تعالى: {وَمَا
لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ الَّذِينَ
يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا
مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا}. (3)

ونصرة المستضعفين تقتضي رفع الظلم والحصار الجائر عنهم، وذلك يكون من قبل
من يملكون أي حول أو قوة لذلك، مهما كان شكلها ولونها؛ سياسية كانت أم اقتصادية أم

1- التوبة: 100.

2- الأنفال: 72.

3- النساء: 75.

عسكرية أم غير ذلك، والتخلف عن ذلك يعني قلب ظهر المجن للواجب الشرعي، إضافة إلى الحرمان من خير دعاء المستضعفين، قال صلى الله عليه وسلم: **(هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضِعْفَاتِكُمْ)**⁽¹⁾، فإذا أرادت أمتنا أن تسلك درب النصر، لا بدَّ لها من أن تَهَبَّ لنجدة المستضعفين، ونيل بركات دعائهم.

الانتصار للمسجد الأقصى والمرابطين فيه

الانتصار للمسجد الأقصى والمرابطين فيه يندرج تحت مبدأ التعاون على البر والتقوى الذي أرسى دعائم وجوده الله تعالى، إذ قال سبحانه: **{...وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}**.⁽²⁾

وأكد الرسول، صلى الله عليه وسلم، في أحاديثه وسنته المطهرة معاني هذا الانتصار ولوازمه، فعن أبي موسى، عن النبي، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: **(إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ؛ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ)**⁽³⁾، وعن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، قال: **(قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ، تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحَمَى)**.⁽⁴⁾

وإذا كان المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص، ومثل المؤمنين تجاه بعض كمثل الجسد الواحد، فكيف يقبل منهم أن يهملوا أجزاء من أجسادهم، تنهشها الذئاب، وتفترسها الوحوش، وهم ينظرون، دون أن يحركوا ساكنًا؟! أما علموا أن النبي يصيب أطرافهم، سينتهي به الأمر إلى القضاء على وجودهم، ووقف نبضات قلوبهم؟! فالوحوش هي الوحوش، وطبعها في افتراس الصيد لا ينقطع، إلا إذا استعصى عليها بلوغ مراميها، حين تعجز مخالبتها عن النهش من جسد الصيد المستهدف، أو حين تجد لحمه مرأً غير مستساغ

1- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب.

2- المائدة: 2.

3- صحيح البخاري، أبواب المساجد، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره.

4- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم.

البلع أو الهضم، والمسلم حين يقوم بواجبه نحو أمته وإخوانه ودينه ومقدساته، يؤدي دوراً مهماً في إطار التحصن من الافتراس والحماية من النهش، ويندرج أداء هذا الدور ضمن مفهوم العبادة التي يؤجر فاعلها ويثاب، فعن سَعِيدُ بن أَبِي بُرَّةَ، عن أبيه، عن جَدِّهِ، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: **(على كل مسلمٍ صدقةٌ، فقالوا: يا نبيَّ الله! فمن لم يجد؟ قال: يعملُ بيده، فيَنفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ، قالوا: فإن لم يجد؟ قال: يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ، قالوا: فإن لم يجد؟ قال: فليعملَ بِالْمَعْرُوفِ، وَلِيَمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ، فَإِنَّهَا لَهُ صَدَقَةٌ).**(1)

موجب انتصار الله تعالى لعباده الصالحين

كما أن انتصار المؤمن للمؤمن واجب، فإن انتصار الله للمؤمنين حق موعود، فالله يدافع عن الذين آمنوا، وهو سبحانه وليهم ومولاهم، غير أن الله تعالى اشترط لنصرة عباده أن يبدؤوا من طرفهم بنصرة دينه، فقال تعالى: **{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ }**.(2)

فنصر الله حق، وهو مشروط بتحقيق الإقدام على طاعته، وأداء واجب الذب عن حياض الدين ومقدساته، فذلك من أبرز متطلبات نصر الله المطلوب من المؤمنين تجاه ربهم؛ حتى يحقق الله سبحانه وتعالى وعده لهم بالنصر الأكيد الذي تعهد به لهم، وحاشا لله أن يخلف الميعاد، وهو القائل سبحانه وتعالى: **{ ...وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ }**(3)، ونصر الله قريب، مصداقاً لقوله تعالى: **{ ...أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ }**(4)، وبشر الله المؤمنين بنصره العزيز وفتحه القريب، فقال تعالى: **{ وَأُخْرَى تُجِئُونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ }**(5)، وسبق أن شهدت مكة المكرمة الفتح الأعظم، الذي جاء بالحق، وزهق به الباطل، إن الباطل كان زهوقاً، وسيبقى زهوقاً بإذن الله وحوله وقوته، غير أن

1- صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب على كل مسلم صدقة فمن لم يجد فليعمل بالمعروف.

2- محمد: 7.

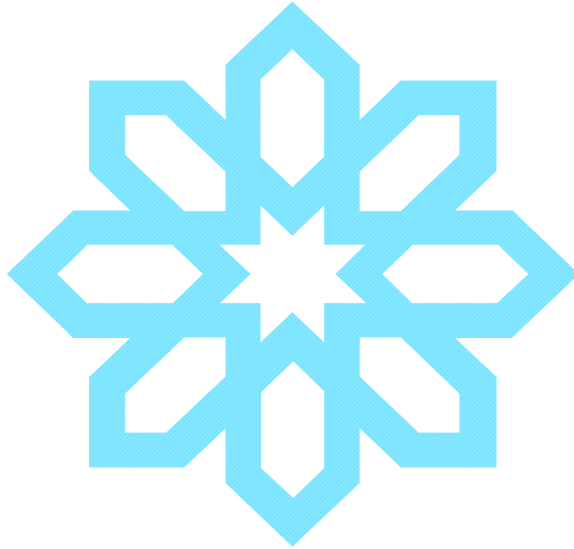
3- الزمر: 20.

4- البقرة: 214.

5- الصف: 13.

أكثر الناس لا يعلمون، ولا يفقهون أن ما حصل لمكة سيحصل للقدس، طال الزمان أم قصر، بإذن عزيز مقتدر، وهم يرونه بعيداً، ونحن بعين الإيمان المبصرة نراه قريباً، فالله أكبر من كل كبير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا الهادي محمد، وعلى آله الكرام، وأزواجه الطاهرات، وصحبه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان ووالاه إلى يوم الدين.



الرسول الأُسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يحنو على اليتيم

أثنى الرسول، صلى الله عليه وسلم، على نساء قريش، فوصفهن بأنهن: (أَحْنَاهُ)⁽¹⁾ **عَلَى يَتِيمٍ فِي صِغَرِهِ، وَأَرْعَاهُ عَلَى زَوْجٍ فِي ذَاتِ يَلِيهِ**⁽²⁾، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يذكر في هذا الحديث النبوي الصحيح أن نساء قريش تميزن بالرقعة على اليتيم، ومد جسور الحنان له، والعطف عليه، وحسن رعايتهن له، وورد في فتح الباري، أن الحانية على ولدها هي التي تقوم عليه في حال يتمه، فلا تتزوج، فإن تزوجت؛ فليست بجانية، وجاء الضمير في (أَحْنَاهُ) مذكراً، وكان القياس أحناهن، وكأنه ذكر باعتبار اللفظ والجنس، أو الشخص أو الإنسان، وقوله: (عَلَى يَتِيمٍ فِي صِغَرِهِ)، وفي روايات أخرى على طفل وعلى ولد، والتقييد باليتيم والصغير يحتمل أن يكون معتبراً من ذكر بعض أفراد العموم؛ لأن صفة الحنو على الولد ثابتة لها، لكن دُكرت حالتا اليتيم والصغير، لكونهما أظهر في ذلك، وفي الحديث فضل الحنو، والشفقة، وحسن التربية، والقيام على الأولاد.⁽³⁾

يرافق اليتيم

عن أنس بن مالك، رضي الله عنه: (أَنَّ جَدَّتَهُ مَلِيكَةَ دَعَتْ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِيَطْعَمَ صَنَعْتَهُ لَهُ، فَأَكَلَ مِنْهُ، ثُمَّ قَالَ: قُومُوا فَلَأُصِلَّ لَكُمْ، قَالَ أَنَسٌ: فَقُمْتُ إِلَى حَصِيرٍ لَنَا قَدْ اسْوَدَّ مِنْ طُولِ مَا لَيْسَ، فَضَحَّحْتُهُ بِمَاءٍ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَصَفَّفْتُ أَنَا وَالْيَتِيمَ وَرَأَاهُ، وَالْعَجُوزُ مِنْ وَرَائِنَا، فَصَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَصَفَّفْتُ ثُمَّ انْصَرَفَ)⁽⁴⁾، ويذكر ابن حجر العسقلاني، أن قوله: (وَصَفَّفْتُ

1- حنا الشيء حنواً وحنياً وحناه: عطفه.

2- صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل نساء قريش.

3- فتح الباري، 125/9-126.

4- صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب الصلاة على الحصور.

أنا وَالْيَتِيمِ)، وفي رواية فصففت واليتيم بغير تأكيد، والأول أفصح. ويجوز في اليتيم الرفع والنصب⁽¹⁾، واسم هذا اليتيم ضمير بن سعد الحميري، والعجوز هي أم أنس أم سليم، زوج أبي طلحة.⁽²⁾

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، صحب اليتيم، وعمل على دجه في عامة المسلمين وخاصتهم، وصلى إماماً به وبمن حضر منهم في بيت حاضنيه.

يبين فضل كفالة اليتيم

عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: (قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: كَافِلُ الْيَتِيمِ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ، أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ؛ وَأَشَارَ مَالِكٌ بِالسَّبَابَةِ وَالْوَسْطَى).⁽³⁾

ولا يخفى على ذي بصيرة أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، يبرز في هذا الحديث الشريف مكانة رعاية اليتيم، وفضل كفالته، ويعده بأن يكون رفيقه في الجنة، وفي شرح النووي على صحيح مسلم، أن كافل اليتيم هو القائم بأموره من نفقة، وكسوة، وتأديب، وتربية، وغير ذلك، وهذه الفضيلة تحصل لمن كفله من مال نفسه، أو من مال اليتيم بولاية شرعية.

وأما قوله: (لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ) فالذي له؛ أن يكون قريباً له، كجده، وأمه، وجدته، وأخيه، وأخته، وعمه، وخاله، وعمته، وخالته، وغيرهم من أقاربه، والذي لغيره؛ أن يكون أجنبياً⁽⁴⁾، وفي فتح الباري عن ابن بطال، قال: حق على من سمع هذا الحديث أن يعمل به؛ ليكون رفيق النبي، صلى الله عليه وسلم، في الجنة، ولا منزلة في الآخرة أفضل من ذلك.

وفيه إشارة إلى أن بين درجة النبي، صلى الله عليه وسلم، وكافل اليتيم قدر تفاوت ما بين السبابة والوسطى، ويكفي في إثبات قرب المنزلة من المنزلة أنه ليس بين الوسطى والسبابة إصبع أخرى. ويحتمل أن يكون المراد سرعة الدخول، وعلو المنزلة.

1- فتح الباري، 490/1.

2- صحيح مسلم بشرح النووي، 164/5.

3- صحيح مسلم، كتاب الزهد والرفائق، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم.

4- صحيح مسلم بشرح النووي، 113/18.

وقيل: إن الحكمة في كون كافل اليتيم يشبه في دخول الجنة - أو شبهت منزلته في الجنة - بالقرب من النبي، صلى الله عليه وسلم، أو منزلة النبي، صلى الله عليه وسلم، لكون النبي، صلى الله عليه وسلم، شأنه أن يبعث إلى قوم لا يعقلون أمر دينهم، فيكون كافلاً لهم، ومعلماً، ومرشداً، وكذلك كافل اليتيم يقوم بكفالة من لا يعقل أمر دينه، بل ولا دينه، ويرشده، ويعلمه، ويحسن أدبه، فظهرت مناسبة ذلك.⁽¹⁾

يوصي أم اليتامى برعايتهم

ورد في الحديث النبوي الشريف ما يعزز مبدأ رعاية اليتامى، ومن ذلك ما جاء عن حرص الرسول، صلى الله عليه وسلم، على إرسال المعونة لليتامى، ففي الحديث الصحيح أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، خرج في مَسِيرٍ مع بعض أصحابه، ويقول راوي الحديث، وأحد الذين كانوا في المسير مع الرسول، صلى الله عليه وسلم، الصحابي عمران بن حصين: (...ثُمَّ عَجَّلَنِي فِي رَكْبٍ بَيْنَ يَدَيْهِ نَطْلُبُ الْمَاءَ، وَقَدْ عَطِشْنَا عَطْشًا شَدِيدًا، فَبَيْنَمَا نَحْنُ نَسِيرُ؛ إِذَا نَحْنُ بِأَمْرَأَةٍ سَادِلَةٍ رَجَلَيْهَا بَيْنَ مَزَادَتَيْنِ، فَقُلْنَا لَهَا: أَيْنَ الْمَاءُ؟ قَالَتْ: أَيُّهَا؟ أَيُّهَا؟ لَا مَاءَ لَكُمْ، قُلْنَا: فَكَمْ بَيْنَ أَهْلِكَ وَبَيْنَ الْمَاءِ؟ قَالَتْ: مَسِيرَةٌ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، قُلْنَا: انْطَلِقِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتْ: وَمَا رَسُولُ اللَّهِ؟ فَلَمْ نُمَلِّكْهَا مِنْ أَمْرِهَا شَيْئًا حَتَّى انْطَلَقْنَا بِهَا، فَاسْتَقْبَلْنَا بِهَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلَهَا فَأَخْبَرْتُهُ مِثْلَ الَّذِي أَخْبَرْتَنَا، وَأَخْبَرْتُهُ أَنَّهَا مُوتِمَةٌ لَهَا صَبِيانٌ أَيْتَامٌ، فَأَمَرَ بِرَأْوَيْتِهَا، فَأُيْنِخَتْ، فَمَجَّ فِي الْعَزْلَاوَيْنِ الْعُلْيَاوَيْنِ، ثُمَّ بَعَثَ بِرَأْوَيْتِهَا، فَشَرَبْنَا وَنَحْنُ أَرْبَعُونَ رَجُلًا عِطَاشٌ حَتَّى رَوَيْنَا، وَمَلَأْنَا كُلَّ قَرْبَةٍ مَعَنَا، وَإِدَاوَةٍ، وَغَسَلْنَا صَاحِبِنَا، غَيْرَ أَنَّا لَمْ نَسْقِ بَعِيرًا، وَهِيَ تَكَادُ تَنْضَرِجُ مِنَ الْمَاءِ، يَعْنِي الْمَزَادَتَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: هَاتُوا مَا كَانَ عِنْدَكُمْ، فَجَمَعْنَا لَهَا مِنْ كِسْرٍ، وَتَمْرٍ، وَصَرَّ لَهَا صُرَّةً، فَقَالَ لَهَا: أَذْهَبِي، فَأَطْعِمِي هَذَا عِيَالِكَ، وَأَعْلَمِي أَنَا لَمْ نَرِزْ مِنْ مَائِكَ، فَلَمَّا أَتَتْ أَهْلَهَا؛ قَالَتْ: لَقَدْ لَقِيتُ أُسْحَرَ الْبَشَرِ، أَوْ إِنَّهُ لَنَبِيٌّ كَمَا زَعَمَ، كَانَ مِنْ أَمْرِهِ دَيْتٌ

وَدَّيْتَ، فَهَدَىٰ اللَّهُ ذَاكَ الصِّرْمَ بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ، فَاسْلَمَتْ وَأَسْلَمُوا⁽¹⁾، وفي شرح النووي على صحيح مسلم أن السادلة المرسلة المدنية، والمزادة معروفة وهي أكبر من القرية، والمزادتان حمل البعير، وسميت مزادة؛ لأنه يزداد فيها من جلد آخر من غيرها، وقوله: (فَقُلْنَا لَهَا: أَيْنَ الْمَاءُ؟) قالت: أَيَّهَا؟ أَيَّهَا؟ لا مَاءَ لَكُمْ) هكذا هو في الأصول، وهو بمعنى هيهات هيهات، ومعناه البعد من المطلوب، واليأس منه، كما قالت بعده: (لا مَاءَ لَكُمْ) أي: ليس لكم ماء حاضر، ولا قريب.

وأخبرته تلك المرأة أنها مومنة بضم الميم وكسر التاء؛ أي ذات أيتام. وقوله: (فَأَمَرَ بِرَأْوِيَّتِهَا، فَأُنِيخَتْ) والراوية عند العرب هي الجمل الذي يحمل الماء، وأهل العرف قد يستعملونه في المزادة استعارة، والأصل البعير. والمج في قوله: (فَمَجَّ فِي الْعُزْلَاوَيْنِ الْعُلْيَاوَيْنِ)، هو زرق الماء بالفم، والعزلاء بلد هو المشعب الأسفل للمزادة، الذي يفرغ منه الماء، ويطلق أيضاً على فمها الأعلى، وقوله: (وَوَسَّلْنَا صَاحِبِنَا)، يعني الصحابي الذي أجنب ولم يجد الماء، فتيّم، فأعطوه لما وجدوا الماء ما يغتسل به، وقوله: (وَهِيَ تَكَادُ تَنْصَرِجُ مِنَ الْمَاءِ): أي تنشق. وقوله صلى الله عليه وسلم: (لَمْ تَرُزَا مِنْ مَائِكِ) أي: لم ننقص من مائك شيئاً، وذلك من آيات النبوة، وقولها: (كَانَ مِنْ أَمْرِهِ دَيْتَ وَدَّيْتَ) قال أهل اللغة: هو بمعنى كيت وكيت، وكذا وكذا، وقوله: (فَهَدَىٰ اللَّهُ ذَاكَ الصِّرْمَ بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ، فَاسْلَمَتْ وَأَسْلَمُوا)، الصِّرْم بكسر الصاد أبيات مجتمعة⁽²⁾، والشاهد في هذا الحديث الشريف، أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، لما علم أن لتلك المرأة يتامى، أعطاهم معونة مما توافر لديه، فصر منها صرة أرسلها لهم، لتقوم بإطعامهم، مما يشير إلى فائق الرعاية، وحسن العناية التي يوليها الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، لليتامى؛ فهو يحفظ لهم حقوقهم، سواء أكانوا حاضرين أم غائبين، وبنه إلى فضل رعايتهم، وثواب كفالتهم، ويتعاضد هذا الحفظ مع الرعاية الربانية لليتامى، حيث حفظ الله لليتيمين كنزهما، حتى بلغا أشدهما، كما جاء

1- صحيح مسلم، كتاب المساجد، باب قضاء الصلاة الفاتنة واستحباب تعجيل قضائها.

2- صحيح مسلم بشرح النووي، 5/190-192.

في قصة موسى، عليه السلام، مع العبد الصالح الذي آتاه الله من لدنه علماً، فقال تعالى: {وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا} (1).

يبين فضل إنفاق الأم القادرة على يتامى في حجرها

ورد في الحديث الصحيح عن زَيْنَبَ - امرأة عبد الله - قالت: (قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: تَصَدَّقْنَ يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ، وَلَوْ مِنْ حُلِيِّكُنَّ، قَالَتْ: فَرَجَعْتُ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ، فَقُلْتُ: إِنَّكَ رَجُلٌ خَفِيفٌ ذَاتِ الْيَدِ، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ أَمَرَنَا بِالصَّدَقَةِ، فَأُتِيَهِ فَاسْأَلُهُ، فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ يَجْزِي عَنِّي، وَإِلَّا صَرَفْتُهَا إِلَى غَيْرِكُمْ، قَالَتْ: فَقَالَ لِي عَبْدُ اللَّهِ: بَلْ أَتَيْتِهِ أَنْتِ، قَالَتْ: فَأَنْطَلَقْتُ إِذَا امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يَبَابِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَاجَتِي حَاجَتُهَا، قَالَتْ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ أُلْقِيَتْ عَلَيْهِ الْمَهَابَةُ، قَالَتْ: فَخَرَجَ عَلَيْنَا يَلَالٌ، فَقُلْنَا لَهُ: ائْتِ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَخَبِّرْهُ أَنَّ امْرَأَتَيْنِ بِالْبَابِ تَسْأَلَانِكَ أَنْتَجِزِي الصَّدَقَةَ عَنْهُمَا عَلَى أَرْوَاحِهِمَا، وَعَلَى أَيْتَامٍ فِي حُجُورِهِمَا؟ وَلَا تُخَبِّرْهُ مِنْ نَحْنُ، قَالَتْ: فَدَخَلَ يَلَالٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ هُمَا؟ فَقَالَ: امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ وَزَيْنَبُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ الزَّيْنَبِ؟ قَالَ: امْرَأَةُ عَبْدِ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَهُمَا أَجْرَانُ؛ أَجْرُ الْقَرَابَةِ، وَأَجْرُ الصَّدَقَةِ) (2)، وفي فتح الباري، أن للنسائي من طريق علقمة لإحداهما فضل مال، وفي حجرها بنو أخ لها أيتام، وللأخرى فضل مال، وزوج خفيف ذات اليد، وهذا القول كناية عن الفقر.

1- الكهف: 82.

2- صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج والأولاد والوالدين ولو كانوا مشركين.

قوله: (لَهُمَا أَجْرَانِ؛ أَجْرُ الْقَرَابَةِ، وَأَجْرُ الصَّدَقَةِ)، أي: أجر صلة الرحم، وأجر منفعة الصدقة، وهذا ظاهره أنها لم تشافهه بالسؤال، ولا شافهها بالجواب.⁽¹⁾

حث القرآن الكريم على رعاية اليتامى

حين تكون لليتيم حاجة، ولزوم حفظ ورعايته، فإن الإسلام الحنيف يتصدى لتحقيق مصالح اليتيم، فيعمل على توفير حاجاته، ويحث على رعايته، ويحفظ على القيام بها، والله تعالى تفضل على رسوله، صلى الله عليه وسلم، بأن يسر له سبل الإيواء حين كان يتيمًا، فقال تعالى: {أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى} ⁽²⁾، وأوصى سبحانه وتعالى باليتامى، وحث على رعايتهم، وحفظ حقوقهم، كما جاء في كثير من آيات القرآن الكريم، وبخاصة في ثانيا سورة النساء، فقال تعالى: {وَأَتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا} ⁽³⁾، وأثنى الله على من يرعى اليتيم، فقال تعالى: {وَيُطْعَمُونََ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا} ⁽⁴⁾، ونهى الله عن أكل أموال اليتيم ظلماً، فقال تعالى: {وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَرِعْهُدِ اللَّهُ أَوْفُوا ذِكْرَكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} ⁽⁵⁾، وحث الله من التعدي على أموال اليتامى وحقوقهم، فقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا} ⁽⁶⁾، ونهى الله عن قهر اليتيم واضطهاده وإيذائه، وسلبه حقوقه ظلماً وعدواناً، فقال تعالى: {فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ} ⁽⁷⁾.

1- فتح الباري، 3/329.

2- الضحى: 6.

3- النساء: 2.

4- الإنسان: 8.

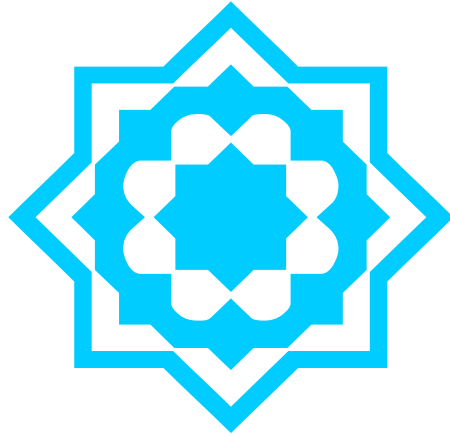
5- الأنعام: 152.

6- النساء: 10.

7- الضحى: 9.

وجاء تأنيب مؤذي اليتيم في أكثر من صيغة قرآنية، وفي عدد من آيات الذكر الحكيم، فقال تعالى: **{كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ}**⁽¹⁾، وقال سبحانه: **{فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ}**⁽²⁾، وبهذا يظهر كيف تتضافر السنة النبوية مع الهدي القرآني في الإشادة برعاية اليتامى، والحنو عليهم، والتحذير من مسهم بأي سوء، أو اعتداء.

جعلنا الله ممن يحنون على اليتيم، لننال بذلك جزيل الثواب، وخير المنازل عند الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه بإحسان إلى يوم الدين.



1- الفجر: 17.

2- الماعون: 2.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يشيد بثبات المبتلى وصبره ويبلسه جراحه

عن خَبَابِ بْنِ الْأَرْتِّ، قَالَ: (شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ فِيْمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيَجْعَلُ فِيهِ، فَيَجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيَشَقُّ بِأَنْتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمَشِّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهُ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّأِيبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، أَوْ الذُّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ).⁽¹⁾

ينفخ هذا الحديث النبوي الشريف بدلالات تبلسم جراح أبناء شعبنا المرابط على أرض الإسراء والمعراج وأكنافها، القابعين تحت حراب الاحتلال الغاشم، الذي طالت أيامه، وعانى من ويلات كبر هذا الشعب وصغاره، شبيه وشبابه، رجاله ونسأؤه، وتصدّر سلم المعاناة الأسرى الذين اختطفوا من الأسر العام إلى أسر خاص، مُنعوا فيه من الهواء والماء، وحُرِّموا احتضان أطفالهم، ومجالسة آبائهم وأمهاتهم، وحُجِبَ عنهم الدواء، وفُتِحَتْ لهم آفاق الداء، غير أنهم بقوا على العهد، فصبروا وثبتوا، وخاضوا مؤخرًا معركة سيذكرها التاريخ في سجلات عزه، حيث واجهوا بطش السجان وجبروته وحرابه، وإلكترونياته، بسلاح غلب كل ذلك، ذلكم السلاح الفتك؛ أتدرون ما هو؟ إنه أعاؤهم الخاوية، وليست المتخمة!! وكان لسلاح أصحاب الإرادة المؤمنة والعزيمة الفذة هذا ما كان، مستلهمين ممن حفرت لهم الحفر، وقُطِّعوا بالمناشير، ومُشِّطوا بأمشاط الحديد ما دون لحمهم، وما صدهم ذلك عن حقهم ومبادئهم، فكانت الغلبة كما هي دائماً لصاحب الحق والإرادة الصلبة، الذي يستسيغ الصبر على ألم الأذى، عن استساغة الرضا بالهوان والذنية، فعانوا لتحيا بلادهم، وتحفظ كرامتهم

1- صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام.

وكرامة قومهم، وتصان مقدساتهم، غير آبهين بالمهرولين إلى الهوان، ممن يستعجلون الخلاص بأرخص الأثمان وأجسها، فلهم التحية والتهنئة والعزة والاحترام.

صبر محمد وموسى عليهما الصلاة والسلام

إنَّ في تاريخ إسلامنا العظيم، ونصوصه الشرعية، ما يشير إلى العناية الفائقة التي يوليها هذا الدين الحنيف لمدرسة إلهام الصابرين، وتثبيت عزائم المرابطين، فللواقف الباسلة كثيرة، والآيات الكريمة التي تحث على الصبر والثبات على الحق كثيرة أيضاً، ومثلها الأحاديث النبوية الشريفة، حتى إنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، حين تعرض لنوع من أذى الجاهلين، ذَكَرَ صبر أخيه موسى، عليه السلام، على ما لقي من شديد الأذى، فعن عبد الله، رضي الله عنه، قال: (قَسَمَ النبي، صلى الله عليه وسلم، قَسَمًا، فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ هَذِهِ لَقِسْمَةٌ مَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ، فَأَتَيْتُ النبي، صلى الله عليه وسلم، فَأَخْبَرْتُهُ، فَغَضِبَ حَتَّى رَأَيْتَ الْعُضْبَ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى، قَدْ أُذِيَ بِأَكْثَرٍ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ).⁽¹⁾

صبر أولي العزم

الصبر على قسوة الأذى، وشدة الابتلاء، من شيم الرسل والمؤمنين الأتقياء، الذين يستجيبون لأمر ربهم عز وجل، إذ أمرهم به، فقال سبحانه: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أَوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوْعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ}.⁽²⁾

فإنَّه يأمر رسوله، صلى الله عليه وسلم، بالصبر على أذى قومه، على درب أولي العزم من الرسل، الذين ثبتوا وصبروا على الشدائد، وهذا الأمر يلحق بالمؤمنين في كل زمان، الذين يضطهدهم الأشرار، لثنيهم عن حمل الحق والثبات عليه، فلهم في صبر أولي العزم عبرة وقدوة، ولهم في امتثال نبيهم الأسوة، صلى الله عليه وسلم، لأمر الصبر، والثبات على الحق والمبدأ، نبراس يستضيئون بنوره في ظلام القسوة، ودلس الحن، حين يتعرضون للابتلاء بها، ويتجرعون مرارتها، ويصابون بجراحها.

1- صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى، عليهما السلام.

2- الأحقاف: 35.

فالصبر سلاح؛ لا بد منه لأصحاب العقائد في مواجهة أصحاب الرزايا والضلال، ولا غنى عنه في مواجهة قوم الباطل وأعوان الشيطان، في كل زمان ومكان، وهو لا يحتاج إلى ترخيص ولا استيراد، وإنما يحتاج إلى مكونات نفسية، ودرية شخصية، وإيمان قوي، وشجاعة ذاتية.

الصبر الجميل

الصبر المنشود هو الصبر الجميل الذي لا جزع فيه، حيث أمر الله به عباده الذين اصطفى، فقال تعالى: {فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا} (1)، والصبر الجميل لا يشوبه استعجال، واضطراب قلب. (2)

ويذكر القرطبي، أن الله سبحانه خاطب رسوله، صلى الله عليه وسلم، وهو الأسوة للمؤمنين، فأمره بالصبر الجميل على أذى قومه، والصبر الجميل هو الذي لا جزع فيه، ولا شكوى لغير الله، وقيل: هو أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يدرى من هو، والمعنى متقارب (3). وقد أورد القرآن الكريم على لسان يعقوب، عليه السلام، لما جاءه أبناؤه بدم كذب على أنه دم ابنه يوسف، فقال تعالى: {وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ}. (4)

وتكرر ذكر يعقوب، عليه السلام، للصبر الجميل في مواقف أخرى، فذكره لما أخبره أبناؤه بالحتجاز ولده الثاني في سجن عزيز مصر، ولم يكونوا يعلمون أنه أخوهم يوسف، فقال تعالى: {قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِرْ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}. (5)

1- المعارج: 5.

2- تفسير البيضاوي، 387/5.

3- تفسير القرطبي، 284/18.

4- يوسف: 18.

5- يوسف: 83.

وقد رددت أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، هذا القول اللطيف المعبر، حين اتهمت بالإفك، ففي الحديث الصحيح عنها، حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فبرأها الله، قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (إِنْ كُنْتَ بَرِيئَةً فَسَيِّرُكَ اللهُ، وَإِنْ كُنْتَ أَلَمَّتْ بِدَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللهُ، وَتُوبِي إِلَيْهِ، قُلْتُ: إِنِّي وَاللَّهِ لَا أُجِدُّ مَثَلًا إِلَّا أَبَا يُوسُفَ، {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} وَأَنْزَلَ اللهُ: {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ { الْعَشْرَ الْآيَاتِ}).(1)

دعاء الصابر على مؤذيه

إن مما يعاضد سلاح الصبر المنطلق من الإيمان، الدعاء المنبعث من اليقين بقدره العزيز الجبار، الذي يؤتي الملك من يشاء، وينزعه ممن يشاء، وهو على كل شيء قدير، ومن أحداث السيرة الدالة على حسن استخدام هذه الأسلحة الفاعلة في مواجهة شر الباطل، وأذى أهله، ما جاء عن عبد الله بن مسعود، (أَنَّ النَّبِيَّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانَ يُصَلِّي عِنْدَ الْبَيْتِ، وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابُ لَهُ جُلُوسٌ، إِذْ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَيُّكُمْ يَجِيءُ بِسَلَى جَزُورٍ⁽²⁾ بِنِي فُلَانٍ، فَيَضَعُهُ عَلَى ظَهْرِ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ؟ فَانْبَعَثَ أَشَقَى الْقَوْمِ، فَجَاءَ بِهِ، فَنَظَرَ حَتَّى سَجَدَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَضَعَهُ عَلَى ظَهْرِهِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، وَأَنَا أَنْظُرُ لَا أُغَيِّرُ شَيْئًا لَوْ كَانَ لِي مَنَعَةٌ، قَالَ: فَجَعَلُوا يَضْحَكُونَ، وَيَحِيلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَرَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سَاجِدًا لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ، حَتَّى جَاءَتْهُ فَاطِمَةُ، فَطَرَحَتْ عَنْ ظَهْرِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ عَلَيكَ يَقْرِيشُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَشَقَّ عَلَيْهِمْ إِذْ دَعَا عَلَيْهِمْ، قَالَ: وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ الدَّعْوَةَ فِي ذَلِكَ الْبَلَدِ مُسْتَجَابَةٌ، ثُمَّ سَمَى؛ اللَّهُمَّ عَلَيكَ يَا بِي جَهْلٍ، وَعَلَيْكَ بِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلْفٍ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، وَعَدَّ السَّابِعَ، فَلَمْ يَحْفَظْهُ، قَالَ: فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ لَقَدْ رَأَيْتِ الَّذِينَ عَدَّ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، صَرَعَى فِي الْقَلْبِ، قَلْبِ بَدْرٍ).⁽³⁾

1- صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: {بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل}.

2- المقصود ب السلى هي اللغافة التي يكون فيها الولد في بطن الناقة. والجزور الواحد من الإبل ذكراً كان أم أنثى.

3- صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب إذا ألقى على ظهر المصلي قدر أو جيفة لم تفسد عليه صلاته.

وكان الرسول، صلى الله عليه وسلم، يأخذ بأسباب النصر، فيعدُّ العدة، ويلتزم بالتقوى، ويحث عليها، ويتأهب للمواجهة بالصبر، ويلجأ إلى الدعاء المخلص، فعن عبد الله بن أبي أوفى، رضي الله عنهما، يقول: (دَعَا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَوْمَ الْأَحْزَابِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، سَرِيعَ الْحِسَابِ، اللَّهُمَّ اهْزِمِ الْأَحْزَابَ، اللَّهُمَّ اهْزِمِهِمْ وَزَلِّزْلِهِمْ).⁽¹⁾

وحظي أسرى المسلمين بنصيب من دعائه، فعن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: (كان النبي، صلى الله عليه وسلم، يَدْعُو فِي الْقُنُوتِ، اللَّهُمَّ أَنْجِ سَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ ابْنَ الْوَلِيدِ، اللَّهُمَّ أَنْجِ عِيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطَأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، اللَّهُمَّ سِنِينَ كَسْنِي يَوْسُفَ).⁽²⁾

والمقصود بـ (اشدُّدْ وَطَأَتَكَ): عقوبتك، و(مُضَرَ) علم على قريش، (سِنِينَ): جمع سنة، وهي القحط والغلاء، كسني يوسف بن يعقوب، عليه السلام، من حيث القحط وقلة الأمطار، والمراد السنون المذكورة بقوله تعالى: {ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ}.⁽³⁾

ألهمنا الله الصبر والسلوان، وأسبغ علينا الثبات على الحق والإيمان، وأنعم علينا بقوة الإرادة نحن وأسرانا وشعبنا المرابط على ثرى هذا الوطن المكلم، حتى يتحقق لنا النصر الموعود، ويُطلق سراح أسرانا من غياهب السجون، وصلى الله وسلم وبارك على محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه وأزواجه، ومن تبعه ووالاه بإحسان إلى يوم الدين.

1- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة.

2- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة.

3- يوسف: 48.

الرسول الأُسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يؤكد على حرمة دماء الأبرياء

عن ابن عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: (أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ ثَلَاثَةً؛ مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سِنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَلَّبٌ دَمِ امْرِئٍ بغيرِ حَقٍّ لِيَهْرِيْقَ دَمَهُ). (1)

حرص الرسول، صلى الله عليه وسلم، على بناء مجتمع مسلم قوي بإيمانه وقيمه وبمكوناته البشرية، ولتحقيق هذه الغاية عمل عليه الصلاة والسلام على توطيد بنيان هذا المجتمع، بتعزيز عناصر بنائه، وإطفاء كل ما من شأنه زعزعة استقراره، وعلى هذا النهج؛ جاء تحذيره الشديد صلى الله عليه وسلم، في حديثه الشريف هذا من الاعتداء على دماء الأبرياء، وفي عمدة القاري، أن قوله "وَمُطَلَّبٌ" بضم الميم وتشديد الطاء وكسر اللام، وأصله متطلب لأنه من باب الافتعال، فأبدلت التاء طاء، وأدغمت الطاء في الطاء، ومعناه متكلف للطلب. وقوله "بغير حق" احترازاً عما يفعل ذلك بحق كالقصاص. (2)

فاستباحة القتل والاستهانة في إراقة الدماء البريئة دون وجه حق، من الجرائم العظيمة التي تستجلب سخط الله ولعنته وغضبه وبغضه سبحانه. ويؤكد الرسول، صلى الله عليه وسلم، في هذا الحديث الشريف النهي الرباني الوارد في القرآن الكريم الذي جاء صريحاً بشأن الإسراف في القتل، فقال تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً}. (3)

1- صحيح البخاري، كتاب الديات، باب من طلب دم امرئ بغير حق.

2- عمدة القاري، 44/24.

3- الإسراء: 33.

فالنفس البريئة لها حصانة عامة وثابتة في الإسلام، تصونها من عبث أهل الطيش والبطش على حد سواء، ومن عبث أي عابث بسلامتها وأمنها، حتى إن من كان له حق دم عند آخرين، فلا بد له من التقيد بضوابط الشرع الحنيف الخاصة بالقصاص، فلا يقتل إلا القاتل نفسه، ويكون القصاص بأمر من أعلى سلطة شرعية مسؤولة، التي بدورها تلتزم باتخاذ الإجراءات المطلوبة لذلك، بخصوص التثبت من حيثيات الجريمة، ودواعيها وملابساتها وثبوتها، وبعد أن تثبت الإدانة على مقترفها، فإن أولياء المقتول يخبرون بين القود والدية، عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم، الذي منح من قُتِلَ له قَتِيلٌ خَيْرَ النَّظَرَيْنِ، فعن أبي هريرة، (أَنَّ خُزَاعَةَ قَتَلُوا رَجُلًا مِنْ بَنِي لَيْثٍ عَامَ فَتْحِ مَكَّةَ بِقَتِيلٍ مِنْهُمْ قَتَلُوهُ، فَأُخْبِرَ بِذَلِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَرَكِبَ رَاحِلَتَهُ، فَخَطَبَ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ حَبَسَ عَن مَكَّةَ الْقَتْلَ أَوْ الْفِيلَ، شَكَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ، وَسَلَطَ عَلَيْهِمْ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالْمُؤْمِنِينَ، أَلَا وَإِنَّهَا لَمْ تَجِلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ تَجِلْ لِأَحَدٍ بَعْدِي، أَلَا وَإِنَّهَا حَلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، أَلَا وَإِنَّهَا سَاعَتِي هَذِهِ حَرَامٌ، لَا يُخْتَلَى شَوْكُهَا، وَلَا يُعْضَدُ شَجَرُهَا، وَلَا تُلْتَقَطُ سَاقِطَتُهَا إِلَّا لِمُنْشِدٍ، فَمَنْ قُتِلَ فَهُوَ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ، إِمَّا أَنْ يُعْقَلَ، وَإِمَّا أَنْ يُقَادَ أَهْلُ الْقَتِيلِ...)(1).

القصاص من القاتل

موقف الإسلام واضح وصارم تجاه جريمة قتل النفس البريئة عمداً، فشرع الله عز وجل في قرآنه الكريم القصاص من القاتل عمداً، وشجّع على القبول بهذا العقاب وتنفيذه، تحقيقاً لأمن الناس وسلامتهم على أرواحهم، بما يحقق الأمن المجتمعي والسلامة لأرواح الأبرياء، فوصف الله سبحانه القصاص بالحياة، في قوله تعالى: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} (2)، وفي القصاص يتحقق مفاد القول: إن القتل أنفى للقتل، إذ إن القصاص من الجاني وحده يقلل من استشراء القتل، دون أن

1- صحيح البخاري، كتاب العلم، باب كتابة العلم.

2- البقرة: 179.

يُقتل غير القاتل من أقاربه مجريرته على طريقة الثأر، والله تعالى أمر المؤمنين بالقصاص، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (1).

والآية تبين أن القتل إن حصل من غير عمد، بل وقع خطأ، فالمخرج منه يكون بدفع الدية لأولياء المقتول، ضمن الحدود والمقادير التي حددها الشرع الحنيف، فعن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: (كانت في بني إسرائيل قِصاصٌ، ولم تكن فيهم الدية، فقال الله لَهُنَّ الْأُمَّةُ: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى} إلى هذه الآية، {فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ}، قال ابن عباس: فَالْعَفْوُ أَنْ يَقْبَلَ الدِّيَةَ فِي الْعَمْدِ، قال: {فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ} أَنْ يَطْلُبَ بِمَعْرُوفٍ، وَيُؤَدِّيَ بِإِحْسَانٍ} (2).

من حمل علينا السلاح فليس منا

يستهيئ بعض الناس في ارتكاب جرائم ترويع الأمنين، ويتهاونون في تصويب السلاح نحوهم، بل يرتكبون جرائم القتل ضدّهم، دون رادع من دين ولا خوف من رب العالمين، ولا من الناس أجمعين، وهم بهذا يتجاوزون خط الحظر الشرعي، ويعرضون أنفسهم للنبد المجتمعي، ويقفون في صف أعداء الله ورسوله والمؤمنين، فعن نافع عن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السَّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا) (3).

وقد حذر الرسول، صلى الله عليه وسلم، في كثير من أحاديثه الشريفة من اقتراف جرائم القتل، فعن الأحنف بن قيس قال: (دَهَبْتُ لِأَنْصُرَ هَذَا الرَّجُلَ، فَلَقَيْتَنِي أَبُو بَكْرَةَ فَقَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قُلْتُ: أَنْصُرُ هَذَا الرَّجُلَ، قَالَ: ارْجِعْ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ

1- البقرة: 178.

2- صحيح البخاري، كتاب الديات، باب من قتل له قتيل فهو بخير النظرين.

3- صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: (من حمل علينا السلاح فليس منا).

عليه وسلم، يقول: إذا التقى المسلمان سيفيهما، فالقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ في النار، قلت: يا رَسُولَ اللَّهِ؛ هذا القَاتِلُ، فما بالُ المَقْتُولِ؟ قال: إنه كان حَرِيصًا على قَتْلِ صَاحِبِهِ. (1)

الوصف القرآني لإثم قاتل النفس البريئة

في إطار التحذيرات الربانية الشديدة من اقرار جرائم القتل، فإن الله تعالى بيّن في قرآنه الكريم أن الإقدام على اقرار جريمة القتل يكلف القاتل وزراً عظيماً، بدليل أن الله تعالى اعتبره كمن قتل الناس جميعاً، فقال تعالى: {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا يَغْيِرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ}. (2)

وفي صحيح البخاري، باب قولِ اللَّهِ تَعَالَى: {وَمَنْ أَحْيَاهَا} قال ابن عَبَّاسٍ: (من حَرَّمَ قَتْلَهَا إِلَّا بِحَقٍّ، فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا). (3)

وعن عبد الله، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (لا تُقْتَلُ نَفْسٌ إِلَّا كان على ابن آدمِ الأوَّلِ كِفْلٌ منها). (4)

قتل النفس من كبائر الذنوب

وتماشياً مع هذا البيان القرآني، فإن الرسول، صلى الله عليه وسلم، اعتبر جريمة القتل من أبرز كبائر الآثام والذنوب، فعن عبد الله بن عمرو، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (الْكَبَائِرُ: الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعَعْقُوقُ الوَالِدَيْنِ، أَوْ قَال: الأَيْمِينُ الغُمُوسُ، شَكَّ شَعْبَةً، وَقَالَ مُعَاذُ: حَدَّثَنَا شَعْبَةُ قَالَ: الكَبَائِرُ: الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَالأَيْمِينُ الغُمُوسُ، وَعَعْقُوقُ الوَالِدَيْنِ، أَوْ قَالَ: وَقَتْلُ النَّفْسِ). (5)

1- صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب { وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما } فسماهم المؤمنين.

2- المائدة: 32.

3- صحيح البخاري، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: { ومن أحياها }.

4- صحيح البخاري، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: { ومن أحياها }.

5- صحيح البخاري، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: { ومن أحياها }.

ويشدد الرسول، صلى الله عليه وسلم، على ضرورة التحري والتثبت قبل تنفيذ القتل بالمشتهه باستحقاقه، وإلا فالعاقبة وخيمة، فحدث أسامة بن زيد بن حارثة، رضي الله عنهما، فقال: (بَعَثَنَا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى الْحَرْقَةِ مِنْ جُهَيْنَةَ، قَالَ: فَصَبَّحْنَا الْقَوْمَ فَهَزَمْنَاهُمْ، قَالَ: وَلَحِقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ رَجُلًا مِنْهُمْ، قَالَ: فَلَمَّا غَشِينَاهُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ: فَكَفَّ عَنْهُ الْأَنْصَارِيُّ، فَطَعَنْتُهُ بِرُمْحِي حَتَّى قَتَلْتُهُ، قَالَ: فَلَمَّا قَدِمْنَا بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: فَقَالَ لِي: يَا أُسَامَةُ أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنَّمَا كَانَ مَتَعُودًا، قَالَ: أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ: فَمَا زَالَ يُكْرِرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَيَّتُ أَتَيْتُ لَمْ أَكُنْ أَسَلَّمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ).⁽¹⁾

وعن أنس بن مالك، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَعَقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَوْلُ الزُّورِ، أَوْ قَالَ: وَشَهَادَةُ الزُّورِ).⁽²⁾

وجعل الرسول، صلى الله عليه وسلم، الامتناع عن قتل النفس البريئة أحد بنود بيعة العقبة التي عقدها مع وفد الأوس والخزرج، فعن عبادة بن الصامت، رضي الله عنه، قال: (إِنِّي مِنَ الثُّقَبَاءِ الَّذِينَ بَايَعُوا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَايَعْنَاهُ عَلَى أَنْ لَا نُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا نَسْرِقَ، وَلَا نَزْنِي، وَلَا نَقْتُلَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ، وَلَا نَنْتَهَبَ، وَلَا نَعْصِي بِالْجَنَّةِ، إِنْ فَعَلْنَا ذَلِكَ، فَإِنَّ غَشِينَا مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا كَانَ قَضَاءً ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ).⁽³⁾

كُفَّارٌ يَضْرِبُ بَعْضُهُمْ رِقَابَ بَعْضٍ

ومن المنفرات التي ساقها النبي، صلى الله عليه وسلم، للمسلمين من القتل، تحذيرهم من أن يرجعوا كفاراً بعده، باقتراف القتل بعضهم بعضاً، فعن جرير قال: (قَالَ لِي النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ اسْتَنْصَيْتُ النَّاسَ، لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ).⁽⁴⁾

- 1- صحيح البخاري، كتاب الدييات، باب قول الله تعالى: {ومن أحيها}.
- 2- صحيح البخاري، كتاب الدييات، باب قول الله تعالى: {ومن أحيها}.
- 3- صحيح البخاري، كتاب الدييات، باب قول الله تعالى: {ومن أحيها}.
- 4- صحيح البخاري، كتاب الدييات، باب قول الله تعالى: {ومن أحيها}.

شيوخ القتل وكثرته من علامات الساعة

يلاحظ من يعيش في هذا الزمان، شيوخ القتل بصورة عجيبة في كثير من بقاع الدنيا، وبخاصة في بعض بقاعنا المسلمة، ويبدو أن هذا الشيوخ يتماشى مع إخباره صلى الله عليه وسلم عن كثرة الهرج في آخر الزمان، فعن أبي هريرة، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: **(لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ الْهَرْجُ، قَالُوا: وَمَا الْهَرْجُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الْقَتْلُ الْقَتْلُ).** (1)

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: **(وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَذُوبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَأْتِيَ عَلَى النَّاسِ يَوْمٌ لَا يَدْرِي الْقَاتِلُ فِيْمَ قَتَلَ، وَلَا الْمَقْتُولُ فِيْمَ قُتِلَ، فَقِيلَ: كَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ، قَالَ: الْهَرْجُ الْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ)** (2)، سائلين الله العلي القدير أن يهدي أبناء أمتنا لثلا يقعوا في أوحال القتل وجرائمه البشعة.

مواقف نبيلة لابن عمر من القتل

كان للصحابه، رضوان الله عليهم، مواقف وأقوال واضحة من اقرار القتل، فالصحابي الجليل ابن الجليل عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، كانت له مواقف مشهودة بهذا الصدد، فعن نافع عن ابن عمر، رضي الله عنهما، أَنَّهُ رَجُلَانِ فِي فِتْنَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ، فَقَالَا: **(إِنَّ النَّاسَ ضِعُوعَا، وَأَنْتَ ابْنُ عُمَرَ وَصَاحِبُ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَخْرُجَ؟! فَقَالَ: يَمْنَعُنِي أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ دَمَ أَخِي، فَقَالَا: أَلَمْ يَقُلْ اللَّهُ: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ} فَقَالَ: قَاتَلْنَا حَتَّى لَمْ تَكُنْ فِتْنَةً، وَكَانَ الدِّينُ لِلَّهِ، وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُقَاتِلُوا حَتَّى تَكُونَ فِتْنَةً، وَيَكُونَ الدِّينُ لِغَيْرِ اللَّهِ).** (3)

عن ابن أبي نُعْمٍ قَالَ: **(كُنْتُ شَاهِدًا لابْنِ عُمَرَ، وَسَأَلَهُ رَجُلٌ عَنِ دَمِ الْبُعُوضِ، فَقَالَ: مِمَّنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ، قَالَ: انظُرُوا إِلَى هَذَا يَسْأَلُنِي عَنِ دَمِ الْبُعُوضِ،**

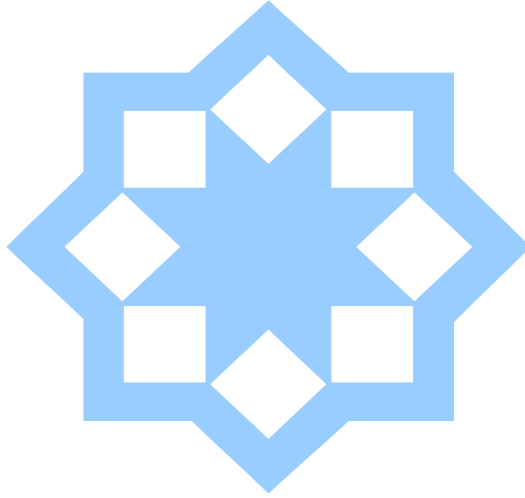
1- صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب إذا تواجه المسلمان بسييفيهما.

2- صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيمتني أن يكون مكان الميت من البلاء.

3- صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة...}.

وقد قَتَلُوا ابن النبي، صلى الله عليه وسلم، وَسَمِعْتُ النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول:
هُمَا رِيحَانَتَايَ مِنَ الدُّنْيَا). (1)

جنبنا الله آثام القتل وتداعياته، وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا الأكرم
وأسوتنا في الخير والهدى، محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن تبعه ووالاه بإحسان
إلى يوم الدين.



1- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعاقبته.

الرسول الأُسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يحذر من النَمِمة

عن هَمَّامِ بْنِ الْحَارِثِ قَالَ: (كُنَّا جُلُوسًا مَعَ حَدِيثَةٍ فِي الْمَسْجِدِ، فَجَاءَ رَجُلٌ حَتَّى جَلَسَ إِلَيْنَا، فَقِيلَ لِحَدِيثَةٍ: إِنَّ هَذَا يَرْفَعُ إِلَى السُّلْطَانِ أَشْيَاءَ، فَقَالَتْ حَدِيثَةٌ -إِرَادَةً أَنْ يُسْمِعَهُ-: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَاتٌ).⁽¹⁾

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يحذر من سلوك النَمِمة، كونه مشيناً، يجر على النَّمَّامِ ويلات الخزي والعار في الدنيا، وسوء العاقبة في الآخرة، إضافة إلى ما يحدثه هذا السلوك السلبي من شرخ في العلاقات بين الناس، واضطراب في نسيجهم الاجتماعي، بل قد يجر عليهم الجرائم والاعتقالات والتدابير والتنحر، بسبب التآليب الذي يؤججه بينهم وفيهم.

مفهوم النَمِمة وحكم نقل القول

جاء في فتح الباري أن "القتات" هو النَّمَّام، ووقع بلفظ "نمَّام" في روايات أخرى، وقيل الفرق بين القتات والنمَّام؛ أن النَّمَّام الذي يحضر القصة فينقلها، والقتات الذي يتسمع من حيث لا يعلم به، ثم ينقل ما سمعه.⁽²⁾

ورود في إحياء علوم الدين للغزالي، أن اسم النَمِمة في الأصل، إنما يطلق على من ينم قول الغير إلى المقول فيه... وليست النَمِمة مختصة به، بل حدها كشف ما يكره كشفه، سواء كرهه المنقول عنه، أو المنقول إليه، أو غيرهما، وسواء كان الكشف بالقول أم بالكتابة أم بالرمز أم بالإيماء، وسواء كان المنقول عن الأعمال أم من الأقوال، وسواء كان ذلك عيباً ونقصاً في المنقول عنه، أم لم يكن... وإذا رآه يخفي مالا لنفسه فذكره، فهو نَمِمة.⁽³⁾

ويعقب الإمام النووي على حكم النَمِمة، فيقول: "وكل المذكور في النَمِمة إذا لم يكن فيها مصلحة شرعية، فإن دعت حاجة إليها فلا منع منها؛ وذلك كما إذا أخبره بأن إنساناً

1- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان غلط تحريم النَمِمة.

2- فتح الباري، 473/10.

3- إحياء علوم الدين، 214/3، بتصرف.

يريد الفتك به، أو بأهله، أو بماله، أو أخبر الإمام، أو من له ولايةٌ بأنَّ إنساناً يفعل كذا، ويسعى بما فيه مفسدة. ويجب على صاحب الولاية الكشف عن ذلك وإزالته. فكلُّ هذا وما أشبه ليس مجرامٍ، وقد يكون بعضه واجباً، وبعضه مستحباً على حسب المواطن، والله أعلم".⁽¹⁾

الفرق بين النميمة والغيبة

ورد في فتح الباري لابن حجر العسقلاني أنه اختلف في الغيبة والنميمة، هل هما متغايرتان أو متحدتان. والراجح التغاير، وأن بينهما عموماً وخصوصاً وجهياً، وذلك لأن النميمة نقل حال الشخص لغيره على جهة الإفساد بغير رضاه، سواء كان بعلمه أم بغير علمه، والغيبة ذكره في غيبته بما لا يرضيه، فامتازت النميمة بقصد الإفساد، ولا يشترط ذلك في الغيبة، وامتازت الغيبة بكونها في غيبة المقول فيه، واشتركتا فيما عدا ذلك، ومن العلماء من يشترط في الغيبة أن يكون المقول فيه غائباً، والله أعلم.⁽²⁾

توجيه لمن حملت إليه النميمة

عن الإمام الغزالي أنه ينبغي لمن حملت إليه نميمة أن لا يصدق من نَمَّ له، ولا يظن بمن نَمَّ عنه ما نقل عنه، ولا يبحث عن تحقيق ما ذكر له، وأن ينهائه، ويقبح له فعله، وأن يبغضه إن لم ينزجر، وأن لا يرضى لنفسه ما نهى النمام عنه، فينمَّ هو على النمام، فيصير نماماً.⁽³⁾

وفي نصح من حُمِلت إليه النميمة، يقول الشاعر:

من يخبرك بشتم عن أخ فهو الشاتم لا من شتمك
ذاك شيء لم يواجهك به إنما اللوم على من أعلمك
ويقول آخر:

لا تقبلن نميمةً بلَّغتها وتحفظن من النبي أنبأكها
إن النبي أهدي إليك نميمة سينم عنك بمثلها قد حاكها

1- صحيح مسلم بشرح النووي، 313/1.

2- فتح الباري، 667/10.

3- إحياء علوم الدين، 214/3.

وذكر أن حكيماً من الحكماء زاره بعض إخوانه، فأخبره بجزء من بعض أصدقائه، فقال له الحكيم: قد أبطأت في الزيارة، وأتيت بثلاث جنائيات؛ بغضت أخي إليّ، وشغلت قلبي الفارغ، واتهمت نفسك الأمانة... وقال رجل لعمر بن عبيد: إن الأسواري ما يزال يذكرك في قصصه بشرّ، فقال له عمرو: يا هذا، ما رعيت حق مجالسة الرجل، حيث نقلت إلينا حديثه، ولا أدّيت حقي حين أعلمتني عن أخي ما أكره، ولكن أعلمه أن الموت يعمنه، والقبر يضمنا، والقيامة تجمعنا، والله تعالى يحكم بيننا، وهو خير الحاكمين.⁽¹⁾

ذم النميمة وعقابها

ذكر الله المشاء بالنيمة في سياق عرض صفات من توعده بأن يسمه على الخرطوم، فقال تعالى: {وَلَا تُطْعَمُ كُلُّ خَلْفٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٌ مَشَاءٌ بِنَمِيمٍ * مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٌ * عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ * أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ}.⁽²⁾

كما بين القرآن الكريم أن من صفات امرأة أبي لهب، أنها كانت تمشي بالنيمة بين الناس، وكنتى عن ذلك بحمل الخطب، وفي صحيح البخاري، باب {وَأَمْرًا تُهَمَّالَةُ الْخَطْبِ}، قال مجاهد: {حَمَّالَةُ الْخَطْبِ}: تَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ {فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ}: يُقَالُ مَسَدٌ لِيَفِ الْمَقْلِ، وَهِيَ السُّلْسِلَةُ الَّتِي فِي النَّارِ.⁽³⁾

وبين الرسول، صلى الله عليه وسلم، بشاعة النميمة وفضاعتها من خلال ذكر مصير صاحبها، فالله تعالى حرم عليه الجنة، ففي صحيح مسلم، تحت باب (بَيَانِ غِلْظِ تَحْرِيمِ النَّمِيمَةِ)، ورد عن حذيفة أنه بلغه أن رجلاً ينم الحديث، فقال حذيفة: سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: {لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَامٌ}.⁽⁴⁾

1- إحياء علوم الدين، 215/3-216.

2- القلم: 10-16.

3- صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب {وَأَمْرًا تُهَمَّالَةُ الْخَطْبِ}.

4- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم النميمة.

وبالإضافة إلى بيان الرسول، صلى الله عليه وسلم، لمدى فظاعة النسيمة، من خلال ذكر عقاب صاحبها في الآخرة، فإنه يشير إلى عقاب النمام في قبره، فعن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: (مرَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، بِحَايِطٍ مِنْ حَيْطَانِ الْمَدِينَةِ أَوْ مَكَّةَ، فَسَمِعَ صَوْتَ إِنْسَانَيْنِ يُعَذِّبَانِ فِي قُبُورِهِمَا، فَقَالَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يُعَذِّبَانِ، وَمَا يُعَذِّبَانِ فِي كَبِيرٍ، ثُمَّ قَالَ: بَلَى؛ كَانَ أَحَدُهُمَا لَا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ، وَكَانَ الْآخَرُ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، ثُمَّ دَعَا بِجَرِيدَةٍ، فَكَسَرَهَا كِسْرَتَيْنِ، فَوَضَعَ عَلَى كُلِّ قَبْرٍ مِنْهُمَا كِسْرَةً، فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ لِمَ فَعَلْتَ هَذَا؟ قَالَ: لَعَلَّهُ أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُمَا مَا لَمْ تَيَسَّرْ، أَوْ إِلَى أَنْ يَبْسَأَ).⁽¹⁾

أدبيات في ذم النسيمة والنمام وبيان مفسدهما

مما قيل في النسيمة والنمام، إن النمام شرٌّ من الساحر، ويعمل النمام في ساعة ما لا يعمل الساحر في سنة.⁽²⁾

ويقال: "عمل النمام أضرُّ من عمل الشيطان؛ لأنَّ الشيطان بالخيل والوسوسة، وعملُ النمام بالمواجهة والمعينة".⁽³⁾

ومن الشعر الوارد في النسيمة، قول الشاعر:

تنح عن النسيمة واجتنبها فإن النمم يحبط كل أجر
يثير أخو النسيمة كل شر ويكشف للخلائق كل سر
ويقتل نفسه وسواه ظلماً وليس النمم من أفعال حر
ورحم الله من قال:

من تم في الناس لم تؤمن عقاربه على الصديق ولم تؤمن أفاعيه
كالسيل بالليل لا يدري به أحد من أين جاء ولا من أين يأتيه
الويل للعهد منه كيف ينقضه والويل للود منه كيف يفنيه

1- صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب من الكبائر أن لا يستتر من بوله.

2- كتاب الفروع، 6/ 170.

3- عن كتاب الزواجر، 2/ 572.

ومن القصص التي تروى في شر النَّمَام، ما جاء عن حماد بن سلمة أنه قال: إنَّ رجلاً باع غلاماً عنده، فقال للمشتري: ليس فيه عيب إلا أنه نَمَام، فاستخفَّه المشتري، فاشتراه على ذلك العيب، فمكث الغلام عند المشتري أياماً، ثم قال لزوجة مولاه: إنَّ زوجك لا يحبُّك، وهو يريد أن يتسرَّى عليك، أفتريدين أن يعطف عليك؟ قالت: نعم، قال لها: خُذي الموسى واحلقي شعراتٍ من باطن لحيتيه إذا نام، ثم جاء إلى الزوج، وقال: إنَّ امرأتك اتَّخذت صاحباً، وهي قاتلتك، أتريد أن يتبين لك ذلك؟ قال: نعم، قال: فتناوم لها، فتناوم الرجلُ، فجاءت امرأته لتحلق الشعرات، فظنَّ الزوج أنها تريدُ قتله، فأخذ منها الموسى فقتلها، فجاء أولياؤها، فقتلوه، وجاء أولياء الرجل، ووقع القتال بين الفريقين، فلذلك سمى الله النَّمَام فاسقاً، في قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ } (1) (2)

وهكذا يفسد النَّمَام الود بين الناس، ويدمر العلاقات الطيبة بينهم، أحياناً لمصلح يطمح إلى تحقيقها، وأحياناً كثيرة تبرعاً منه للشيطان، تماشياً مع تفاقم نار الشر في فكره وعقله وقلبه، فهو يهوى الفساد والإفساد تماماً كحال سيده الشيطان، الذي أخبر الله تعالى عنه، فقال سبحانه: { قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَا يَمِينُهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُومًا مَّدْحُورًا لَّمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ } (3).

أعاذنا الله تعالى من شر النميمة والنمَّامين، من أن نكون منهم، أو أن نكتوي بنار شرهم وإفسادهم، وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا الأسوة محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه، ومن تبعه ووالاه بإحسان إلى يوم الدين.

1- الحجرات: 6.

2- إحياء علوم الدين، 217/3، وكتاب الكبائر، 162/1.

3- الأعراف: 18-16.

الرسول الأُسوة محمد صلى الله عليه وسلم

العبد الشكور

عن عائشة، رضي الله عنها: (أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا؟ فَلَمَّا كَثُرَ لَحْمُهُ صَلَّى جَالِسًا، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَرْكَعَ قَامَ فَقَرَأَ، ثُمَّ رَكَعَ).⁽¹⁾

تصف هذه الرواية مدى حرص الرسول، صلى الله عليه وسلم، على القيام بواجب العبودية لله تعالى، والتقدم بالشكر والعرفان للرحمن الديان، منطلقاً بذلك من رغبة أكيدة في هذه العبادة، وحب شديد للمعبود سبحانه وتعالى، وشعور بالآء الله التي تقتضي شكره سبحانه، فبالشكر تدوم النعم وتزداد، مصداقاً لقوله تعالى: {وَإِذْ تَلَذَّانَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}⁽²⁾، والله يأمر عباده بالشكر فيقول جل شأنه: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ}.⁽³⁾

وذكر الله يكون بالصلاة، والتسبيح، والاستغفار، واستحضار خشيته سبحانه في الحال كله، والله يجازي الشاكر الذاكر بما يفوق أعمال الخير التي يقدمها عباده، ففي الحديث القدسي الصحيح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (يقول الله تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ، ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْسِي، أَتَيْتُهُ هَرُولَةً).⁽⁴⁾

1- صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: {ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك}.

2- إبراهيم: 7.

3- البقرة: 152.

4- صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {ويجذركم الله نفسه}.

الربط بين العبادة والشكر

يلاحظ مما سبق أن الله تعالى ربط بين العبادة والشكر، ويظهر هذا الربط في عدد من الآيات القرآنية، التي حفلت بذكر هذين الموضوعين في مناسبات مختلفة، فالله أمر المؤمنين بشكره إن كانوا إياه يعبدون، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}.⁽¹⁾

وأمر الله الخلق بعبادته وشكره معاً، فقال تعالى: {إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}.⁽²⁾

والرسول، صلى الله عليه وسلم، لم يبتدع الربط بين الشكر والعبادة، ولم يتكلف ذلك، وإنما انطلق بهذا النهج القويم من إيمان راسخ، وعقيدة واضحة، من أبرز معالمها وضوح العلاقة بين الخالق والمخلوق، فالله صاحب الفضل والمنة، والعبد يخلص لله بالشكر، ويفرده بالعبادة، ويوحده في الإلوهية والربوبية، ويرجوه سبحانه أن يعينه على شكره وأداء حسن العبادة له سبحانه وتعالى، على نهج الأنبياء والمرسلين، الذين قال قائلهم، وهو نبي الله سليمان: {فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ}⁽³⁾، وقد أثنى الله تعالى على نبيه نوح، عليه السلام، أن كان عبداً شكوراً، فقال تعالى: {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا}.⁽⁴⁾

وفي صحيح البخاري، باب ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إنه كان عبداً شكوراً، وفيه عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: (كنا مع النبي، صلى الله عليه وسلم، في دَعْوَةٍ فَرَفَعَ إِلَيْهِ الدَّرَاعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ، فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً، وَقَالَ: أَنَا سَيِّدُ الْقَوْمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، هَلْ تَدْرُونَ يَمَّ يَجْمَعُ اللَّهُ

1- البقرة: 172.

2- العنكبوت: 17.

3- النمل: 19.

4- الإسراء: 3.

الأوليين والآخريين في صعيدٍ واحدٍ؟ فيبصرهم الناظر، ويسمعهم الداعي، وتدنو منهم الشمس، فيقول بعض الناس: ألا ترون إلى ما أنتم فيه إلى ما بلغكم؟ ألا تنظرون إلى من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس: أبوكم آدم، فيأتونه فيقولون: يا آدم؛ أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، وأسكنك الجنة، ألا تشفع لنا إلى ربك؟ ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا؟ فيقول: ربي غضب غضباً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، ونهاني عن الشجرة فعصيت، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح؛ أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبداً شكوراً، أما ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما بلغنا؟ ألا تشفع لنا إلى ربك؟ فيقول: ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، نفسي، ائتوا النبي، صلى الله عليه وسلم، فيأتوني، فأسجد تحت العرش، فيقال: يا محمد؛ ارفع رأسك، واشفع تسمع، وسل تعطه.⁽¹⁾

والإنسان السوي لا يغفل عن شكر الله على نعمه وآلائه التي يتصدرها الهدى والإيمان، وهو إلى جانب ذلك يرجو التوفيق الإلهي للهداية إلى شكر الله والتوبة إليه سبحانه وتعالى، وفي هذا يقول جل شأنه: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبِّتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ}.⁽²⁾

عبادة الله غاية الغايات

يدلل حرص الرسول، صلى الله عليه وسلم، على عبادة الله على انقياده لتحقيق الغاية التي من أجلها خلق الله الإنس والجن، إذ يقول تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}⁽³⁾، وهذه العبادة لا تقتصر على الشعائر فحسب، بل إن المؤمن يتعبد إلى الله في

1- صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: {إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتهم عذاب أليم}.

2- الأحقاف: 15.

3- الذاريات: 56.

كل شأنه، في صلاته، وصيامه، وزكاته، وحجه، وذكره، واستغفاره، وكذلك في بيعه، وشرائه، وزواجه، وإمافته الأذى عن طريق الناس، والمساهمة في تحقيق السلامة لهم، ولا تنفصم العرى التي تشده إلى العبادة في حركاته وسكناته، وأقواله وأفعاله كلها، وهكذا كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، الأسوة في حسن تعبده لله تعالى، فلم تفتّر عزيمته عن التقرب إلى الله بالعبادة المتواصلة، والاستغفار الدائم، كونه مغفور الذنب السابق واللاحق، ولا كونه معصوماً من الله عن الوقوع في الخطايا، فلما استغرب الذين من حوله جلده الشديد على أداء النوافل، وإكثاره من ترداد الاستغفار، سألوا متعجبين عن دافعه لذلك وقد غفر الله له، فكانت إجابته مفحمة: (أفلا أكون عبداً شكوراً)، فلم يغتر بالمقام الكريم الذي وصله، ولا بالدرجة السامية التي بلغها عند ربه، بل دفعه هذا السمو إلى أن يحرص على أن يكون محافظاً على صفة العابد لربه، بخلاف الذين يكفرون بالله، ويجحدون نعمه التي أسبغها عليهم، ولا كما يحصل من بعض الناس أحياناً تجاه بعض، إذ ينسون الفضل بينهم، حتى إن الولد يعق أمه وأباه ببجاحة، متناسياً أنهما السبب في وجوده، ولولاهما ما كان وما وجد، وما أشير إليه بأي بنان، أما المؤمن العابد فيمثل خير نماذج الرسول، صلى الله عليه وسلم، الذي كانت تتفطر قدمه من طول القيام في الصلاة، أداء منه للعبودية الحقة لله تعالى، وما كان يقضي ليله بالسمر، ولا باللهو، وإنما كان يقومه بالصلاة والذكر، وحاله ينطق: لبيك ربه؛ حيث كلفه الله بقيام الليل، وترتيل القرآن، وذكر اسم ربه والتبتل إليه سبحانه، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمُزْمَلُ* قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً* نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً* أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً* إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلاً* إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً* إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً* وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً}.

(1).

وكان عليه الصلاة والسلام يحرص على قضاء نهاره بالعمل الجاد، وكان يصوم من النوافل أياماً عديدة في غير شهر الصيام المفروض، فعن عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها، أنها قالت: (كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يصوم حتى نقول لا يفطر، ويفطر حتى نقول

لا يَصُومُ، وما رأيت رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، اسْتَكْمَلَ صِيَامَ شَهْرٍ قَطُّ إِلَّا رَمَضَانَ،
وما رأيتُهُ في شَهْرٍ أَكْثَرَ مِنْهُ صِيَامًا فِي شَعْبَانَ).⁽¹⁾

هذا هو العابد محمد، صلى الله عليه وسلم، لا ينازع الله شيئاً من ملكوته، ولا يتعدى حدوده، فهو بشر رسول، وليس له من خصائص الإلهية شيء، وقد علمه الله أن يؤكد للناس على هذه الحقيقة، فقال تعالى: {وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا* أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا* أَوْ تَسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةَ قِيْلًا* أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا* وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا}.⁽²⁾

شكر الله

يخبر الرسول، صلى الله عليه وسلم، عن تميز المؤمن بديمومة اصطحاب الخير في أحواله كلها، فهو الذي يشكر في السراء، ويصبر على الضراء، فعن صُهَيْبٍ قَالَ: (قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: عَجَبًا لَأَمْرِ الْمُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ).⁽³⁾

ورود في صحيح البخاري، باب الطَّاعِمِ الشَّاكِرِ مِثْلُ الصَّائِمِ الصَّابِرِ⁽⁴⁾، ويشرح العيني في عمدة القاري المقصود بعنوان هذا الباب، فيقول: (أي هذا باب يقال فيه الطاعم الشاكر، وهو مرفوع بالابتداء، وقوله مثل الصائم الصابر خبره؛ أي الشاكر الذي يأكل، ويشكر الله، ثوابه مثل ثواب الذي يصوم، ويصبر على الجوع، قيل الشكر نتيجة النعماء، والصبر نتيجة البلاء، فكيف يشبه الشاكر بالصابر؟ وأجيب بأن التشبيه في أصل الاستحقاق لا في الكمية،

1- صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب صيام النبي، صلى الله عليه وسلم، في غير رمضان واستحباب أن لا يجلى شهراً عن صوم.

2- الإسراء: 94-90.

3- صحيح مسلم، كتاب الزهد والرفائق، باب المؤمن أمره كله خير.

4- صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب الطاعم الشاكر مثل الصائم الصابر.

ولا في الكيفية، ولا تلزم المماثلة في جميع الوجوه، وقال الطيبي: ورد الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر، وربما يتوهم متوهم أن ثواب الشكر يقصر عن ثواب الصبر، فأزبل توهمه به، يعني هما متساويان في الثواب، ووجه الشبه حبس النفس؛ إذ الشاكر يحبس نفسه على محبة المنعم بالقلب، والإظهار باللسان، وقال أهل اللغة: رجل طاعم: حسن الحال في المطعم، ومطعماً: كثير القيرى، ومطعم: كثير الأكل، وقال ابن العربي: سوى بين درجتي الطاعة من الغني والفقير في الأجر.⁽¹⁾

والله في علاه يشكر حسنات عباده، وصالح أعمالهم، ففي القرآن الكريم قوله تعالى: **{ لِيُؤْفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ }**⁽²⁾، ومع كل هذا التشجيع على انتهاز مسلك الشاكرين، إلا أن الله تعالى أخبر في قرآنه الكريم عن قلة عدد المتصفين بالشكر بين الخلق، فقال تعالى: **{ ...وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ }**⁽³⁾.

فما أحرى بالمؤمنين الخارجين لتوهم من موسم عبادة الحج، والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بالأضاحي والتكبير والذكر، ما أحرصهم بأن يبذلوا الجهود ليواصلوا مشوار التعبد لله بإخلاص وهمة وسلامة نهج، وأن يشكروا الله أن هداهم للإيمان، وأن أسبغ عليهم جزيل النعم، ووافر الخيرات، جعلنا الله وإياهم من عباده الشاكرين؛ لنفوز بصحبة العبد الشكور نبينا محمد، صلى الله عليه وسلم وبارك، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1- عمدة القاري، 80-79/21.

2- فاطر: 30.

3- سبأ: 13.

الرسول الأُسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يحذر المحامين والخصوم والقضاة من تجاوز الحق

عن أمِّ سلمةَ، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ الْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، وَأَقْضِي لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ).⁽¹⁾

يحذر الرسول، صلى الله عليه وسلم، في هذا الحديث الشريف من خطورة تجاوز الحق في الخصومات، سواء وقع هذا التجاوز من الخصوم في كتم الحق، وتزيين الباطل للتمويه والخداع، أم صدر عن المحامين الذين يقومون مقام الخصوم في المرافعات القضائية، أم صدر عن القضاة الذين يتولون الفصل في قضايا النزاع والخلاف، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، حين رفعت إليه خصومة ليقضي فيها، ذكر بأنه يقوم بمهمة القضاء؛ انطلاقاً من خصائصه البشرية، فيقضي على نحو ما يسمع، وقد يتمتع طرف بقدرة على الإقناع بما أوتي من إمكانيات خلقية، وتأهيل خاص بالخبرة وغيرها، فيستغل هذه المؤهلات لقلب الحقيقة، خصوصاً إذا افتقد خصمه لمثل مستوى القدرة الإقناعية التي تأهل بها، فأراد الرسول، صلى الله عليه وسلم، أن يظهر لكل من تسول له نفسه التضليل، والخداع، وأكل حقوق الآخرين، بعاقبة هذه الجناية عند الله، فهي عاقبة وخيمة ومأساوية؛ إذ إن نار الجحيم تنتظر هذا الحلق الذي استثمر ذكاه وحنقه في سلب حقوق الناس وظلمهم.

وفي رواية في صحيح مسلم، عن أمِّ سلمةَ زَوْجِ النبي، صلى الله عليه وسلم: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، سَمِعَ جَلْبَةَ خَصْمٍ يَبِابِ حُجْرَتِهِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّهُ يَأْتِينِي الْخَصْمُ، فَلَعَلَّ بَعْضَهُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ مِنْ بَعْضٍ، فَأَحْسِبُ أَنَّهُ صَادِقٌ، فَأَقْضِي لَهُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ مُسْلِمٍ، فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ، فَلْيَحْمِلْهَا أَوْ يَدْرِهَا).⁽²⁾

1- صحيح البخاري، كتاب الحيل، باب إذا غصب جارية، فرغم أنها ماتت، ففضي بقيمة الجارية الميتة، ثم وجدها صاحبها، فهي له، ويرد القيمة، ولا تكون القيمة ثمناً.

2- صحيح مسلم، كتاب الأفضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة.

فهذه الرواية توضح بعض جوانب تلك الحادثة، التي تسببت في ورود هذا التحذير النبوي لأكلي حقوق الآخرين بقوة حججهم، وقدراتهم البلاغية والإقناعية.

تحذير المحامين من المرافعة دفاعاً عن الباطل

يقوم المحامون عادة بالمرافعة دفاعاً عن موكلهم، وكثيراً ما يتجاهل المحامي الحقيقة، ويكون همّه النجاح في مرافعته، وكسب القضية لتسجيل ربح مادي، وشهرة بين الناس، من وراء ذلك، وهذا يتنافى مع ما يجب أن يكون عليه حال المرء الذي يتغي رضا الله، ويخاف من سخطه وعذابه، والرسول، صلى الله عليه وسلم، يخص مساندي الباطل وأهله بمزيد من التحذير، فعن نافع، عن ابن عمر، قال: **(قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: من أعان على خصومةٍ بظلم، أو يعين على ظلم، لم يزل في سخط الله حتى ينزع)**.⁽¹⁾

ويشمل هذا التحذير المحامين الذين يقوم صلب عملهم على المرافعة، نيابة عن موكلهم في القضايا التي ترفع إلى المحاكم، على اختلاف أنواعها ومستوياتها، ويتمشى هذا التحذير في المقابل مع الأمر الإلهي الذي يقضي بالتعاون على البر والتقوى، والامتناع عن التعاون على الإثم والعدوان، فالله تعالى يقول: **{...وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}**.⁽²⁾

والله تعالى ينهى عن المخاصمة عن الخائنين، والدفاع عن باطلهم، فيقول تعالى: **{إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً}**.⁽³⁾

نزلت هذه الآية وما بعدها في قصة طعمة بن الأبيرق؛ إذ سرق طعاماً وسلاحاً لبعض الأنصار، وجاء قومه إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، وقالوا: إنه بريء، ونسبوا السرقة إلى غيره، وظن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنهم صادقون، فجادل عنهم؛ ليدفع ما نسب إليهم، حتى نزل القرآن، فافتضحوا، فلخائنون في الآية هم السراق بنو الأبيرق، وقال

1- سنن ابن ماجه، كتاب الأحكام، باب من ادعى ما ليس له وخاصم فيه، وصححه الألباني.

2- المائدة: 2.

3- النساء: 105.

السهيلي: هم بشر، وبشير، ومبشر، وأسيد، ومعناها لا تكن لأجل الخائنين مخلصاً
لغيرهم⁽¹⁾، وجاء في سنن الترمذي، عن قَتَادَةَ بنِ النُّعْمَانِ تفصيلاً لتلك الحادثة وقصتها.⁽²⁾

يوم المحامي الفلسطيني

ولقد ودنا التذكير بهذا التحذير النبوي من تجاوز الحق، بمناسبة التاسع من تموز "يوم
المحامي الفلسطيني"، حيث إن التذكير بالخير والمعروف من خصائص أمتنا، ومن مهمتها
الرئيسية، فالله تعالى يقول: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ
الْفَاسِقُونَ}.⁽³⁾

ولا شك في أن مساندة الباطل تبرعاً، أم بمقابل مادي، تعتبر من المحظورات التي حذر
الشرع الإسلامي الحنيف منها، فالحق هدف المؤمن الذي يسعى إلى بلوغه، والعمل بموجبه،
بينما الفاسدون الفاسقون لا يهمهم الحق، بقدر ما تهمهم مصالحهم المادية، وتحقيق المزيد من
مكاسبهم الدنيوية.

والحامي المسلم، أو الإنسان الذي يعنيه الحق، ويربأ بنفسه عن التلبس بالباطل، سواء
أكان فلسطينياً أم كان من أي جهة في عالم الإنسان ومحيط وجوده، فالأعناق تشرئب إليه،
والأنظار تحمق نحوه، عساه أن يكون نصيراً للحق المسلوب، وللضعيف الذي لا يقوى على
المحاجة، ابتغاء إحقاق الحق، وإبطال الباطل.

من هنا؛ كانت النظرة الشرعية متباينة في الحكم على عمل المحامي، فهو جائز إذا ساند
قضية مشروعة عادلة، بما يوافق شرع الله، ولا يتعارض مع توجيهات نبيه الكريم، صلى الله
عليه وسلم، ومبادئ الإسلام وشريعته الغراء، وذلك يكون من باب النصرة الواجبة من
المسلم لأخيه، حسب الفهم الصحيح لها، فعن أنس، رضي الله عنه، قال: (قال رسول الله،

1- التسهيل لعلوم التنزيل، 157/1.

2- سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة النساء، وحسنه الألباني.

3- آل عمران: 110.

صلى الله عليه وسلم: انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا، قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا، فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا؟ قَالَ: تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ. (1)

فينبغي أن ينطلق عمل الخامي من مبادئ شرعية، وأن ينضبط بشروط العمل في هذه المهنة، التي هي على خطر عظيم، إن فلتت من عقال الشرع وضوابطه وقيمه وأحكامه، فالتدليس، والخداع، والتزييف، والكذب من صفات الذين يتجاوزون الحق، وتلك الصفات بمفردها ومجموعها منكرة، لا يرتضيها لنفسه من ابتغى الصلاح والرشاد، ومن خاف من يوم تشخص فيه الأبصار، يوم يقف الناس لحساب ربهم، فيقتص للمظلوم من الظالم، فالظلم عاقبته وخيمة، ويتضاعف ليصبح يوم القيامة ظلمات، بعضها فوق بعض، فعن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (الظُّلْمُ ظُلُمَاتُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ). (2)

قاضيان في النار

يعدُّ القضاة من أبرز الأطراف المؤثرة في إصدار القرارات القضائية، فإليهم ترفع القضايا، فينظرون فيها، بأعين مجردة عن الحباة، والظلم، والإجحاف، فهم بعد أن يسمعوا الخصوم ووكلاءهم الخامين، ويدرسوا ملفات القضايا وبياناتها، ويسمعوا الشهود إن وجدوا، فإنهم يقومون الأمور، ويستخلصون النتائج، ومن ثم يصدرن القرارات المناسبة، وقد ورد في القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف توجيهات كثيرة للقضاة، ليحكموا بالعدل، فالله تعالى يقول: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } . (3)

وفي مجال تحذيرهم من التقصير في أداء دورهم الطبيعي في إفشاء العدل، ومساندة الحق، يبين الرسول، صلى الله عليه وسلم، أن القاضي على خطر عظيم، فإن أصاب وعدل أجر، وإن ظلم وجار وزر، عن ابن بريدة، عن أبيه، أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (القُضَاةُ ثَلَاثَةٌ؛

1- صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب عن أخاك ظالماً أو مظلوماً.

2- صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب الظلم ظلمات يوم القيامة.

3- المائدة: 8.

قَاضِيَانِ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ فِي الْجَنَّةِ، رَجُلٌ قَضَى بِغَيْرِ الْحَقِّ فَعَلِمَ ذَلِكَ، فَذَكَ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ لَا يَعْلَمُ، فَاهْلَكَ حُقُوقَ النَّاسِ، فَهُوَ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ قَضَى بِالْحَقِّ، فَذَلِكَ فِي الْجَنَّةِ.⁽¹⁾

تحذير الخصوم من الشطط والإجحاف

تبدأ منطلقات القضايا بين الناس من الأطراف ذات العلاقة، فإذا أنصف الطرف الخصم في وصف المشكلة، وتحديد معالمها ومعطياتها دون مواربة، ولا كذب، ولا خداع، ولا تضليل، يكون قد وافق الحق، وإن دلس، وكذب، وأخفى الحقائق يكون قد رتع في الإجحاف والظلم، ففي القرآن الكريم، ورد جواب داود، عليه السلام، للأخ الذي خصم أخاه لديه، فقال تعالى: { وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَعَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَى نَعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ }.⁽²⁾

فهذه الآيات الكريمة تناولت مواقف الخصوم، وأعمال القضاة وقراراتهم، والقيم التي تحكم ذلك كله، بما يعبر عن الرفض التام للشطط، والظلم، والإجحاف، ويعبر كذلك عن خشية الله من أطراف النزاع والقضاة بينهم. هداانا الله لقول الحق وحسن اتباعه، ومساندة أهله، وجنبنا الله الباطل وأهله ومؤازرتهم، وصلى الله وسلم على رسولنا الأسوة محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه، ومن تبعه بإحسان ووالاه إلى يوم الدين.

1- سنن الزمذي، كتاب الأحكام، باب ما جاء عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في القاضي، وحسنه الألباني.

2- ص: 21-25.

الرسول الأُسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يحذر من سلب المال العام واختلاسه

عن خَوْلَةَ الْأَنْصَارِيَّةِ، رضي الله عنها، قالت: سمعت النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: **(إِنَّ رَجُلًا يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ).**⁽¹⁾

ومعنى يتخوضون في مال الله بغير حق؛ أي يتصرفون في مال المسلمين بالباطل؛ وهو أعم من أن يكون بالقسمة وبغيرها⁽²⁾، فالذين يستبيحون ما لا حق به من الأموال لهم النار، التي وقودها الناس والحجارة، والتي يكتوي بسعيرها، ويتلظى بلهبها، الخائن الذي سلب المال العام، أو سرق مال الآخرين، يوم لا ينفع مال ولا بنون؛ فلا تنفع الأرصدة المتخمة بالأرقام، ولا البنون والأحفاد، الذين ورثوا تركة جمعها صاحبهم ومورثهم عن طريق النهب والسلب والاختلاس.

أكل المال بالباطل

للتخوض في مال الله بغير حق صور كثيرة، منها أكل المال العام والخاص بالباطل، حيث نهى الله تعالى عن هذا الأكل الآثم، فقال تعالى: **{وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}**⁽³⁾، ونهى الله عن أكل أموال اليتامى ظلماً، واعتبره حوباً كبيراً، فقال تعالى: **{وَأَتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا}**⁽⁴⁾.

المسؤولية عن المال العام

الاستئمان على المال العام الذي يقع بين يدي المستأمن، بحكم عمله ومقتضيات تكليفه بالمسؤولية عن عمله، يقتضي منه المحافظة على هذا المال، والحذر من مد اليد إليه

1- صحيح البخاري، كتاب الخمس، باب قول الله تعالى: {فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ}.

2- فتح الباري، 219/6.

3- البقرة: 188.

4- النساء: 2.

بالاختلاس أو السرقة؛ لأن هذا يكون من قبيل أكل المال بالباطل، والله تعالى ينهى عن هذا الأكل الآثم، بشتى صورته وأنواعه؛ لأنه مال حرام، يجلب لصاحبه الويل والثبور.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: (كَانَ عَلَى ثَقَلِ النَّبِيِّ⁽¹⁾، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ كِرْكِرَةٌ، فَمَاتَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هُوَ فِي النَّارِ، فَذَهَبُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَوَجَدُوا عِبَاءَةً قَدْ غَلَّهَا).⁽²⁾

فَكِرْكِرَةٌ كَانَ مُسْتَأْمِنًا عَلَى أُمَّتَةِ الرَّسُولِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَفَلَجًا الصَّحَابَةَ لَمَاتَ، أَنَّ الرَّسُولَ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُخْبِرُهُمْ عَنْ مَصِيرِهِ بِأَنَّهُ فِي النَّارِ، فَلَمَّا بَجَثُوا وَمَحْصُوا، وَجَدُوا أَنَّهُ غَلَ عِبَاءَةً؛ أَي سَرَقَهَا مِنَ الْمَتَاعِ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَفِي هَذَا تَحْذِيرٌ وَعِبْرَةٌ لِكُلِّ مَنْ تَسَوَّلَ لَهُ نَفْسُهُ أَنْ يَسْرِقَ مِمَّا كَانَ مُسْتَأْمِنًا عَلَيْهِ، سِوَاءَ أَكَانَ مُوظَّفًا فِي الْقِطَاعِ الْعَامِ أَمْ الْخَاصِّ، وَسِوَاءَ أَكَانَ يَتَبَوَّأُ مَنْصِبًا رَفِيعًا أَمْ دُونَ ذَلِكَ مِنَ الْوِظَائِفِ، فَكُلِّ شَخْصٍ مَسْئُولٍ عَمَّا اسْتَرَعَى، وَحَفِظَ الْمَالَ الْعَامَ يَنْدَرِجُ ضَمْنًا وَاجِبٌ حَسَنَ الرَّعَايَةِ الْمَطْلُوبَةِ مِنْ قِبَلِ الرَّاعِي، فَعَنْ ابْنِ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: (سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْإِمَامُ رَاعٍ، وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ، وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ، وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْحَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ، وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، قَالَ: وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ: وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ).⁽³⁾

فضاعة الغلول

لقد حذر الرسول، صلى الله عليه وسلم، أشد التحذير من نهب المال العام، ووصف الاختلاس منه بالغلول، فعن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: (قام فينا النبي، صلى الله عليه وسلم، فذكر الغلول، فعظّمه، وعظّم أمره، قال: لا أُلْفَيْنَ أَحَدَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شاةٌ لها ثُعَاءٌ، عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لها حَمَحَمَةٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَغْنَيْتَنِي، فَأَقُولُ: لا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَعْتُكَ، وَعَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ له رُعَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَغْنَيْتَنِي، فَأَقُولُ: لا أَمْلِكُ

1- ومعنى (كَانَ عَلَى ثَقَلٍ): هو بفتح التاء والقاف، وهو متاع المسافر، وما يجمله على دوابه. (صحيح مسلم بشرح النووي، 61/9)

2- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب القليل من الغلول.

3- صحيح البخاري، كتاب الوصايا، باب تأويل قول الله تعالى: { من بعد وصية يوصي بها أو دين }.

لك شيئاً، قد أبلغتكَ، وَعَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ، فيقول: يا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَغْنِي، فَأَقُولُ: لا أَمْلِكُ لك شيئاً، قد أبلغتكَ، أو على رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ، فيقول: يا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَغْنِي، فَأَقُولُ: لا أَمْلِكُ لك شيئاً، قد أبلغتكَ، وقال أَيُّوبُ، عن أَبِي حَيَّانَ: فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ. (1)

ومن أساليب الرسول، صلى الله عليه وسلم، في بيان فظاعة الغلول ونتائجه الوخيمة، ذكره جانب من قصة حدثت مع نبي من الأنبياء، عليهم السلام، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (غَزَا نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، فَقَالَ لِقَوْمِهِ: لا يَتَّبِعُنِي رَجُلٌ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ، وهو يُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَ بِهَا، وَلَمَّا بَيْنَ بِهَا، وَلا أَحَدٌ بَنَى بِيُوتًا، ولم يَرْفَعْ سُقُوفَهَا، وَلا أَحَدٌ اشْتَرَى غَنَمًا أو خَلِفَاتٍ، وهو يَنْتَظِرُ وِلَادَهَا، فَعَزَا، فَدَنَا مِنَ الْقَرْيَةِ صَلَاةَ الْعَصْرِ، أو قَرِيبًا من ذلك، فقال لِلشَّمْسِ: إِنَّكَ مَأْمُورَةٌ، وَأنا مَأْمُورٌ، اللهم احْسِنْهَا عَلَيْنَا، فَحَبِسَتْ حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ، فَجَمَعَ الْغَنَائِمَ، فَجَاءَتْ، يَعْنِي النَّارَ لِتَأْكُلَهَا، فلم تَطْعَمَهَا، فقال: إِنَّ فِيكُمْ غُلُولًا، فَلْيَبِيعُنِي من كل قَبِيلَةٍ رَجُلٌ، فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلٍ بِيَدِهِ، فقال: فِيكُمْ الْغُلُولُ، فَلتَبِيعُنِي قَبِيلَتُكَ، فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلَيْنِ أو ثَلَاثَةٍ بِيَدِهِ، فقال: فِيكُمْ الْغُلُولُ، فجاؤوا بِرَأْسِ مِثْلِ رَأْسِ بَقْرَةٍ مِنَ الذَّهَبِ، فَوَضَعُوهَا، فَجَاءَتْ النَّارُ، فَأَكَلَتْهَا، ثُمَّ أَحَلَّ اللهُ لَنَا الْغَنَائِمَ، رَأَى ضَعْفَنَا وَعَجْزَنَا، فَأَحَلَّهَا لَنَا). (2)

نعم؛ لقد توعدهم الله في قرآنه الكريم أهل الغلول، بمثل ما توعدهم به رسوله، صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: {وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلَّ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} (3)، فمن يغلل يأت بما غل يوم القيامة، فيكون عذابه من جنس عمله، فمن غل شاة، جاء على رَقَبَتِهِ شاةٌ لها نُعْأٌ، ومن غل فرسًا، جاء على رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لها حَمْحَمَةٌ، وهكذا، مثل الذي كنز المال، ولم يخرج زكاته، فيأتيه ماله المكنوز يوم القيامة على شكل ثعبان مفزع مرعب، يقول له: أنا مالك، أنا كنزك، كما ورد في الحديث الشريف الصحيح، عن أَبِي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (من آتاهُ

1- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الغلول وقول الله تعالى: {ومن يغلل يأت بما غل}.

2- صحيح البخاري، كتاب الخمس، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: أحلت لكم الغنائم.

3- آل عمران: 161.

الله مَالاً، فلم يُؤدِّ زَكَاتَهُ، مَثَلٌ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَفْرَعٌ لَهُ زَيْبَتَانِ، يُطَوِّفُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلَهْزَمِيهِ يَعْنِي شَدِيقِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالِكٌ، أَنَا كَنْزُكَ، ثُمَّ تَلَا {وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ} (1)، فقد استشهد الرسول، صلى الله عليه وسلم، في ختام حديثه التحذيري هذا بقوله تعالى: {وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} (2).

تحذير المختلسين من يوم تشخص فيه الأبصار

إنَّ الذين يسرقون المال العام بالزَّهْبِ والاختلاس، وغير ذلك من صور السرقة وأشكالها، وبغض النظر عن مسمى المال المسروق، وجنسه، ونوعه، وحجمه، ومقداره، وقيمته، فليحذروا من يوم تشخص فيه الأبصار، مصداقاً لقوله تعالى: {وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ} (3)، ففي ذلك اليوم؛ لا ينفع نفساً ما جمعت أو حازت من الأموال والمدخرات، فسيأتي المال الحرام يوم القيامة وبالاً على السارق، وناراً وشناراً على المختلس، يوم لا ينفع افتدائه منه، ولا من الدنيا وما فيها ولو حيزت للظالمين، قال تعالى: {يُبْصِرُونَهُمْ يُؤدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمئِذٍ بِبَنِيهِ} (4)، ولا تقبل الأعدار، ولا تتاح فرص العودة والرجوع إلى الدنيا؛ للتطهر والاستنقاء، إذ رفعت الأقلام، وجفت الصحف، {فِيَوْمئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ} (5)، والله تعالى يقول: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انظُرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ} (6).

1- صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة.

2- آل عمران: 180.

3- إبراهيم: 42.

4- المعارج: 11.

5- الروم: 57.

6- الأنعام: 158.

ويقول سبحانه محذراً من الاستفحال في الغي والظلم: {فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعَذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ} (1)، ويقول جل شأنه، وعظم قدره: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ}. (2)

ويصور الله تعالى مشهداً لجانب من حال أصناف الناس في الآخرة، الذي يكون بئساً للذين طغوا في حياتهم الدنيا، ومنهم المختلسون الناهيون السارقون، فيقول تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ* لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن رَّأْيِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ* فإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ* فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ* وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ* تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ* أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ* قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ* رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ* قَالَ اخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ}. (3)

حفظنا الله من التلبس بجرائم النهب والاختلاس، ما ظهر منها وما بطن، وصلى الله وسلم على رسولنا الهادي الأمين، وعلى صحابته الغر الميامين، وعلى آله وأزواجه، ومن تبعه ووالاه بإحسان إلى يوم الدين.

1- الروم: 57.

2- غافر: 52.

3- المؤمنون: 108-99.

الفصل السادس

اجتماعيات

217	يرفق بالأبناء ويحسن رعايتهم	36.
224	يعلمنا طلب الخلف من الله في المصيبة	37.
229	يبشر الأمهات الصابرات	38.
235	يبسط إجراءات الزواج ويحث عليه (ح1)	39.
241	يبسط إجراءات الزواج ويحث عليه (ح2)	40.
247	يحرم الخيانة الزوجية (ح1)	41.
253	يحرم الخيانة الزوجية (ح2)	42.
259	يحرم الخيانة الزوجية (ح3)	43.
265	يحرم الخيانة الزوجية (ح4)	44.
271	يجلح امرأة من زوجها برضاها	45.
276	يأخذ العفو ويأمر بالمعروف (ح1)	46.
282	يأخذ العفو ويأمر بالمعروف (ح2)	47.
289	وذوي الاحتياجات الخاصة	48.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يرقق بالأبناء ويحسن رعايتهم

عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: (قَبِلَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الْحَسَنَ ابْنَ عَلِيٍّ، وَعِنْدَهُ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِسًا، فَقَالَ الْأَقْرَعُ: إِنَّ لِي عَشْرَةً مِنَ الْوَلَدِ، مَا قَبِلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ لَا يَرْحَمُ، لَا يَرْحَمُ).⁽¹⁾

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يبدي عاطفة جياشة نحو حفيده الحسن بن علي، رضي الله عنهما، فيقبله كما يفعل الآباء مع أبنائهم، تعبيراً عن الحب الذي يخالجه نحوه، فيستغرب الصحابي الأقرع بن حابس هذا التصرف الأبوي العفوي، مفصحاً عن شكل من أشكال جفاء الطبع نحو الأبناء، فيقول: بأن له عَشْرَةً مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبِلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا، فيجيبه الرسول، صلى الله عليه وسلم، بنظر الاستهجان، وتعبير اللسان عن إنكار هذا الجفاء، فيقول له: (مَنْ لَا يَرْحَمُ، لَا يَرْحَمُ). وفي رواية عن عائشة، رضي الله عنها، قالت جاء أعرابيٌّ إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: (تَقْبَلُونَ الصَّبِيَّانَ، فَمَا تَقْبَلُهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَوْ أَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ)⁽²⁾، أي لا أقدر أن أجعل الرحمة في قلبك بعد أن نزعها الله منه.⁽³⁾

العطف على الأبناء وحبهم وشجب جفائهم وقتلهم

يعزز الرسول، صلى الله عليه وسلم، بسلوك تقبيل الأبناء، منهج الرحمة بالأبناء والرفق بهم، مخالفاً منهج قساة القلوب، الذين لم ينعموا بالتخلق بالرحمة والاستجاشة بالعاطفة، فحرموا من نيل الرحمة الربانية، هؤلاء الذين لم يقبلوا أبناءهم، فكيف بالذين يعتدون على فلذات أكبادهم بالقتل أو الاضطهاد واقتراف جرائم الإيذاء، فقد أنكر الله أشد

1- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته.

2- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته.

3- فتح الباري، 10/430.

الإنكار على مرتكبي فعل الواد البشع لبناتهم، زمن الجاهلية الغبراء، فقال تعالى: {وَإِذَا
الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ* بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ}. (1)

ولا يبعد عن الوائدين أولئك الذين يستيبحون اضطهاد أبنائهم، فيحبسونهم أو بعضاً
منهم في ظروف مأساوية وهم في ريعان الطفولة، بسبب إعاقة ابتلوا بها، أو مشاكل ليسوا طرفاً
فيها، وبعض الآباء يلجأون إلى ارتكاب جرائم قتل جماعية لأبنائهم، متجردين من كل مشاعر
الإنسانية والأبوة والرحمة، وبعضهم يمارس صنوفاً مختلفة من ألوان العنف والأذى ضد أبنائهم
وأطفالهم، فأنى لهم أن يرحمهم الله، وقد نهى سبحانه وتعالى عن اقرار جريمة قتل الأبناء بسبب
الضائقة المالية، فقال تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ
كَانَ خَطِئًا كَبِيرًا} (2)، وقتل الأبناء جريمة نكراء حرّمها الله أشد التحريم، سواء كان سببها
اقتصادياً أم غير ذلك، وفي هذا التشنيع القرآني لجريمة قتل الأبناء رد عظيم، على من يسعون
لإجراء عمليات إجهاض لأجنة رزقهم الله إياهم، بسبب ضيق ذات اليد، أو طمعاً في الاستمتاع
بالرزق المتاح دونهم، بل إن بعض الجناة يلجأون إلى بيع أبنائهم في أسواق النخاسة مقابل
دراهم أو منافع مادية يطمعون في تحصيلها، والله جعل قتل الأبناء من كبائر الذنوب والآثام،
فقال تعالى: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا
تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطْنَ وَلَا
تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}. (3)

من أعظم الكبائر قتل الأبناء

سئل النبي، صلى الله عليه وسلم، أيُّ الذنوبِ أعظمُ عندَ اللهِ؟ قال: (أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً،
وهو خَلْقَكَ، قلت: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ! قلت: ثُمَّ أَيُّ؟ قال: وَأَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ، تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ
مَعَكَ، قلت: ثُمَّ أَيُّ؟ قال: أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ). (4)

1- التكوير: 9-8.

2- الإسراء: 31.

3- الأنعام: 151.

4- صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: {فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون}.

ووصف الله مقترفي هذه الجريمة بالخاسرين، فقال تعالى: {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا
أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا
مُهْتَدِينَ}.⁽¹⁾

وقتل الأبناء من أفعال المشركين المنكرة، التي يزينها لهم الشيطان وزبانيته، مصداقاً
لقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَاءُهُمْ لِيُرِدُّوهُمْ وَلَيْسُوا
عَلَيْهِمْ دِينُهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ}⁽²⁾، فحري بالمؤمن أن ينأى بنفسه
عن سلوك منهج المشركين، وصراطهم الضال المنحرف عن صراط الله المستقيم.

ووجه الله نبيه الكريم، صلى الله عليه وسلم، إلى مبايعة المؤمنين على أمور عظيمة،
منها الامتناع عن قتل أولادهن، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى
أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ
بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ}.⁽³⁾

تأجيل إقامة الحد على الحامل حتى تضع حملها ويستغني عن حضانتها

ومن الجوانب التي تظهر عناية الإسلام الفائقة بالأبناء والحرص على حفظ حياتهم،
ما يتضمنه نظام العقوبات في الإسلام، الذي يوجب إقامة الحدود على الجناة، ضمن شروط
وضوابط قررها الشرع الإلهي، فإن الحامل التي تقترف جريمة من الجرائم التي تستوجب حداً
إلهياً، يؤجل تنفيذ إقامة الحد عليها، حماية لجنينها وحفظاً لحياتها، وذلك بغض النظر عن شرعية
حملها أو غير شرعيته، لأنه ليس من العدل أن يحمل الجنين البريء وزر ما اقترفت أمه، وقد
قام الرسول، صلى الله عليه وسلم، بإرساء مبادئ هذا الموقف التشريعي السوي، خلال موقفه
من الغامدية التي وجب عليها حد الزنى، ففي الحديث الصحيح (أَنَّهُ جَاءَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْ غَامِدٍ
مِنَ الْأَزْدِ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ طَهَّرْنِي؟ فَقَالَ: وَيَحْكُ، ارْجِعِي فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ، وَتُوبِي إِلَيْهِ،

1- الأنعام: 140.

2- الأنعام: 137.

3- المسححة: 12.

فقلت: أَرَأَيْكَ تُرِيدُ أَنْ تُرَدِّدَنِي كَمَا رَدَّدْتَ مَاعِزَ بْنَ مَالِكٍ؟ قال: وما ذاك؟ قالت: إِنَّهَا حُبْلَى مِنْ الزَّوْنِيِّ، فَقَالَ: أَنْتِ؟ قالت: نعم، فقال لها: حتى تَضْعِي مَا فِي بَطْنِكِ، قال: فَكَفَّلَهَا رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ حَتَّى وَضَعَتْ، قال: فَآتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: قد وَضَعْتَ الْغَامِدِيَّةَ، فقال: إِذَا لَا تُرْجِمُهَا، وَنَدَعُ وَلَدَهَا صَغِيرًا، لَيْسَ لَهُ مِنْ يُرْضِعُهُ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فقال: إِلَيَّ رِضَاعُهُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ، قال: فَرَجَمَهَا⁽¹⁾.

وورد في صحيح مسلم بشرح النووي: (غامد) بغير معجمة ودال مهملة، هي بطن من جهينة، وأن قوله لها: (حتى تضعي ما في بطنك) فيه أنه لا ترجم الحبل حتى تضع، سواء كان حملها من زنى أم غيره، وهذا مجمع عليه، لئلا يقتل جنينها، وكذا لو كان حدها الجلد، وهي حامل، لم تجلد بالإجماع حتى تضع، وفيه أن من وجب عليها قصاص وهي حامل، لا يقتص منها حتى تضع، وهذا مجمع عليه، ثم لا ترجم الحامل الزانية، ولا يقتص منها، بعد وضعها حتى تسقي ولدها اللبن، ويستغني عنها بلبن غيرها⁽²⁾.

دية الجنين

جعل الرسول، صلى الله عليه وسلم، دية للجنين الذي يُسْقَطُ، أو يُجْهَضُ بفعل معتد، وهي غرة عبد أو أمة، فعن أبي هريرة، أنه قال: (قَضَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي جَنِينِ امْرَأَةٍ مِنْ بَنِي لَحْيَانَ سَقَطَ مَيْتًا بِغُرَّةِ عَبْدٍ أَوْ أَمَةٍ، ثُمَّ إِنَّ الْمَرْأَةَ الَّتِي قَضَى لَهَا بِالْغُرَّةِ، تُوفِّيَتْ، فَقَضَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِأَنَّ مِيرَاثَهَا لِبَنِيهَا وَزَوْجِهَا، وَأَنَّ الْعَقْلَ عَلَى عَصَبَتِهَا)⁽³⁾.

وفي رواية عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: (اقتتلت امرأتان من هذيل، فرمت أحدهما الأخرى بحجر، فقتلتها وما في بطنها، فاختصموا إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، فقضى أن دية جنينها غرة عبد أو وليدة، وقضى أن دية المرأة على عاقلتها)⁽⁴⁾.

1- صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى.

2- انظر: صحيح مسلم بشرح النووي، 201/11.

3- صحيح البخاري، كتاب الفرائض، باب ميراث المرأة والزوج مع الولد وغيره.

4- صحيح البخاري، كتاب الديات، باب جنين المرأة وأن العقل على الوالد وعصبة الوالد لا على الولد.

ثواب حسن رعاية الأبناء وتربيتهم

وفي مقابل التشنيع على مرتكبي جرائم قتل الأبناء، فإن الرسول، صلى الله عليه وسلم، وعد من يحسن رعاية الأبناء نيل الجنة، فعن عائشة، رضي الله عنها، قالت: (دَخَلَتْ امْرَأَةٌ مَعَهَا ابْنَتَانِ لَهَا تَسْأَلُ، فَلَمْ تَجِدْ عِنْدِي شَيْئًا غَيْرَ تَمْرَةٍ، فَأَعْطَيْتُهَا إِيَّاهَا، فَقَسَمَتْهَا بَيْنَ ابْنَتَيْهَا، وَلَمْ تَأْكُلْ مِنْهَا، ثُمَّ قَامَتْ، فَخَرَجَتْ، فَدَخَلَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَيْنَا، فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: مَنْ ابْتَلَى مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ بِشَيْءٍ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ).⁽¹⁾

وفي رواية أخرى عنها في صحيح البخاري: (مَنْ يَلِي مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ شَيْئًا، فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ، كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ).⁽²⁾

وأمر الله المؤمنين أن يبذلوا جهودهم في حسن تربية أبنائهم، فقال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقْوُدْهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ }.⁽³⁾

وعناية الرسول، صلى الله عليه وسلم، برعاية الأبناء وحسن تربيتهم، عامة شاملة؛ تعم مراحل حياتهم ووجودهم كلها، فالابن في الإسلام يحظى باهتمام وافر خلال فترة الحمل به، وبعدها، بل إن الزوجين حين يتوجه كل منهما لاختيار الآخر، يوجهان ليأخذا في الاعتبار انتقاء مصلحة الأبناء الصحية والتربوية والجمالية، من هنا نجد الرسول، صلى الله عليه وسلم، يوصي باعتبار الدين والخلق في المراد الزواج منها أو منه، فعن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (تَنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ؛ لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَظَفَرٌ بِذَاتِ الدِّينِ، تَرَبَّتْ بِذَلِكَ).⁽⁴⁾

ويكلف الله الأمهات والآباء بواجب رعاية الأبناء، كل في مجاله، وفي إطار مهمته، فيقول تعالى: { وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِيمَ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى

1- صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب اتقوا النار ولو بشق تمرة والقليل من الصدقة.

2- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته.

3- التحريم: 6.

4- صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين.

الْمَوْلُودَ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَالِدَيْهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوهُمَا أُولَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ⁽¹⁾.

وقد أباح الرسول، صلى الله عليه وسلم، لامرأة البخيل الذي يمنع عن أبنائه النفقة الواجبة، أن تأخذ من ماله دون علمه، لأداء هذا الواجب عنه، فعن عائشة، رضي الله عنها، قالت: (دَخَلْتُ هِنْدُ بِنْتُ عْتَبَةَ، امْرَأَةَ أَبِي سُفْيَانَ، عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ، لَا يُعْطِينِي مِنَ النَّفَقَةِ مَا يَكْفِينِي وَيَكْفِي بَنِيَّ، إِلَّا مَا أَخَذْتُ مِنْ مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمِهِ، فَهَلْ عَلَيَّ فِي ذَلِكَ مِنْ جُنَاحٍ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خِزِي مِنْ مَالِهِ بِالْمَعْرُوفِ مَا يَكْفِيكَ وَيَكْفِي بَنِيكَ⁽²⁾).

الإنصاف بين الأبناء ومنحهم حقوقهم المشروعة

يجعل الله للأبناء ذكوراً وإناثاً حقاً في ميراث آبائهم، فيقول تعالى: {يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفَعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً⁽³⁾، فلا يجوز لمسلم أن يتعدى حدود الله وشرعه، فيحرم بعض الأبناء، ويعطي الآخرين، بسبب ميل قلبي، أو موقف من جنسهم ذكوراً أو إناثاً، فكلهم أبناء، ولكلهم حق معلوم فيما ترك الوالدان أحدهما أو كلاهما، وكان للرسول، صلى الله عليه وسلم، موقف رافض لسلوك المحابة أو الحرمان الظالم الذي يقترفه بعض الآباء مع أبنائهم وبناتهم، فعن

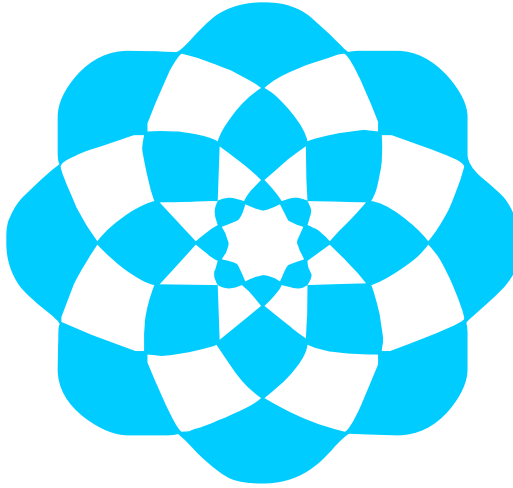
1- البقرة: 233.

2- صحيح مسلم، كتاب الأفضية، باب قضية هند.

3- النساء: 11.

التُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، (أَنَّ أَبَاهُ أَتَى بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: إِنِّي نَحَلْتُ
ابْنِي هَذَا غُلَامًا، فَقَالَ: أَكُلُّ وَلَدِكَ نَحَلْتُ مِثْلَهُ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَارْجِعْهُ).⁽¹⁾

أعاننا الله على الرفق بأبنائنا فلذات أكبادنا التي تمشي على الأرض، وصلى الله وسلم
وبارك على رسولنا محمد، وعلى آله وأزواجه أمهات المؤمنين، وصحابته الغر الميامين، ومن
تبعه ووالاه بإحسان إلى يوم الدين.



1- صحيح البخاري، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب الهبة للولد، وإذا أعطى بعض ولده شيئاً لم يجز، حتى يعدل بينهم، ويعطى
الآخرين مثله، ولا يشهد عليه.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يعلمنا طلب الخلف من الله في المصيبة

عن أمِّ سلمةَ، أنها قالت: سمعت رسولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: (ما من مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فيقول ما أمره الله: **إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**، اللهم أجرني في مصيبي، وأخلف لي خيراً منها، إلا أخلف الله له خيراً منها...). (1)

يدل هذا الحديث الشريف على فضل سلوك الهدى في مواجهة المصائب التي تواجه الإنسان، الذي يتعرض خلال رحلة حياته الدنيا إلى ظروف وأحوال تسره، وأخرى تؤرقه وتحزنه، فإذا استرجع، وطلب الخلف والثواب من الله، فقد اجتاز الامتحان بنجاح، واستعاض بخلف من الله يفوق في خيره ونفعه وخصائصه النقص الذي حصل جراء المصيبة التي حلت به، وما ترتب عليها من خسارة ونقص وأذى.

ومعنى (أجرني): أي أعطني أجر وجزاء صبري وهمي في مصيبي، ومعنى (أخلف لي): أي رد عليّ مثل ما أصابني، فيقال في اللغة لمن ذهب له مال أو ولد أو قريب أو شيء، يتوقع حصول مثله: أخلف الله عليك؛ أي رد عليك مثله. (2)

فالمؤمن يطلب الأجر على المصيبة التي تنتابه، ويدعو الله أن يعوضه عنها بخير خلف، ويعبر عن حقيقة إيمانه ويقينه عندها بقوله: **"إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ"**، لأنه يؤمن بأن الله خلقه وأنشأه، ويميته ويبعثه متى شاء، وهو سبحانه على كل شيء قدير، يحيي ويميت وإليه النشور.

مواجهة اختبار نقص الأنفس والأحبة بالصبر والاحتساب

من سنة الله في خلقه أن يبتليهم، ليختبر إيمانهم، ويمحص صدقهم، ويظهر حقيقة ما تكن صدورهم، وما يعمر قلوبهم، ويخبر الله تعالى عن صنوف من هذا الابتلاء، فيقول

1- صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب ما يقال عند المصيبة.

2- صحيح مسلم بشرح النووي، 6/220.

سبحانه: {وَلَنْبَلُونَكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ* الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ*} أَوْلَيْكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأَوْلَيْكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}. (1)

فلا تثبت أحوال الحياة الدنيا على حال واحد، وإنما هي متقلبة بين السرور والشور، والشاعر يقول: ثمانية لا بُدَّ منها على الفتى ولا بُدَّ أن تجري عليه الثمانية سرور وهم واجتماع وفرقة ويسر وعسر ثم سقم وعافية ويدعو الإمام الشافعي، رحمه الله، إلى الجلد في مواجهة المصائب، فيقول:

دَعِ الْأَيَّامَ تَفْعَلْ مَا تَشَاءُ وَطِبُّ نَفْسًا إِذَا حَكَمَ الْقَضَاءُ
وَلَا تَجْزَعُ لِحَادِثَةِ اللَّيَالِي فَمَا لِحَوَادِثِ الدُّنْيَا بَقَاءُ
وَكُنْ رَجُلًا عَلَى الْأَهْوَالِ جَلْدًا وَشِيمَتِكَ السَّمَاةُ وَالْوَفَاءُ
وَلَا حُزْنَ يَدُومُ وَلَا سُرُورَ وَلَا بؤْسَ عَلَيْكَ وَلَا رَحَاءُ

احتساب ضحايا حوادث المرور

لقد اعتاد شعبنا الصابرين على التعرض لحالات النقص الجماعي والفردى في الأنفس، التي كان آخر مشاهدتها ما تمخضت عنه حوادث المرور المؤلدة التي حصدت أرواحاً بريئة من فلذات أكبادنا، الذين قضوا نحبتهم وهم في مقتبل العمر، فأدمى فراقهم القلوب، وأذرف العيون، وكان ابتلاء صعباً، استدعى الصبر والاحتساب؛ لأن المؤمن على يقين بأن المبتلى إذا صبر على المصيبة، واسترجع - قال: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ - فقد فاز بصلوات الله عليه، ونال رحمته سبحانه، واستحق شهادة الله له بالهدى، وقد وعد الله سبحانه وتعالى من يحتسب المصيبة، ويصبر على أهلها، الجنة، ففي الحديث القدسي الصحيح عن أبي هريرة، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: (يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: مَا لِعِبْدِي الْمُؤْمِنِ عِنْدِي جَزَاءٌ إِذَا قَبِضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، ثُمَّ احْتَسَبَهُ إِلَّا الْجَنَّةَ). (2)

1- البقرة: 155-157.

2- صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب العمل الذي ينبغي به وجه الله.

لله ما أخذ، ولله ما أعطى، وكل شيء عنده بمقدار

يصعب على الإنسان أن يتجرد من عواطفه ومشاعره، في السراء والضراء، فهو بطبيعته يفرح لما يسره ويبتهج، ويحزن لما يؤله ويؤذيه، غير أن المؤمن لا يفقد صوابه في الحالتين، لأن أمره كله خير، فلا يبطر في الفرح، ولا يقنط في الحزن، فإذا انتابه الحزن صبر واحتسب، رغم ما قد يظهر عليه من دلالات التأثير الطبيعي بالحزن والمصاب الذي ألم به، فعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما، قال: (أرسلت ابنة النبي، صلى الله عليه وسلم، إليه، إن ابناً لي قيص، فائتنا، فأرسل يقرئ السلام، ويقول: إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل عندك بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب، فأرسلت إليه تُقسِمُ عليه ليأتينها، فقام ومعه سعد بن عبادة ومعاذ ابن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ورجل، فرُفِعَ إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الصبي، ونفسه تتفقع، قال: حسبته أنه قال: كأنها سن، ففاضت عيناه، فقال سعد: يا رسول الله؛ ما هذا؟ فقال: هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء.)⁽¹⁾

ذرف دمع الرحمة والتزام قول ما يرضي الله عند الحزن

الرسول، صلى الله عليه وسلم، بشر، تجري عليه أعراضهم، فيحزنه فقد العزيز، ويؤله فراق الحبيب، غير أنه لا يأتي من الأفعال، ولا يصدر عنه من الأقوال في كل أحواله إلا وفق ما يرضي ربه سبحانه وتعالى، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: (دخلنا مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، على أبي سيف القين وكان ظئراً⁽²⁾ لإبراهيم، عليه السلام، فأخذ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إبراهيم، فقبله وشمه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك، وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عيننا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، تدرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: وأنت يا رسول الله؟! فقال: يا ابن عوف؛ إنها رحمة، ثم أتبعها بأخرى، فقال صلى الله عليه وسلم: إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإننا بفرأقك يا إبراهيم لمحزونون.)⁽³⁾

1- صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم، يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه، إذا كان النوح من سنته.

2- والظئر هو زوج المرصعة.

3- صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم، إنا بك محزونون.

لا يعذب الله بدمع العين ولا حزن القلب

حين يعبر المؤمن عن حزنه وألمه بدمع عينه، فإنه يتماشى مع فطرته التي خلقه الله عليها، وطبيعة مكوناته العاطفية والجسدية، حيث تذرف الدموع، وتنسكب العبرات من عينيه في كثير من الظروف، دون أن يملك القدرة على ردها، أو إخفائها، وقد ثبت أن النبي، صلى الله عليه وسلم، بكى في أكثر من مناسبة وظرف، متأثراً بحدث أو مصاب، وكان يُسأل عن ذلك، فيجيب بأن الله لا يعذب بدمع العين ولا يحزن القلب، فعن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، قال: (اشتكى سعد بن عبادة شكوى له، فاتاه النبي، صلى الله عليه وسلم، يعوده مع عبد الرحمن بن عوفٍ وسعد بن أبي وقاصٍ وعبد الله ابن مسعودٍ، رضي الله عنهم، فلما دخل عليه، فوجده في غاشية أهله، فقال: قد قضى؟ قالوا: لا يا رسول الله؛ فبكى النبي، صلى الله عليه وسلم، فلما رأى القوم بكاء النبي، صلى الله عليه وسلم، بكوا، فقال: ألا تسمعون إن الله لا يعذب بدمع العين، ولا يحزن القلب، ولكن يعذب بهذا، وأشار إلى لسانه، أو يرحم، وإن الميت يعذب ببكاء أهله عليه، وكان عمر، رضي الله عنه، يضرب فيه بالعصا، ويرمي بالحجارة، ويحشي بالتراب).⁽¹⁾

فالبكاء الهادئ الذي يعبر عن حزن القلب لا يضير، وإنما ورد النهي عن النياحة، لذا كان عمر، رضي الله عنه، يعاقب على النياحة، والذي يعذب ببكاء أهله هو من علم بصنيعهم قبل موته، ورضي به، أو أوصاهم به، مع الإشارة إلى أن عائشة، رضي الله عنها، كانت تنكر القول بأن الميت يعذب ببكاء أهله، محتجة بقوله تعالى: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} (2) (3).

تكفير الذنوب والخطايا بالهم والحزن

يتحصن المؤمن بإيمانه بالقضاء والقدر، في التغلب على صعاب الحياة، ووقع مصائبها، لأنه على يقين بأن استسلامه للأحزان لا يعيد له مفقوداً، ولا يرد ضائعاً، وهو على يقين

1- صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب البكاء عند المريض.

2- الإسراء: 15.

3- فتح الباري، 101/2.

كذلك بأن الله لا يضع أجر صابر محتسب، فيستثمر المؤمن ظروف المعاناة والأذى والمرض في الاستنقاء من الذنوب والتطهر من الخطايا، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: (مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ، وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشُّوْكَةِ يُشَاكِهَهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ).⁽¹⁾

أمر المؤمن كله خير

إن مما يميز المؤمن في أحواله كلها؛ شكره النعم، وصبره على المحن، فعن صُهَيْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ).⁽²⁾

وهو بهذا ينال رضا الله ومثوبته، وجزيل خيره في الحالين، فالله وعد الشاكرين بزيادة النعم، في مقابل وعيد الجاحدين بالعذاب الشديد، فقال سبحانه وتعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}⁽³⁾، وجاء الحث على الشكر، والكف عن الجحود والكفر بصيغة الأمر والنهي، فقال تعالى: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ}.⁽⁴⁾

فالمؤمن يستنبت ثمار الثواب، ثم يقطفها خيراً وافراً ونعيماً خالداً، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم، وقال إنني من المسلمين، وثبت أنه من المخلصين الصابرين المحتسبين.

هدانا الله تعالى لنكون من الصابرين المحتسبين المستجيرين بالله على يقين، حتى نكون من المتأسين بنبينا الكريم محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1- صحيح البخاري، كتاب المرضى، باب ما جاء في كفاة المرضى.

2- صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير.

3- إبراهيم: 7.

4- البقرة: 152.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يبشر الأمهات الصابرات

عن أبي سعيد الخدري، قالت النساء للنبي، صلى الله عليه وسلم: (غَلَبْنَا عَلَيْكَ الرَّجَالَ، فَاجْعَلْ لَنَا يَوْمًا مِنْ نَفْسِكَ؟ فَوَعَدَهُنَّ يَوْمًا لَقِيَهُنَّ فِيهِ، فَوَعظَهُنَّ وَأَمَرَهُنَّ، فَكَانَ فِيهَا قَالَ لَهُنَّ: مَا مِنْكُنَّ امْرَأَةٌ تَقْدُمُ ثَلَاثَةَ مِنْ وَلَدِيهَا، إِلَّا كَانَ لَهَا حِجَابًا مِنَ النَّارِ، فَقَالَتْ امْرَأَةٌ: واثنين، فقال: واثنين).⁽¹⁾

يدلل الرسول، صلى الله عليه وسلم، في هذا الحديث الشريف على عنايته عليه الصلاة والسلام بالمرأة، واهتمامه في فتح مجال العلم والتعلم للنساء، وإنقاذهن من برائن الجهل والتخلف، وإعطائهن حرية ممارسة طلب العلم بشجاعة وجرأة، ولم ينكر ذلك عليهن، بل استجاب لمطلبهن المشروع في طلب العلم، مضيفاً إلى هذه الاستجابة جائزة زف بها البشرى للأمهات الصابرات المحتسبات، اللواتي فقدن فلذات الأكباد، فما جزعن، ولا شققن الثياب، وإنما امتثلن أمر الله تعالى الذي ورد في سياق زف البشرى للصابرين على البلاء، فقال سبحانه وتعالى: {وَلْتَبْلُوْنَكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصِ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}.⁽²⁾

فالصابرون لهم البشرى، وهم المهتدون، الذين تنزل عليهم رحمة الله ورضوانه، والصابرات مشمولات بهذه البشرى المباركة نفسها، وفي موضع قرآني آخر خص الله ذكرهن مقروناً بذكر الصابرين، في سياق تعداد صفات المؤمنين نساء ورجالاً الذين أعد الله لهم المغفرة والرحمة والأجر العظيم، فقال تعالى: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ

1- صحيح البخاري، كتاب العلم، باب هل يجعل للنساء يوم على حده في العلم.

2- البقرة: 155-157.

وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ
وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا⁽¹⁾.

صبر الأم الفلسطينية

تتجرع الأم الفلسطينية مرارة الظلم الواقع عليها وشعبها وأبنائها بصبر وإباء وجلد قل نظيره، فهي التي تتلقى خبر استشهاد ابنها دون أن تجزع، ويخطف ابنها من بين يديها وهي تتحرق أسى غير أنها لا تجزع، وتزور ابنها الأسير بعد أن تقطع من أجل ذلك السفر الشاق، وتمر في إجراءات صعبة ومعقدة وقاسية، وهي في طريقها لمشاهدته مرات محدودة في العام، ورغم ما يؤنسها مما تجد من إرادة ابنها الصلبة، وعزمته الأبية، إلا أنها يتفطر قلبها، وهي ترى القيد على معصميه، ويجر جر رجليه بسلاسل سجانیه، وتشاهده وتكلمه في ظروف قاسية، وفي زيارة تستغرق وقتاً محمداً جداً، فما أن تبدأ زيارته حتى تنتهي لقصر وقتها، ومع ذلك تعود من عنده تنقل عنه بواعث التفاؤل والأمل، والعزم على المضي قدماً على درب الصبر، والثبات على الحق، واليقين بنصر الله المؤزر القريب، الذي وعده الصابرين على صراطه المستقيم، الذين نصرُوا الله فحق لهم أن ينصرهم، مصداقاً لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ}⁽²⁾، فهم المؤمنون الذين يشكرون الله في السراء، ويصبرون على الضراء، فيحمد الله شكرهم، ويذكرهم كما ذكره، إذ يقول تعالى: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ}⁽³⁾، بل الله يذكر عباده المؤمنين والمؤمنات في ملاً خير من الملاً الذي ذكره فيه، فعن ابن عباس عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عن ربه عز وجل، قال: (أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنِ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ؛ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنِ ذَكَرَنِي فِي مَلٍ؛ ذَكَرْتُهُ فِي مَلٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ).⁽⁴⁾

1- الأحزاب: 35.

2- محمد: 7.

3- البقرة: 152.

4- صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {ويذكركم الله نفسه}.

فهنيئاً لك أيتها الأم الصابرة الذاكرة المحتسبة، فأنت مع المنصورين، إن شاء الله، ومع
الذاكرين والذاكرات الذين سوف يذكرهم الله أمام ملائكته وخير خلقه.

الصبر عند الصدمة الأولى

إن مما يجدر التنبيه إليه في سياق الحديث عن صبر الأمهات، وأجرهن عليه، أن الصبر
المُجور ينبعث من النفس الراضية بقضاء الله وقدره، التي تحتسب ثوابه من ربها، وليس
الصبر المزاجي الانتقائي، الذي يختار له المرء الظروف والأوقات والأماكن، وخير ما يؤكد هذه
القاعدة، ما أرساه النبي، صلى الله عليه وسلم، من مبدأ بهذا الخصوص، في ضوء ما جاء عن
أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: (مَرَّ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرِ،
فَقَالَ: اتَّقِي اللَّهَ، وَاصْبِرِي، قَالَتْ: إِلَيْكَ عَنِّي، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبِّ بِمُصِيبَتِي، وَلَمْ تَعْرِفْهُ، فَقِيلَ لَهَا:
إِنَّهُ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَتَتْ بَابَ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ
بَوَائِينَ، فَقَالَتْ: لَمْ أَعْرِفْكَ، فَقَالَ: إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى).⁽¹⁾

صبر الأمهات على معاناتهن جراء الحمل والولادة ورعاية الولد

لا تقتصر معاناة الأم على ألم فراق فلذة الكبد وموته أو استشهاده أو سجنه، وإنما تبدأ
معاناتها بولدها، قبل أن يرى نور الدنيا، وهي تحمله في أحشائها، وحال وضعه وولادته،
وأثبت الله تعالى في قرآنه الكريم خبر هذه المعاناة لأهميتها وحقيقتها وجودها، فيقول سبحانه
وتعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي
وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ}⁽²⁾، وورد في سورة الأحقاف التعبير عن معاناة الأم بحملها، بوصفه
بالكره بدل الوهن، فقال تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ
كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ
أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي
دُرِّي نِيَّيَ إِنِّي تَبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ}.⁽³⁾

1- صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب زيارة القبور.

2- لقمان: 14.

3- الأحقاف: 15.

فلحمل بالولد شاق وصعب، وحتى لا يغفل الأبناء عن واجبهم تجاه أمهاتهم اللاتي ولدنهم، فإن الله تعالى يذكرهم بحقيقة ما وجدن من معاناة وألم حتى يسر الله لهم الوجود على هذه المعمورة، بعد أن عاشوا أشهراً في جوفهن، يمتصون الغذاء من أبدانهن وطعامهن، ثم يواصلون الامتصاص منهن رحيق الحياة اللازم لبقائهم بعد ولادتهم، فمن حقهن عليهم أن يبروهن ويحسنوا إليهن، ولعظم حق الوالدين على أبنائهم، فإن الرسول، صلى الله عليه وسلم، بين أن مجازاتهما منهم لن يتحقق وجودها، ذاكراً احتمالاً مستبعداً لتحقيق هذه المكافأة، فعن أبي هريرة، قال: **(قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: لا يجزي ولدٌ وإلدهُ إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه).** (1)

أمهات صابرات ذكهن القرآن الكريم

البتول مريم بنت عمران، أم عيسى عليه السلام

تعرض القرآن الكريم لذكر عدد من الأمهات اللواتي تميزن بابتلاءات مختلفة بسبب حملهن بالولد، أو بالحسرة عليه بسبب استهدافه ببطش الظالمين وإجراءاتهم الجائرة، ومواقفهم القاسية أو المفترية، فذكر القرآن الكريم مريم بنت عمران التي حملت بولدها المسيح عيسى، عليه السلام، دون زواج، فكان ذلك آية من آيات الله الخارقة، وفي الوقت نفسه؛ كان ابتلاء صعباً لها، وقد سرد القرآن الكريم قصة حملها، وما عانت بسببه، واستهجان قومها حملها، وإنكارهم عليها أن تحمل دون زواج، فقال تعالى في حقها: **{قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا * فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّسِيًّا * فَوَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهَزِيْ إِيَّاكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا حَنِئًا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فِيمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا * فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أختَ**

1- صحيح مسلم، كتاب العتق، باب عتق الولد.

هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعْثًا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا⁽¹⁾، فتمنت مريم، عليها السلام، لو ماتت، وكانت نسيًا منسيًا، بدلاً من حملها دونما زواج، وذلك إدراكاً منها لقيمة الطهر والعفة، وحرصاً شديداً على إنكار التلبس بالبغي والفاحشة، فجاءتها الطمأنينة الربانية والدلائل العلمية على أن الأمر أمر الله، بدليل المؤيدات التي حصلت وشاهدتها، ومع ذلك فقد أنكر قومها حملها، واتهمها بعضهم بما لا يليق بمقام طهرها، فصبرت على حملها في هذا الظرف الصعب.

أم موسى عليه السلام

كما ذكر القرآن الكريم أم موسى، عليه السلام، التي ألقته ابنها موسى في البحر، على طريقة التهريب والفرار بالجلد من سياط الظالمين، وملاحقتهم الظلمة، وإجرامهم البشع، غير أنها كادت تفقد صوابها، وأشرف قلبها أن يتقطع حزناً وأسىً على ابنها، وخوفاً على مصيره، ومما قاله تعالى بشأن ذلك: {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَدْبَحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} إلى قوله تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فِإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ}.⁽²⁾

وتتناول سورة طه تفصيلاً بعض مقاطع قصة معاناة أم موسى، عليه السلام، بسبب الحرص عليه والخوف، فقال تعالى: {وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى * إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَى * أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِيفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي * إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَى}.⁽³⁾

1- مريم: 20-29.

2- القصص: 4+7.

3- طه: 37-40.

ومن هذا السياق القرآني؛ يتبين أن الله تعالى كان بقدرته ورحمته في عون أم موسى، فرد إليها ابنها الذي ألقته بيديها في اليم، حرصاً على نجاته، فكان البحر واحتمال الغرق فيه، أهون عليها من أن يخطفه الظلمون ويذبحوه على بصرها وأمام ناظريها، ورجت من الله اللطف فيه، فكان لها ما سألت، إذ هيا الله الأسباب ليعود موسى معززاً مكرماً لحضانه أمه ورعايتها، حتى تشفي غليلها وتسكن حرارة شوقها إليه، وبشير القرآن الكريم إلى مقاطع من هذه الحثيات في سورة القصص، فيقول تعالى: { وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ * فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ } (1).

وهكذا؛ الأمهات الصابرات المحتسبات المؤمنات، في كل زمان ومكان، يواجهن الابتلاء المتمثل في اضطهاد الظالمين لأبنائهن بصبر واحتساب، ورجاء المدد والعون والرعاية والحفظ من الله تعالى، وهو سبحانه على كل شيء قدير، فاللهم احفظ أبناء الأمهات الصابرات، كما حفظت موسى وعيسى وإبراهيم، عليهم السلام، وأولياءك الصادقين الصابرين المحتسبين. وصلى اللهم على نبينا محمد بن عبد الله، وعلى آله وأصحابه وأزواجه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الرسول الأُسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يبسط إجراءات الزواج ويحث عليه

الحلقة الأولى

عن سَهْل بن سَعْدٍ قال: (أَتَتِ النبي، صلى الله عليه وسلم، امرأةٌ فقالت: إِنَّهَا قد وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، صلى الله عليه وسلم، فقال: ما لي في النِّسَاءِ من حَاجَةٍ، فقال رَجُلٌ: زَوَّجْنِيهَا، قال: أَعْطِيهَا ثَوْبًا، قال: لا أُجِدُّ، قال: أَعْطِيهَا وَلَوْ خَاتَمًا من حَدِيدٍ، فَأَعْتَلَّ له⁽¹⁾، فقال: ما مَعَكَ من الْقُرْآنِ؟ قال: كَذَا وَكَذَا، قال: فَقَدْ زَوَّجْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ من الْقُرْآنِ⁽²⁾).

وجاء بعض التفصيل لهذه الحادثة في رواية صحيحة أخرى، وفيها أن رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال لذاك الرجل: (أَذْهَبُ إِلَى أَهْلِكَ، فَانظُرْ هل تَجِدُ شَيْئًا؟ فَذَهَبَ، ثُمَّ رَجَعَ، فقال: لا والله يا رَسُولَ اللَّهِ، ما وَجَدْتُ شَيْئًا، قال: انظُرْ وَلَوْ خَاتَمًا من حَدِيدٍ، فَذَهَبَ ثُمَّ رَجَعَ، فقال: لا والله يا رَسُولَ اللَّهِ، ولا خَاتَمًا من حَدِيدٍ، وَلَكِنْ هَذَا إِزَارِي، قال سَهْلٌ - رَوَى الحديث: ما له رِداءٌ فَلَهَا نِصْفُهُ، فقال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: ما تَصْنَعُ بِإِزَارِكَ إِنْ لَيْسَتْهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا مِنْهُ شَيْءٌ، وَإِنْ لَيْسَتْهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْكَ شَيْءٌ؟ فَجَلَسَ الرَّجُلُ، حَتَّى طَالَ مَجْلِسُهُ، ثُمَّ قَامَ، فَرَأَى رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، مُؤَلِّيًا، فَأَمَرَ بِهِ فَدُعِيَ، فَلَمَّا جَاءَ، قال: مَاذَا مَعَكَ من الْقُرْآنِ؟ قال: مَعِيَ سُورَةٌ كَذَا، وَسُورَةٌ كَذَا، وَعَدَّهَا، قال: أَتَقْرَأُهَا عَنْ ظَهْرِ قَلْبِكَ؟ قال: نعم، قال: أَذْهَبَ فَقَدْ مَلَكَتْكَهَا بِمَا مَعَكَ من الْقُرْآنِ⁽³⁾).

1- المقصود بقوله (فأعتل له) حزن وتضجر من أجله، أو تعطل أنه لم يجده.

2- صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه.

3- صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب القراءة عن ظهر القلب.

يظهر هذا الحديث الشريف برواياته مدى تبسيط الرسول، صلى الله عليه وسلم، لإجراءات الزواج ومتطلباته، مبدئياً حرصه على تجاوز العقبات التي يمكن أن تعترض تحقيق الزواج الشرعي لطالبه على سنة الله ورسوله، ذكراً كان أم أنثى، فالمرأة جاءت طالبة الزواج منه صلى الله عليه وسلم، فلم ينكر عليها ذلك، غير أنه رد طلبها بلطف، فتقدم راغب في الزواج منها، إلا أنه لا يملك ما يقدمه لها من مال، فتدرج الرسول، صلى الله عليه وسلم، في طلب يسير المال منه ليقدمه مهراً لتلك المرأة، حتى أفصح ذاك الرجل عن رصيده الشاغر من الأموال، ومن أبسط الممتلكات، ومع ذلك؛ لم يتركه الرسول، صلى الله عليه وسلم، دون مساعدة يجتاز بها هذه المحنة الاقتصادية التي تكاد تحول دون تحقيق رغبته في الزواج، فلما وجد معه قرآناً يحفظه، قبل به مهراً لتلك المرأة التي فوضته بأمرها صلى الله عليه وسلم، فتحققت بذلك لهذين الشخصين رغبتهما في الزواج بفضل هذا الموقف النبوي الإيجابي، الذي ينبغي أن يحتذى من أولي الأمر، سواء أكانوا آباء وأمهات، أم قادة مجتمع ومؤسسات وعائلات، ليقوموا بواجبهم نحو تيسير الزواج للراغبين فيه أو محتاجيه من الجنسين، بدلاً من أن يكتفوا بمواقف سلبية حيال معضلة معوقات الزواج المادية، التي تحول دون زواج أبناء المجتمع وبناته، تحت ذريعة العجز عن تأمين متطلبات مراسم الزواج وتبعاته التي ما أنزل الله في كثير منها من سلطان، سوى التبعية العمياء لأعراف دمرت، وما زالت كثيراً من طموح الذين يتطلعون إلى اليوم النبي يتأهلون فيه بالزواج، استجابة لدوافعهم الفطرية، التي فطر الله الخلق عليها، وأشارت إليها دلالات حديث الرسول، صلى الله عليه وسلم، الذي يرويه الصحابي أنس، إذ قال: **(أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سَأَلُوا أَرْوَاحَ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَنْ عَمَلِهِ فِي السِّرِّ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَنْزَوْجُ النِّسَاءِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَكُلُ اللَّحْمَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا**

أَنَامَ عَلَى فِرَاشٍ، فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَا بَلَ أَقْوَامٌ قَالُوا كَذَا وَكَذَا؟ لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي، فَلَيْسَ مِنِّي).⁽¹⁾

فما أحرى المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وبخاصة في مجتمعنا الذي يواجه الحن والصعاب أن يبادروا إلى تيسير الزواج لمريديه على وجهه الشرعي، وأن يلقوا من وراء ظهورهم تلك الشكليات والكماليات التي ترهق كاهل الفقير، إن لم تعجزه عن طلب الزواج والسعي إليه، إضافة إلى ما تلحق بالغني من أضرار في الخلق والدين والسلوك والانطباع السيء لدى الناس، كونهم يشكلون عقبة تحول دون تجاوز العقبات التي تعترض سبيل الزواج، لأن الناس يتبعونهم خوفاً من العار وكلام الناس، فهل يشهد صيفنا هذا الذي عادة ما تعج مواسمه بالأفراح استجابة لهذا النداء؟ نسأل الله أن يبلغ هذا الحديث مسامع أصحاب القلوب الواعية وقناعاتهم، الذين إذا ذكروا بالحق استجابوا، ولم يصروا على خطأ ولا خطيئة.

يقر من تزوج على وزن نَوَاةٍ

ليست الحادثة التي يتضمنها الحديث أعلاه فريدة، في مجال ممارسة تبسيط إجراءات الزواج، وتسهيل أموره، وتيسير تحققه، بل جاء في أحاديث صحيحة أخرى ما يثبت ممارسة هذا التبسيط في أوساط المجتمع المسلم الذي كان يقوده الرسول، صلى الله عليه وسلم، وكان عليه الصلاة والسلام يقر ذلك التبسيط ويباركه، فعن أنسٍ (أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ ابْنَ عَوْفٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً عَلَى وَزْنِ نَوَاةٍ، فَرَأَى النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِشَاشَةِ الْعُرْسِ، فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: إِنِّي تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً عَلَى وَزْنِ نَوَاةٍ).⁽²⁾

فالصحابي الجليل عبد الرحمن بن عوف أخبر الرسول، صلى الله عليه وسلم، أنه دفع مهراً لامرأة تزوجها، مقداره وزن نواة، ولم يعترض الرسول، صلى الله عليه وسلم، على ذلك، ومعلوم أن هذا الصحابي لم يدفع هذا القدر مهراً بخلاً، وإنما كان زواجه بعد

1- صحيح مسلم، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تافت نفسه إليه، ووجد مؤنة، واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم.

2- صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب قول الله تعالى: {وَأَتُوا النِّسَاءَ صِدْقَاتِهِنَّ نَحْلَةً}.

أن هاجر إلى المدينة، وشرع ببناء أسرة في مهجره، بعد أن ترك المال والأهل بسبب الهجرة بالدين من مكة إلى المدينة المنورة، فعندما توافر لديه بعض المال تزوج بما تيسر، دون تكلف أو تحمل لأعباء تثقل الكاهل، فعن أنسٍ رضي الله عنه، قال: (قَدِمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ عَوْفِ الْمَدِينَةِ، فَآخَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ الْأَنْصَارِيِّ، وَكَانَ سَعْدٌ ذَا غِنَى، فَقَالَ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ: أَقَاسِمُكَ مَالِي نِصْفَيْنِ، وَأُزَوِّجُكَ، قَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ، دُلُّونِي عَلَى السُّوقِ، فَمَا رَجَعَ حَتَّى اسْتَفْضَلَ⁽¹⁾ أَقْطًا وَسَمَنًا، فَأَتَى بِهِ أَهْلَ مَنْزِلِهِ، فَمَكَّنَّا يَسِيرًا، أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ، فَجَاءَ وَعَلَيْهِ وَضْرٌ⁽²⁾ مِنْ صُفْرَةٍ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَهِيمٌ⁽³⁾، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ، قَالَ: مَا سَقَّتْ إِلَيْهَا؟ قَالَ: نَوَاةٌ مِنْ ذَهَبٍ، أَوْ وَزَنَ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ، قَالَ: أَوْلِمَ وَلَوْ بِشَاةٍ⁽⁴⁾).

فمهر امرأة ابن عوف كان نواة من ذهب، أو وزن نواة، وذروة احتفاله بزواجه كانت عبارة عن وليمة بشاة، احتفل بتناولها مع أصحابه ومدعويه، فتم له الزواج دون أن ينتظر أعواماً عجافاً حتى يجمع مالاً هائلاً يمكنه من مجارة الناس في تحضير لوازم الاحتفال بالزواج ومتطلباته الكمالية.

تبسيط ولائم الزواج حسب الوسع والطاقة

حث الرسول، صلى الله عليه وسلم، على إقامة وليمة الزواج، ويفهم بعض الناس من ذلك فهماً خاطئاً، أو يقعون في الأخطاء المرهقة والمزعجة، حين يكلفون أنفسهم فوق وسعهم وطاقتهم من أجل إقامة ولائم عنوانها التباهي والمفاخرة، والرسول، صلى الله عليه وسلم، أولم غير أنه لم يتكلف، ولم يتحمل أعباء ثقيلة، ولم يرهق كاهله بالوليمة،

1- المقصود بـ(استفضل): ربح.

2- (وضر): تلتخ من أثر الطيب الذي له لون.

3- (مهيم): ما هذا وما أمرك، وهي كلمة يستعملها أهل اليمن.

4- صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب ما جاء في قول الله تعالى: {وإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض}.

فعن أنسٍ، قال: (ما أولم النبي، صلى الله عليه وسلم، على شيءٍ من نسائه ما أولم على زينب، أولم يشاة).⁽¹⁾

وعن أنس بن مالك، قال: (ما أولم رسول الله، صلى الله عليه وسلم على امرأةٍ من نسائه أكثر أو أفضل مما أولم على زينب، فقال ثابت البناني: بما أولم؟ قال: أطعمهم خبزًا ولحمًا حتى تركوه)⁽²⁾، فعندما كانت وليمة الرسول، صلى الله عليه وسلم، عن زينب أكثر ولائمه على أزواجه، وكانت عبارة عن شاة أطعم من لحمها مع خبز ضيوفه.

وفي صحيح البخاري باب (من أولم بأقل من شاة)، وتحتة عن صفية بنت شيبة، قالت: (أولم النبي، صلى الله عليه وسلم، على بعض نسائه بمدنين من شعير).⁽³⁾

والمبالغة في الولايم، وبخاصة للذين يشقون على أنفسهم بها، توقعهم في محاذير قبيحة، منها التبذير والإسراف، والسفه بالترف في المال، والله تعالى يذم هذه الأنماط السلوكية في بعض آياته القرآنية، فيقول تعالى في المبذرين: {إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا}.⁽⁴⁾

ويقول في المسرفين: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا} ⁽⁵⁾، وينهى سبحانه عن تسليم المال للسفهاء الذين يسيئون التصرف به، فيقول تعالى: {وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارزُقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفاً}.⁽⁶⁾

1- صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الوليمة ولو بشاة.

2- صحيح مسلم، كتاب النكاح، باب زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب وإثبات وليمة العرس.

3- صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب من أولم بأقل من شاة.

4- الإسراء: 27.

5- الإسراء: 29.

6- النساء: 5.

حث الشباب على الزواج

الرسول، صلى الله عليه وسلم، بحكمته، وبعد نظره، وواقعيته، يدرك حاجة الشباب الملحة إلى الزواج، يشجعهم عليه إن استطاعوه، وحتى يتحقق لهم النجاح في تحصيله، يحثهم عليه الصلاة والسلام على معالجة دوافعهم الفطرية إليه بالصوم، مبيناً فوائد الصوم الخالص لوجه الله تعالى في مكافحة الرغبة الجاحمة في الزواج لمن لا يقدر على مؤنته، فعن عبد الله، قال: (كنا مع النبي، صلى الله عليه وسلم، شبَّاباً لا نجدُ شيئاً فقال لنا رسول الله، صلى الله عليه وسلم: يا معشرَ الشباب؛ من استطاعَ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فإنه أَغْضُ لِلْبَصْرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؛ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فإنه له وَجَاءٌ).⁽¹⁾

وعلى هذا النهج سار خيار الصحابة وفقهاؤهم في الحث على الزواج، والتشجيع عليه، فعن سعيد بن جبير، قال: (قال لي ابن عباس: هل تزوجت؟ قلت: لا؛ قال: فتزوج، فإن خيرَ هذه الأمةِ أكثرُها نساءً).⁽²⁾

وفق الله شبابنا وفتياتنا ليعفوا أنفسهم بالزواج، وهدى الله أولياء الأمور وقادة المجتمع ليبادروا ويسارعوا إلى عمل ما يمكن بشكل فاعل على تيسير الزواج، وتبسيط إجراءاته، والتخفيف من تبعاته، حتى يصبح متاحاً لكل راغب أو راغبة في الستر والاستعفاف به، آمليين أن نتابع في الحلقة القادمة الحديث عن تبسيط إجراءات الزواج، والحث عليه، في ضوء سنة الرسول الكريم، وأسوتنا الحليم، محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1- صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب من لم يستطع الباءة فليصم.

2- صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب كثرة النساء.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يبسط إجراءات الزواج ويحث عليه

الحلقة الثانية

عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (تُنكحُ المرأةُ لأربعٍ؛ لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرَ بِدَاتِ الدِّينِ تَرَبَّتْ يَدَاكَ).⁽¹⁾

ينبه الرسول، صلى الله عليه وسلم، في حديثه هذا إلى طلب ما يكون في مقدور المرأة تحقيقه من دواعي الزواج منها، فحث على الاهتمام بجانب الدين أكثر من الاهتمام في الصفات المرغوبة الأخرى، والتي في عمومها لا تخضع لوسع المرأة، ولا يمكنها في كثير من الأحيان تحديد مستوى تحصيلها، فالحسب والجمال يخلق بهما الشخص، ولا يخضعان لمجال اكتسابه، والمال كذلك يصعب على المرء في كثير من الأحيان تحديد مستواه فيه، أما الدين؛ فهو في متناول قاصد الخير، وسالك الصراط المستقيم، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يحث على تفضيل جانب الدين على الاعتبارات الأخرى عند تقويم حال من كان مشروعاً مقترحاً للزواج، ويلفت هذا الحث النبوي انتباه طالبي الزواج ليكون تركيزهم على الممكن والمتاح في متطلبات الزواج، حتى لا تكون الآمال بعيدة المنال معوقاً يحول دون تيسير حدوث الزواج وتحقيقه.

وما قيل فيما يطلبه الرجل من المرأة التي يرنو للزواج منها، يقال أيضاً فيما تطلبه المرأة من صفات زوج المستقبل؛ إذ يجمع الحالين قاسم مشترك عنوانه تيسير الزواج وتبسيط إجراءاته ما أمكن إلى ذلك سبيلاً.

ولفت الرسول، صلى الله عليه وسلم، الانتباه إلى ضرورة الحد من الاهتمام بمظاهر التباهي والثراء في الزواج وغيره من أمور الحياة، حيث نهى صلى الله عليه وسلم إلى

1- صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين.

اختلاف معايير الحق والخير عن معايير المظاهر البراقة التي قد تفوقها الأولى بالنفع، والخير، والبساطة، والتيسير بدرجات كثيرة، فعن سهل قال: (مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟ قَالُوا: حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ يُسْتَمَعَ، قَالَ: ثُمَّ سَكَتَ، فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟ قَالُوا: حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لَا يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لَا يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لَا يُسْتَمَعَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِائَةِ أَرْضٍ مِثْلَ هَذَا).⁽¹⁾

فليست العبرة بحفلات الزواج الفخمة، ولا بالقاعات الفاخرة التي تقام فيها، ولا بأثقال المعادن النفيسة، ولا بالأثمان الباهظة للشباب الراقية، مما يقدمها الزوج لزوجته، بقدر ما هي العبرة بصدق الحب، ووفاء الشركاء، وحسن فهمهم لمطالب بعضهم بعضاً، وحرصهم على فداء بعضهم بعضاً في السراء والضراء، وحفظ بعضهم بعضاً في الحضرة والغيبة، والفضل هنا ممكن تحصيله لمن طلب اكتسابه، بعكس المفضول الذي يعجز عن نياله كثير من طالبيه والساعين إليه، وذاك لعمرى هدي واضح لسلوك درب التيسير في الزواج، بدلاً من الاستسلام لمعوقاته التي يتمثل بعضها بالاستغراق في البحث عن نيل المستويات المادية، وما يتبعها من متطلبات، مما تنوء بحملها ظهور عامة الشباب من طالبي الزواج من أبناء الشرائح المجتمعية الفقيرة أو متوسطة الحال، ويعود ذلك لا محالة بالضرر على الفتيات اللاتي أصبحن يعشن العنوسة في أفسى أشكالها وأحوالها.

دلالات قرآنية على تيسير الزواج

لم يقتصر تيسير الزواج على ما ورد في السنة النبوية، بل تضمن القرآن الكريم دلالات واضحة على ذلك، فالله تعالى يحث على تزويج الشباب والفتيات، مع التنبيه إلى ضرورة تجاوز عقبة الفقر المالي، التي قد تحول دون تحقيق هذه الغاية النبيلة، فيقول تعالى: {وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ

1- صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين.

من فضله والله واسعٌ عَلِيمٌ⁽¹⁾، فالفقر ينبغي أن لا يحرم صاحبه من الزواج؛ إذ إن الأرزاق بيد الله المنعم الوهاب.

وفي سياق ذكر القرآن الكريم لقصة موسى، عليه السلام، ما يدل على الاهتمام بتيسير الزواج، فلما عرض والد الفتاتين على موسى الزواج من إحدى ابنتيه، وحدد مهرها بأن يأجره موسى ثماني حجج، وإن أتم عشرًا فمن عنده؛ أي أنه لم يشترط الأجل الأعلى على موسى شرطًا، بل أكد أنه لا يهدف من وراء ذلك أن يشق عليه، وترك له المجال ليقتضي واحدًا من الأجلين المحددين، فقال تعالى: {قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ* قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ⁽²⁾.

ولما فرض الله المهر للنساء على أزواجهن، ترك لهن مجال التنازل عنه للزوج، أو عن بعضه بطيب خاطر، ودون ضغط أو ابتزاز منه، فقال تعالى: {وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا⁽³⁾.

وفي هذا ما ينبه إلى فضل تعاون المرأة وأهلها مع زوجها وصهرهم، ومساعدته إن احتاج، وبخاصة في توفير متطلبات الزواج ونفقات الأسرة، من باب التفضل والإحسان والتعاون على الخير، مما يدل في المقابل على أن التشديد على الزوج، صاحب الجيوب الخاوية، أو تكليفه بما يزيد عن طاقته ووسعه، يتنافى مع روح التعاون والفضل الذي يشجع عليه الإسلام، ويبين عظيم أجره وثوابه، فعن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: (جَاءَتْ زَيْنَبُ - أَمْرَأَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ - تَسْتَأْذِنُ عَلَيْهِ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ هَذِهِ زَيْنَبُ، فَقَالَ: أَيُّ الزَّيْنَبِ؟ فَقِيلَ: أَمْرَأَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: نَعَمْ؛ انْذُنُوا لَهَا، فَأُذِنَ لَهَا، قَالَتْ: يَا نَبِيَّ

1- النور: 32.

2- القصص: 27-28.

3- النساء: 4.

اللَّهِ، إِنَّكَ أَمَرْتَ الْيَوْمَ بِالصَّدَقَةِ، وَكَانَ عِنْدِي حُلِيٌّ لِي، فَأَرَدْتُ أَنْ أَتَصَدَّقَ بِهِ، فَزَعَمَ ابْنُ مَسْعُودٍ أَنَّهُ وَوَلَدَهُ أَحَقُّ مِنْ تَصَدَّقْتُ بِهِ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: صَدَقَ ابْنُ مَسْعُودٍ، زَوْجُكَ وَوَلَدُكَ أَحَقُّ مِنْ تَصَدَّقْتُ بِهِ عَلَيْهِمْ.⁽¹⁾

سعيد بن المسيب يزوج ابنته للفقير ابن أبي وداعة على درهمين

اقتفى السلف الصالح السير في حياتهم وفق هدي دينهم، وسنة نبيهم، صلى الله عليه وسلم، ومن الروايات المثيرة، التي تصلح للاقتداء في مجال تيسير الزواج، ووضع غاياته العليا على رأس أهداف الأهل والآباء والأمهات والأزواج من الجنسين، ما فعله التابعي الكريم، والعالم الجليل سعيد بن المسيب، خلال حادثة تزويج ابنته من الرجل فقير الحال ابن أبي وداعة، فقد ورد في حلية الأولياء وسير أعلام النبلاء، عن ابن أبي وداعة أنه قال: كنت أجالس سعيد بن المسيب، ففقدني أياماً، فلما جئته، قال: أين كنت؟ قال: توفيت أهلي: فاشتغلت بها، فقال: ألا أخبرتنا فشهدناها؟ قال: ثم أردت أن أقوم، فقال: هل استحدثت امرأة؟ فقلت: يرحمك الله، ومن يزوجني، وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة. فقال: أنا. فقلت: أو تفعل؟! قال: نعم. ثم حمد الله تعالى، وصلى على النبي، صلى الله عليه وسلم، وزوجني على درهمين، أو قال ثلاثة، قال: فقمتم، وما أدري ما أصنع من الفرح، فصرت إلى منزلي، وجعلت أتفكر ممن آخذ، وممن أستدين، فصليت المغرب، وانصرفت إلى منزلي، واسترحت، وكنت وحدي صائماً، فقدمت عشائي أفطر، كان خبزاً وزيتاً، فإذا باتٍ يقرع، فقلت: من هذا؟ قال: سعيد، قال: فأفكرت في كل إنسان اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب، فإنه لم ير أربعين سنة إلا بين بيته والمسجد، فقمتم فخرجت، فإذا سعيد بن المسيب، فظننت أنه قد بدا له، فقلت: يا أبا محمد؛ ألا أرسلت إلي، فأتيك؟! قال: لأنت أحق أن تؤتى، قال: قلت: فما تأمر؟ قال: إنك كنت رجلاً عزباً فتزوجت، فكرهت أن تبيت الليلة وحدك، وهذه امرأتك، فإذا هي قائمة من خلفه في طوله، ثم أخذها بيدها،

1- صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الزكاة على الأقارب.

فدفعها بالباب، وردَّ الباب، فسقطت المرأة من الحياء، فاستوثقت من الباب، ثم قدمتها إلى القصة التي فيها الزيت والخبز، فوضعتها في ظل السراج لكي لا تراه، ثم صعدت إلى السطح، فرميت الجيران فجأؤوني، فقالوا: ما شأنك؟ قلت: ويحكم؛ زوجني سعيد بن المسيب ابنته اليوم، وقد جاء بها على غفلة، فقالوا: سعيد بن المسيب زَوْجُك؟! قلت: نعم؛ وها هي في الدار، قال: فنزلوا هم إليها، وبلغ أمي، فجاءت، وقالت: وجهي من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أصلحها إلى ثلاثة أيام، قال: فأقمت ثلاثة أيام، ثم دخلت بها، فإذا هي من أجمل الناس، وإذا هي أحفظ الناس لكتاب الله، وأعلمهم بسنة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأعرفهم بحق الزوج، قال: فمكثت شهراً لا يأتيني سعيد ولا آتية، فلما كان قرب الشهر أتيت سعيداً، وهو في حلقتة، فسلمت عليه، فرد عليّ السلام، ولم يكلمني حتى تقوض أهل المجلس، فلما لم يبق غيري، قال: ما حال ذلك الإنسان؟ قلت: خيراً يا أبا محمد على ما يجب الصديق، ويكره العدو، قال: إن رابك شيء، فالعصا، فانصرفت إلى منزلي، فوجه إليّ بعشرين ألف درهم.⁽¹⁾

فهذه القصة الواقعية التي يزهو بذكرها تاريخنا الاجتماعي في صفحاته المشرقة، التي تلهم متدبرها بما يعينه على تعزيز الرغبة الحثيثة لديه باختيار هذا النهج الكريم في تيسير الزواج، وتبسيط إجراءاته، وإتاحته لطالب الستر والعفاف من الجنسين؛ الذكور والإناث.

تيسير مقترن بحفظ الحقوق

يجدر التنبيه في هذا المقام أنه عند الحديث عن تبسيط إجراءات الزواج وتيسيره، ينبغي لفت الأنظار إلى ضرورة ضمان حفظ حقوق الأزواج، فلا يجوز التعدي على تلك الحقوق بحجة التبسيط والتيسير، وقد جاء في القرآن الكريم ما يحذر من الوقوع في مثل هذا الظلم والإجحاف، فعن عائشة، رضي الله عنها، قالت في قوله تعالى: {وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى} ⁽²⁾: (الْيَتِيمَةُ تَكُونُ عِنْدَ الرَّجُلِ وَهُوَ وَلِيُّهَا، فَيَتَزَوَّجُهَا عَلَى مَالِهَا،

1- حلية الأولياء، 169-167/2، وسير أعلام النبلاء، 234-233/4.

2- النساء: 3.

وَيُسِيءُ صُحْبَتَهَا، وَلَا يَعْدِلُ فِي مَالِهَا، فَلْيَتَزَوَّجْ مَا طَابَ لَهُ مِنَ النِّسَاءِ سِوَاهَا؛ مَثْنَى، وَثَلَاثَ، وَرُبَاعًا⁽¹⁾.

فلا يجوز لولي اليتيمة أن يستغل الدعوة إلى تبسيط إجراءات الزواج وتيسيره ليبادر إلى الزواج من اليتيمة التي يقوم بالوصاية عليها؛ ليمنعها حقوقها المشروعة، ويشبه هذا المنحى من هذه الناحية، نهى الرسول، صلى الله عليه وسلم، عن نكاح الشغار، فعن ابن عمر، رضي الله عنهما، (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نَهَى عَنِ الشُّغَارِ، وَالشُّغَارُ أَنْ يُزَوَّجَ الرَّجُلُ ابْنَتَهُ، عَلَى أَنْ يُزَوَّجَهُ الْآخَرُ ابْنَتَهُ لَيْسَ بَيْنَهُمَا صَدَاقٌ)⁽²⁾.

فلما كان الشغار سيحرم النساء حقهن المشروع في تملك مهورهن، رغم ما قد يبدو من حصول التبسيط والتيسير بهذا النوع من الزواج، إلا أن رسولنا الأكرم، صلى الله عليه وسلم، شدد على النهي عنه، تجنباً من سلبياته وإجحافه بحقوق النساء، فالمطلوب إذن تحقيق التوازن بين العمل على تيسير الزواج وتبسيط إجراءاته، وبين لزوم حفظ حقوق الأزواج تجاه بعضهم بعضاً والكف عن هضم تلك الحقوق، أو ممارسة الابتزاز الظالم بحجة التبسيط والتيسير. وهذا ديدن الإسلام الحنيف في نهجه الذي يوازن بين المتطلبات المشروعة والمزايا المتقابلة، فلا يدع شيئاً منها يطغى على آخر، ليضمن في المحصلة العدالة والخير، والإنصاف، والأخذ بالإيجابية الأمور، وتحاشي سلبياتها.

هدانا الله إلى صراطه السوي المستقيم، لنكون شامة بهذا الهدي، وليكون لنا فيه خير عون لمعالجة ما بنا من سقم، ولتجاوز ما في أوساط مجتمعاتنا من مشاكل وصعاب، وصلى الله على نبينا الكريم، وأسوتنا محمد بن عبد الله، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1- صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب لا يتزوج أكثر من أربع.

2- صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الشغار.

الرسول الأُسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يحرم الخيانة الزوجية

الحلقة الأولى

عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن...)(1).

في هذا الحديث الشريف يبين الرسول، صلى الله عليه وسلم، الفجوة الكبيرة بين الزنى والإيمان، فلا يقدم على اقتراف فاحشة الزنى إلا من كان في غيبوبة عن الإيمان، إذ لو ذكر أن الله يراقبه ويراه وسيحاسبه على هذا الاقتراف الشائن ما أقدم عليه، فلا يزني الزاني حين يزني وهو مستحضر لحال الإيمان، وكان من بين أهم بنود معاهدة النقباء الاثني عشر الذين بايعوا الرسول، صلى الله عليه وسلم، في بيعة العقبة الأولى، أن لا يزنوا، فعن عبادة ابن الصامت، رضي الله عنه، قال: (إني من النقباء الذين بايعوا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بايعناه على أن لا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل النفس التي حرم الله، ولا ننتهب، ولا نعصي، بالجنة إن فعلنا ذلك، فإن غشنا من ذلك شيئاً كان قضاءً ذلك إلى الله). (2)

واعتبر الرسول، صلى الله عليه وسلم، مشاركة شخص امرأة جاره في خيانة زوجها من أكبر الذنوب، فعن عبد الله، رضي الله عنه، قال: (سألتُ أو سئِلَ رسول الله، صلى الله عليه وسلم: أيُّ الذنوب عند الله أكبر؟ قال: أن تجعل لله نداً، وهو خلقك، قلت: ثم أيُّ؟ قال: ثم أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك، قلت: ثم أيُّ؟ قال: أن تزني بحليلة جارك، قال: ونزلت هذه الآية تصديقاً لقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم: {والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون} (3). (4)

1- صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب إثم الزناة.

2- صحيح البخاري، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: {ومن أحيائها}.

3- الفرقان: 68.

4- صحيح البخاري، كتاب التفسير، قوله: {والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر}.

وكذلك توعد الرسول، صلى الله عليه وسلم، خائن الجاهد في امرأته وعرضه بالعذاب البئيس يوم القيامة، ففي صحيح مسلم، بَاب حُرْمَةِ نِسَاءِ الْمُجَاهِدِينَ وَإِثْمٍ مِنْ خَانَتِهِمْ فِيهِنَّ، وفيه قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (حُرْمَةٌ نِسَاءِ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ كَحُرْمَةِ أُمَّهَاتِهِمْ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ مِنَ الْقَاعِدِينَ يَخْلُفُ رَجُلًا مِنَ الْمُجَاهِدِينَ فِي أَهْلِهِ، فَيَخُونُهُ فِيهِمْ، إِلَّا وَقَفَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَأْخُذُ مِنْ عَمَلِهِ مَا شَاءَ، فَمَا ظَنُّكُمْ؟).⁽¹⁾

الذم العام للخيانة

الخيانة بمفهومها العام ومعناها المطلق من أقبح الأعمال التي يفتقرها الإنسان، من هنا كانت من أبرز صفات المنافقين، فعن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ؛ إِذَا حَدَّثَ كَذَبًا، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ)⁽²⁾، والنفاق يؤدي بأصحابه إلى سوء المصير في الآخرة، فهم في القعر الأسفل من النار، إذ يقول تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا}.⁽³⁾

وإذا كان الخائنون منافقين، فالنار بانتظارهم، والدرك الأسفل منها موعدهم.

ووصف الخيانة والخوان يشمل الزوج الذي يخون زوجه ذكراً أم أنثى، وصاحب هذا الوصف في أسفل سافلين؛ لأن الله لا يحب، ولا يهدي كيده، ويأتي يوم القيامة بلواء خاص يخزيه الانتساب إليه، فعن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (لِكُلِّ غَادِرٍ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ يُعْرَفُ بِهِ).⁽⁴⁾

ويتناسب ارتفاع لواء الغادر بقدر غدره، فعن أبي سعيد، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (لِكُلِّ غَادِرٍ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ يُرْفَعُ لَهُ بِقَدْرِ غَدْرِهِ، أَلَا وَلَا غَادِرٍ أَعْظَمُ غَدْرًا مِنْ أَمِيرٍ عَامَّةٍ).⁽⁵⁾

1- صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب حرمة نساء المجاهدين وإثم من خانهم فيهن.

2- صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق.

3- النساء: 145.

4- صحيح البخاري، كتاب الحيل، باب إذا غضب جارية، فزعم أنها ماتت، ففضي بقيمة الجارية الميتة، ثم وجدها صاحبها، فهي له، ويرد القيمة، ولا تكون القيمة ثنأً.

5- صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم الغدر.

والله تعالى ينهى عن مطلق الخيانة، فيقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} (1).

ويخبر الله تعالى في صريح قوله عن رفضه حب الخائنين، فيقول تعالى: {...إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ} (2)، ويؤكد الله سبحانه وتعالى على أنه لا يحب كل خوان، فيقول جل شأنه: {وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا} (3)، والخوان هو الذي يخون الأمانة في صورة من الصور، فهو بعيد عن نيل حب الله، والله لا يهدي كيده، مصداقاً لقوله تعالى: {...وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ} (4).

الوفاء بعهد الزوجية وتوعد ناقضه

الزوج الذي يخون عقد الزوجية وعهدها، الموثق بالشهود والكتابة والشهرة بين الناس، إنما هو غادر آثم، خوان أثيم، يستحق الطرد من محيط محبة الله، ومن دائرة الحماية الربانية، بخلاف المؤمن صادق العهد الأمين، والله تعالى يقول: {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ} (5).

والله تعالى أمر بالوفاء بمطلق العهود، فقال سبحانه: {...وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا} (6).

وأنكر الله على الأزواج الذين ينقضون عهودهم ومواثيقهم مع أزواجهم، فقال تعالى: {وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا} (7)، والاستفهام هنا للتوبيخ وللإنكار.

1- الأنفال: 27.

2- الأنفال: 58.

3- النساء: 107.

4- يوسف: 52.

5- الحج: 38.

6- الإسراء: 34.

7- النساء: 21.

وشدد الرسول، صلى الله عليه وسلم، على الوفاء بشروط عقود الزواج، فقال صلى الله عليه وسلم: **(أَحَقُّ الشُّرُوطِ أَنْ تُوفُوا بِهِ مَا اسْتَحَلَّتُمْ بِهِ الْفُرُوجَ)**⁽¹⁾، ومن أبرز مقتضيات عقود الزواج ومواثيقها، أن تحفظ المرأة عرضها، وتصون نفسها من التبذل، وعن الخيانة الزوجية بكل صورها ومستوياتها، وخلال خطبة حجة الوداع، أكد الرسول، صلى الله عليه وسلم، على أهمية المحافظة على ميثاق الزوجية ومقتضياته، فقال صلى الله عليه وسلم: **(فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ؛ فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ، وَاسْتَحَلَّتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوْطِئَنَّ فُرْشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُوْنَهُ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ؛ فَاصْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرِحٍ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ...)**⁽²⁾.

مفهوم الخيانة الزوجية

لا يقتصر مفهوم الخيانة الزوجية على ممارسة الجنس مع طرف غير الشريك الشرعي لأحد الزوجين، وإنما يشمل مفهومها كل الأعمال أو الأقوال التي يحظر الشرع ممارستها، أو إسماعها من أحد الزوجين إلا لشريكه الشرعي، من هنا حرم الشرع النظر بشهوة من الرجال للنساء الأجنبية عنهم، مثلما حرم على المرأة النظر بشهوة إلى الرجال الأجانب عنها، وكذلك بالنسبة إلى ممارسة الجنس، فلا يجوز أن تتم إلا بين زوجين، فأمر الله سبحانه بحفظ الفروج مقترن بالأمر بغض الأبصار، فقال تعالى: **{قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} *** **{قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا...}**⁽³⁾.

وفي صحيح البخاري، أن سعيد بن أبي الحسن قال للحسن: **(إِنَّ نِسَاءَ الْعَجَمِ يَكْشِفْنَ صُدُورَهُنَّ وَرُؤُوسَهُنَّ، قَالَ: اصْرِفْ بَصْرَكَ عَنْهُنَّ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ} قَالَ قَتَادَةُ: عَمَّا لَا يَحِلُّ لَهُمْ، {وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ} خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ مِنَ النَّظَرِ إِلَى مَا نَهَى**

1- صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في المهر عند عقدة النكاح.

2- صحيح مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي، صلى الله عليه وسلم.

3- النور: 30-31.

عنه، وقال الزُّهْرِيُّ فِي النَّظَرِ إِلَى الَّتِي لَمْ تَحْضُ مِنَ النِّسَاءِ: لَا يَصْلُحُ النَّظَرُ إِلَى شَيْءٍ مِنْهُنَّ مِمَّنْ يُسْتَهَى النَّظَرُ إِلَيْهِ، وَإِنْ كَانَتْ صَغِيرَةً⁽¹⁾.

فيحرم النظر بشهوة إلى الأجانب عن الشخص الناظر، وذلك يشمل الذكور تجاه الإناث والعكس، وسواء فيه النظر المباشر أم عبر التقنيات الحديثة التي تتيح إمكانية العرض والمشاهدة، كما يحصل من خلال بعض أجهزة الاتصال الحديثة وشبكة الإنترنت، فإن التواصل من قبل أحد الزوجين مع طرف ثانٍ من الجنس الآخر، يستسهل أمره بعض الناس ظناً منهم أنه لا يتعدى مجال التسلية، ويصعب كشفه، ويتاح ببسر وسهولة وستر، والحقيقة التي تساندها الوقائع والأخبار المتلاحقة أن التواصل على هذا النحو المحرم يدمر كثيراً من البيوت، ويجلب العار للعائلات والأسر والأشخاص، وتستغله جهات معادية أو ذات أهداف خسيسة، كما أن بعض مريضى الأنفس يوقع في شبك الخطيئة عبر هذه الوسائل والأساليب كثيراً من البسطاء، مما يضطرهم لاحقاً إلى الخضوع لابتزازات لا طائل لها.

ومهما طال الزمن بمثل هذا التواصل الآثم، فإنه ينتهي في الغالب إلى فضائح ودموع وحسرة، وكثيراً ما تصل الأحوال إلى مستوى فائق من العار والخسران يصعب - بل قد يستحيل - إصلاحه أو الرجوع عنه.

والله سبحانه وتعالى حين نهى عن اقتراف الفواحش نهى عن قرب ما ظهر منها وما بطن، فقال تعالى: {وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ}⁽²⁾.

والحادثات الآثمة من قبل أحد الزوجين مع طرف يجرم التواصل معه على هذا النحو يندرج ضمن الفواحش التي ينهاى الله عن قربها، إضافة إلى أن الله سبحانه وتعالى حين نهى عن فعل فاحشة الزنى، نهى عن قربها، ووصفه بالفاحشة والسبيل السيئ، فقال تعالى: {وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا}⁽³⁾.

1- صحيح البخاري، كتاب الاستئذان، باب قول الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا...}.

2- الأنعام: 151.

3- الإسراء: 32.

والنهي عن قرب الزنى أشد من حصر النهي بفعل الزنى، ففي التفسير الكبير عن القفال: "إذا قيل للإنسان لا تقربوا هذا، فهذا أكد من أن يقول له لا تفعله".⁽¹⁾

والنهي عن قرب الزنى يعني الامتناع عن الإتيان بمقدماته والأمر التي تفضي إليه، ففي تفسير أبي السعود: {وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَى} يعني النهي عن مباشرة مبادئه القريبة أو البعيدة، فضلاً عن مباشرته، وإنما نهى عن قربانه للمبالغة في النهي عن نفسه، ولأن قربانه داع إلى مباشرته.⁽²⁾

أعاذنا الله من شرور الفواحش، ودهاليز الخيانة، ما ظهر منها وما بطن، وإلى لقاء تابع مع حلقة أخرى لتحريم الخيانة الزوجية من لدن الرسول الأُسوة، صلى الله وسلم عليه، وعلى آله الأطهار، وأزواجه الطيبات، وصحابتة الغر الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

1- الرازي، 158/22.

2- تفسير أبي السعود، 169/5.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يحرم الخيانة الزوجية

الحلقة الثانية

عن سَهْلِ بْنِ سَعْدِ السَّاعِدِيِّ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَنْ تَوَكَّلَ لِي مَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ، وَمَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ، تَوَكَّلْتُ لَهُ بِالْجَنَّةِ).⁽¹⁾

يوضح الرسول، صلى الله عليه وسلم، في حديثه الشريف هذا أهمية حفظ الفرج واللسان، فوعد الحافظ لهما بالجنة، وفي فتح الباري أن قوله: (من توكل لي) أي تكفل، وروى بلفظ تكفل وبلفظ حفظ، وأصل التوكل الاعتماد على الشيء والثوق به، وقوله: (توكلت له) من باب المقابلة، وقوله: (ما بين رجليه) أي فرجه، و(لحييه) بفتح اللام وهو منبت اللحية والأسنان، ويجوز كسر اللام، وثني لأن له أعلى وأسفل، والمراد به اللسان، وقيل النطق.⁽²⁾

وفي حلقة الأسبوع المنصرم من هذه الزاوية؛ زاوية الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، تم تناول موضوع تحريم الخيانة الزوجية، من جوانب عدة، منها عرض مجمل للذم العام للخيانة، إلى جانب لزوم الوفاء بعهد الزوجية وتوعد ناقضه، مع توضيح أن الزوج الذي يخون عقد الزوجية وعهدها، الموثق بالشهود والكتابة والشهرة بين الناس، إنما هو غادر، خوان، أثيم، يستحق الطرد من محيط محبة الله، ومن دائرة الحماية الربانية، وتطرت الحلقة إلى توضيح مفهوم الخيانة الزوجية، حيث لا يقتصر مفهومها على ممارسة الجنس مع طرف غير الشريك الشرعي لأحد الزوجين، وإنما يشمل كل الأعمال أو الأقوال التي يحظر الشرع ممارستها، أو إسماعها من أحد الزوجين إلا لشريكه الشرعي، مع التنويه إلى أن الله سبحانه وتعالى حين نهى عن اقتراف الفواحش نهى عما ظهر منها وما بطن،

1- صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب فضل من ترك الفواحش.

2- فتح الباري، 113/12.

والمحادثات الأثمة من قبل أحد الزوجين مع طرف يحرم التواصل معه تندرج ضمن الفواحش التي ينهى الله عن قربها، إضافة إلى أن الله سبحانه وتعالى حين نهى عن فعل الزنى، نهى عن قربهِ، ووصفه بالفاحشة والسبيل السيئ، فقال تعالى: {وَلَا تَقْرُبُوا الزَّوْجِيْنَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا} (1)، وتم التأكيد على أن النهي عن قرب الزنى أشد من حصر النهي بفعل الزنى، وقد بين الرسول، صلى الله عليه وسلم، الفجوة الكبيرة بين الزنى والإيمان، فلا يقدم على اقرار فاحشة الزنى إلا من كان في غيبوبة عن الإيمان، إذ لو ذكر الزاني أن الله يراقبه ويراه، وسيحاسبه على هذا الاقرار الشائن ما أقدم عليه، فلا يزني الزاني حين يزني وهو مستحضر لحال الإيمان، وقد أجاب ترجمان القرآن الصحابي الجليل عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما، عن استفسار حول كيفية غياب الإيمان عن الزاني وهو يمارس الرذيلة، ففي الحديث الصحيح عن عكرمة، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: (قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: لا يزني العبد حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب حين يشرب وهو مؤمن، ولا يقتل وهو مؤمن، قال عكرمة: قلت لابن عباس: كيف ينزع الإيمان منه؟ قال: هكذا وشبك بين أصابعه ثم أخرجها، فإن تاب عاد إليه هكذا، وشبك بين أصابعه). (2)

عقوبة الزاني والزانية في الدنيا والآخرة

بين القرآن الكريم والرسول، صلى الله عليه وسلم، قبح المعاشرة الجنسية خارج إطار الزواج الشرعي، إلى جانب الثناء على الذين ينتهون عن اقرار هذه الفاحشة العظيمة في شناعتها وقبحها، ففي التعقيب على وصف عباد الرحمن بأنهم لا يرتكبون كبار الآثام والذنوب من الشرك وقتل النفس بغير حق، وأنهم لا يزنون، توعد الله مقترفي هذه الذنوب الكبيرة بالعذاب البئيس الذي سيلقونه سواء في الدنيا أم في الآخرة، أم فيهما،

1- الإسراء: 32.

2- صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب إثم الزناة.

فقال تعالى: { وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا }⁽¹⁾.

وفي بداية الوجود الإسلامي، لم تشرع الحدود، فأمر الله تعالى بمعاقة الزاني والزانية بالإيذاء دون تحديد وصفه وشكله، فقال تعالى: { وَاللَّذَانَ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَادُّوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا }⁽²⁾. وسبقت هذه الآية الكريمة في ترتيب آيات سورة النساء، آية أمرت بحبس المرأة التي ثبت عليها ارتكاب جريمة الزنى، ومنعها من مخالطة الناس حتى يقضي الله موتها، أو يجعل الله لها عقوبة أخرى غير الحبس، فقال تعالى: { وَاللَّاتِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ مِنْ نُسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا }⁽³⁾، وقد تمثل السبيل الموعود بتشريع حد الزنى، ففي الحديث الصحيح عن عبادة بن الصامت قال: (كان نبيُّ اللهِ، صلى اللهُ عليه وسلم، إذا أنزلَ عليه كُربَ لِذلك، وتربَّدَ له وجهه، قال: فأنزلَ عليه ذاتَ يومٍ، فلقيَ كَذَلِكَ، فلما سُرِّيَ عنه، قال: خذُوا عَنِّي، فقد جعلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا، الثَّيْبُ بِالثَّيْبِ، وَالْبِكْرُ بِالْبِكْرِ، الثَّيْبُ جَلْدُ مِائَةٍ، ثُمَّ رَجَمَ بِالْحِجَارَةِ، وَالْبِكْرُ جَلْدُ مِائَةٍ، ثُمَّ نَفِي سَنَةٍ)⁽⁴⁾.

والآية الكريمة التي يشير إليها هذا الحديث الشريف، هي قوله تعالى: { الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ }⁽⁵⁾.

فالذي يقترب فاحشة الزنى إن كان بكرًا تكون عقوبته الجلد مائة جلدة، سواء في ذلك الذكر والأنثى، شريطة ثبوت الفعل الآثم على فاعله، بدليل إثبات من الأدلة

1- الفرقان: 68.

2- النساء: 16.

3- النساء: 15.

4- صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب حد الزنى.

5- النور: 2.

المعتبرة شرعاً، التي سيدها الإقرار، أو تطابق شهادة أربعة شهود عدول على وصف فعل الفاحشة المقترفة.

ومن جوانب عقاب الزاني والزانية التنفير عن الاقتران بأي منهما بزواج إلا من شاكلتهما، أو من المشركين، فقال تعالى: {الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} (1).

وهذا التنفير يحمل في طياته كثيراً من معاني العقاب، التي يبذل الطيبون والطيبات جهودهم لتجنب السبل التي تفضي إليه، حرصاً منهم على نصاعة صفحات سيرتهم بين الخلق، وإشراق وجوههم عند خالقهم سبحانه وتعالى، الذي حبب إليهم أن يكونوا من أهل الطيب لا من أهل الخبث، وهو القائل سبحانه وتعالى: {الْخَيْثَاتُ لِلْخَيْثِينَ وَالْخَيْثُونَ لِلْخَيْثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} (2).

والملاحظ من التشريع الحنيف المستقى من القرآن الكريم والسنة النبوية أن تباين عقوبة الزنى لا يكون حسب الجنس، بل إن الذكر والأنثى فيها سواء، غير أن الاختلاف يكون بناء على حال الزاني والزانية فيما يخص الزواج، فعقوبة البكر أخف من عقوبة الثيب، سواء أكان البكر أو الثيب ذكراً أم أنثى، وفي الحديث الصحيح ما يسند هذا، فعن أبي هريرةَ وَزَيْدِ بْنِ خَالِدٍ (أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَعْرَابِ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ جَالِسٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَقْضِ بِكِتَابِ اللَّهِ، فَقَامَ خَصَمُهُ، فَقَالَ: صَدَقَ، أَقْضِ لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ بِكِتَابِ اللَّهِ، إِنَّ ابْنِي كَانَ عَسِيفًا عَلَى هَذَا، فَزَنَى بِأَمْرَأَتِهِ، فَأَخْبَرُونِي أَنَّ عَلَى ابْنِي الرَّجْمَ، فَافْتَدَيْتُ بِمِائَةِ مِنَ الْعَنَمِ وَوَلِيدَةٍ، ثُمَّ سَأَلْتُ أَهْلَ الْعِلْمِ، فَزَعَمُوا أَنَّ مَا عَلَى ابْنِي جَلْدُ مِائَةٍ، وَتَغْرِيبُ عَامٍ، فَقَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللَّهِ، أَمَا

1- النور: 3.

2- النور: 26.

الْغَنَمُ وَالْوَالِيْدَةُ فَرَدُّ عَلَيْكَ، وَعَلَى ابْنِكَ جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيْبُ عَامٍ، وَأَمَّا أَنْتَ يَا أُنَيْسُ، فَاعْذُ عَلَى امْرَأَةٍ هَذَا، فَارْجُمَهَا، فَغَدَا أُنَيْسُ، فَارْجَمَهَا).⁽¹⁾

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، أمر بجلد الزاني البكر، بينما أمر برجم الزانية الشيب حتى الموت، جراء خيانة زوجها، فلقيت جزاء ذلك مصيراً بالغ الدلالة على بيان قبح الخيانة الزوجية، وبشاعة اقترافها، وذلك يمكن أن يقال أيضاً في الزوج الذي يخون امرأته بمعاشرة غيرها على طريقة الزنى ودرب الفاحشة.

قبح المخادنة

ذم الله سبحانه وتعالى اتخاذ الأعدان، سواء وقعت المخادنة من رجل أم امرأة، فالله تعالى حين أثنى على السلوك السوي النقي من شائبة المخادنة أطلق الكلام، فقال: {وَلَا مُتَّخِذِيْ أَخْدَانٍ}، كما جاء في قوله تعالى: {الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيْ أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}.⁽²⁾

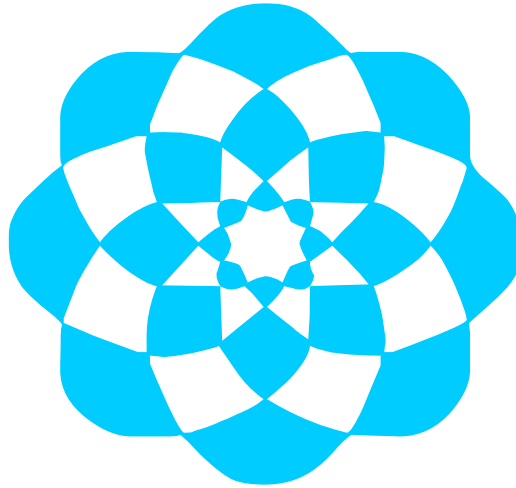
وورد الثناء على النساء اللواتي لا يسلكن درب المخادنة، في قوله تعالى: {وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَانِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفٌ مَّا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}.⁽³⁾

1- صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب من أمر غير الإمام بإقامة الحد غائباً عنه.

2- المائدة: 5.

3- النساء: 25.

واتخاذ الأخدان يعني بناء علاقة آثمة سرية من قبل نساء مع أخلاء رجال، أو العكس كأن يقوم رجال بممارسة الرذيلة سراً مع خليلات من النساء، والملاحظ أن السرية من مكونات المخادنة ومعالمها الرئيسة، فهي تتم على طريقة السرقة التي تعني في مجال المال سلبه خلسة وخفية، والخيانة الزوجية تكون في مجال ممارسة الرذيلة على هذا النحو من الخفية والسرية والسرقة، ولم يقتصر النهي الرباني على المخادنة التي تبلغ درجة فعل خطيئة الزنى، بل نبه الله إلى أنه سبحانه يحصي على مقترف الحرام أعماله، بل يحصي كذلك نظر عينيه الآثم إلى الحرمات، فقال تعالى: **{يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ}**⁽¹⁾، فإذا كانت مسارقة النظر يعلمها الله، ويحاسب عليها، فكيف بارتكاب رذيلة الخيانة الأعظم!! فلا غرابة أن يكون حسابها وخيماً، وعقابها أليماً، أعادنا الله والمؤمنين والمؤمنات من شر خائنة الأعين ومن الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وما صغر منها وما كبر، وإلى لقاء آخر في حلقة قادمة مع جوانب أخرى من مسائل ومواضيع تحريم الخيانة الزوجية، وصلى الله على نبينا الكريم محمد بن عبد الله، وعلى آله وأزواجه وصحبه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.



الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يحرم الخيانة الزوجية

الحلقة الثالثة

عن أبي الزبير قال: قال جابر: سمعت النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: (إذا أحدكم أعجبته المرأة، فوقع في قلبه، فليعمد إلى امرأته، فليواقعها، فإن ذلك يرد ما في نفسه).⁽¹⁾

يوجه النبي، صلى الله عليه وسلم، إلى سبيل مهم من سبل الوقاية من الوقوع في شبك رذيلة الخيانة الزوجية، فيمكن أن يقع نظر أحد الزوجين على ما يعجبه من طرف آخر غير شريكه الشرعي في علاقة عاطفية أو جنسية، فعند الشعور بهذا الإعجاب يكون اللجوء إلى الشريك الشرعي لممارسة الحب والجنس معه، بناء على التوجيه النبوي المذكور أعلاه، وذلك يساعد في إطفاء لهيب التعلق بأطراف غير شرعيين من جهة أحد الزوجين، وقد أفرد الإمام مسلم في صحيحه باباً عنوانه: ندب من رأى امرأة فوقع في نفسه إلى أن يأتي امرأته أو جاريتها فواقعها، وفيه عن جابر: (أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، رأى امرأة، فأتى امرأته زينب، وهي تمعس منيئة لها، فقصى حاجته، ثم خرج إلى أصحابه، فقال: إذا أبصر أحدكم امرأة، فليأت أهله، فإن ذلك يرد ما في نفسه).⁽²⁾

وفي شرح النووي على صحيح مسلم، أن أهل اللغة قالوا في قوله: (تمعس منيئة) أن المعس بالعين المهملة الدلك، والمنية ميم مفتوحة، ثم نون مكسورة، ثم همزة ممدودة، ثم تاء تكتب هاء، وهي على وزن صغيرة وكبيرة وذبيحة، قال أهل اللغة: هي الجلد أول ما يوضع في الدباغ.⁽³⁾

1- صحيح مسلم، كتاب النكاح، باب ندب من رأى امرأة فوقع في نفسه إلى أن يأتي امرأته أو جاريتها فواقعها.

2- صحيح مسلم، كتاب النكاح، باب ندب من رأى امرأة فوقع في نفسه إلى أن يأتي امرأته أو جاريتها فواقعها.

3- صحيح مسلم بشرح النووي، 178/9.

الوقاية من الخيانة الزوجية

إن من متطلبات نجاح العلاج الوقائي للخيانة الزوجية، ما يأتي:

* استحضار خشية الله والخوف من عقابه، حتى يبقى الإيمان حاضراً ومؤثراً في ردع من تجول في خاطره رغبة محرمة، وتتحرك في قلبه ونفسه مشاعر اشتهاه طرف غير شرعي من الجنس الآخر أو غيره.

* المحافظة على وجود حاجز مانع من قرب اقتراف الوقوع في فاحشة الخيانة الزوجية بمختلف أشكالها ومستوياتها، فلا نظراً إلى الحرمات، ولا إبداء للزينة الواجب سترها، ولا اختلاطاً أثماً، ولا خلوة غير شرعية، ولا إقامة علاقات صداقة مع أصحاب الجنس الآخر سواء مباشرة أم عبر وسائل الاتصال الحديثة بمختلف أنواعها وأشكالها، فقد أثبتت الأحداث ووقائع الجرائم أن التهاون في تجاوز هذه الحواجز يؤدي إلى عواقب وخيمة، ويوصل إلى ندم يوم لا ينفع الندم.

* الرضا بالزوج الشرعي والقناعة بالارتباط به، والقناعة كنز، ومن لم يرزقها بقي جائعاً أمد الدهر.

* استعداد الزوج -الشريك الشرعي- لتلبية الحاجات الجنسية والعاطفية لشريكه، وتوفير ما يلزم من استعدادات بدنية وتهيئة في البدن والشكل والملبس، ورفع وتيرة حرارة الاتصال بالشريك، والحرص على القرب منه، ومن الاستعداد المطلوب من الزوج تجاه زوجته التزين له، فينبغي للمرأة أن لا تهمل الاعتناء بحسن مظهرها، وطيب رائحتها لزوجها، حتى لا ينفر منها إلى غيرها، ومثل ذلك يطلب من الزوج الذكر تجاه شريكته الشرعية، ففي الأثر عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: **{إني لأحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تزين لي؛ لأن الله عز وجل يقول: {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ}**

وما أحب أن تستطف جميع حق لي عليها؛ لأن الله عز وجل يقول: {وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ} (1).

وهذا على خلاف ما يصنعه كثير من الناس، فيعتنون أشد العناية بالتزين للآخرين، وحين يخرجون إلى الشوارع واللقاءات العامة والخاصة، وفي بيوتهم يكون الإهمال في هذا الجانب، من باب الروتين، والظن بعدم الحاجة للتفنن للزوج، بحسن الزينة، والعناية بالمظهر، والرائحة، وإبداء الاهتمام بما يرضي الزوج ويجذبه إلى الرغبة في زوجه وتوثيق الصلة به، مما يؤدي إلى البحث عن طرف آخر فيه المرغوب، والجذب، والتشويق، والدفء، الذي يعوض عن المفقود في البيت من قبل الزوج - ذكراً كان أم أنثى -.

* تجنب الغيبة الطويلة عن الزوج، ولا تقتصر الغيبة على السفر، وإنما قد تكون بالانشغال عنه مع الأصدقاء، أو بالعمل أو بجهاز الحاسوب، مما يولد لديه شعوراً بالوحدة، وقد يدفعه ذلك إلى البحث عن مؤنس، وهذا يقال بحق كلا الزوجين، وغيبة الزوج عن زوجه ينبغي أن لا تصل إلى حد الإضرار به، حتى لو كان السفر لأداء واجب ديني ووطني، فلا يصح أن يطول الغياب ليصل إلى إيقاع المعاناة بالشريك الشرعي، وفي الأثر عن عبد الله بن دينار قال: (خرج عمر بن الخطاب من الليل، فسمع امرأة تقول:

تطاول هذا الليل واسود جانبه وأرقني أن لا خليل أأعبه

فوالله لولا الله أني أراقبه لحرك من هذا السرير جوانبه

فسأل عمر ابنته حفصة: كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها؟ فقالت: ستة أشهر أو

أربعة أشهر. فقال عمر: لا أحبس أحداً من الجيوش أكثر من ذلك). (2)

فالحاجة ماسة لأن يتفقد الزوج - ذكراً كان أم أنثى - حاجات شريكه، وتجنب

الانشغال المفرط عنه، حتى لو كان هذا الانشغال داخل محيط البيت وأسواره، فبعض

الأزواج - ذكراً أم أنثى - ينطبق عليه وصف الحاضر الغائب بالنسبة إلى زوجه، فجسده

1- سنن البيهقي الكبرى، 7/295.

2- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، 1/315.

موجود غير أن ذهنه مشغول عن شريكه، وكذلك بالنسبة إلى جوارحه، فلا إفراط ولا تفريط، وإنما ينبغي أن يكون هناك توازن بين أداء متطلبات الحياة والواجبات الدينية، وبين القيام بواجب من لهم حق على الشخص، ومن ضمنهم الزوج، الذي له على زوجته واجبات عاطفية وجنسية، وتحسس احتياجاته المختلفة، والوقوف إلى جانبه ومعه في سرائه وضرائه، من خلال مشاركته السرور بمسراته، والتخفيف عنه في أتراحه وأحزانه، والقيام بهذا الواجب يحمي كثيراً من هروب الزوج من زوجته إلى أطراف غريبة عن عش الزوجية؛ بحثاً عن بديل يقوم بأداء دور الزوج المفقود أو الناقص.

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، دعا إلى تحسس حاجات الزوج، والعمل على تلبيتها، فحثّ الذي يقوم بعبادة نافلة صيام النهار وقيام الليل بأن لا يغفل عن أداء حقوق أهله، فعن عبد الله بن عمرو، رضي الله عنهما، قال: (قال لي النبي، صلى الله عليه وسلم: أَلَمْ أُحْبِرْ أَنَّكَ تَقُومُ اللَّيْلَ وَتَصُومُ النَّهَارَ؟ قلت: إني أفعل ذلك، قال: فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ هَجَمْتَ عَيْنَكَ⁽¹⁾، وَنَفَهْتَ نَفْسَكَ، وَإِنَّ لِنَفْسِكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ حَقًّا، فَصُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ)⁽²⁾، وفي رواية صحيحة أخرى قال له: (فإن لزوجك عليك حقاً).⁽³⁾

قصة ذات دلالة

يروى أن امرأة جاءت إلى أمير المؤمنين عمر، رضي الله عنه، فقالت: يا أمير المؤمنين؛ إن زوجي يصوم النهار، ويقوم الليل، فقال لها: نعم الرجل زوجك، وكان في مجلسه رجل يسمى كعباً، فقال: يا أمير المؤمنين؛ إن هذه المرأة تشكو زوجها في أمر مباحته إياها عن فراشه، فقال له: كما فهمت كلامها احكم بينهما، فقال كعب: عليّ بزوجه، فأحضر، فقال

1- ومعنى قوله: (هَجَمْتَ عَيْنَكَ) بفتح الجيم: أي غارت أو ضعفت لكثرة السهر. وقوله: (نَفَهْتَ) بنون ثم فاء مكسورة، أي كلت. (فتح الباري، 38/3).

2- صحيح البخاري، أبواب التهجد، باب ما يكره من ترك قيام الليل لمن كان يقومه.

3- صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت به حقاً أو لم يفطر العيدين والتشريق وبيان تفضيل صوم يوم وإفطار يوم.

له: إن هذه المرأة تشكوك، قال: أفي أمر طعام أم شراب؟ قال: بل في أمر مباحدتك إياها عن فراشك، فأنشدت المرأة تقول:

يَا أَيُّهَا الْقَاضِي الْحَكِيمُ أَنْشُدْهُ
أَلْهَى خَلِيلِي عَنْ فِرَاشِي مَسْجِدَهُ
نَهَارَهُ وَلَيْلَهُ لَا يَرْقُدُهُ
فَلَسْتُ فِي أَمْرِ النِّسَاءِ أَحْمَدُهُ
فَأَنْشَأَ الزَّوْجُ يَقُولُ:

زَهَّدَنِي فِي فَرَشِهَا وَفِي الْحَلَلِ
أَنِّي امْرُؤٌ أَذْهَلَنِي مَا قَدْ نَزَلَ
فِي سُورَةِ التَّمَلُّكِ وَفِي السَّبْعِ الطُّوْلِ
وَفِي كِتَابِ اللَّهِ تَخْوِيفٌ يَجَلُ
فَقَالَ لَهُ الْقَاضِي:

إِنَّ لَهَا عَلَيْكَ حَقًّا لَمْ يَزَلْ
فِي أَرْبَعٍ نَصَبِهَا لِمَنْ عَقَلَ
فَعَاطِهَا ذَلِكَ وَدَعَّ عَنْكَ الْعِلْلَ

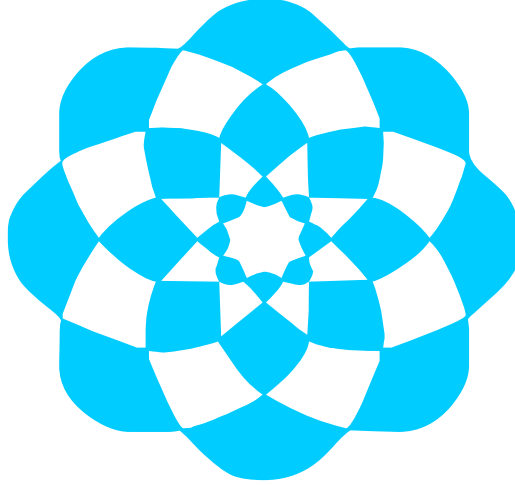
ثم قال: إن الله تعالى أحل لك من النساء مثنى، وثلاث، ورباع، فلك ثلاثة أيام لبليالهن، ولها يوم وليلة، فقال عمر، رضي الله عنه: "لا أدري من أيكم أعجب؟ أمن كلامها أم من حكمك بينهما؟! اذهب فقد وليتكَ البصرة".⁽¹⁾

فهذه المرأة التي جاءت تشكو زوجها لأمير المؤمنين ليس بسبب نقص طعام أو شراب، وإنما لتقصيره بحقها في مجال مهم آخر، مما ولد لديها شعوراً بالوحدة، دعاها لأن تشكو زوجها، مما يدل على أن التقصير من قبل أحد الطرفين الشرعيين تجاه الآخر قد

1- المستطرف في كل فن مستطرف، 127/1-128.

يدفع إلى البحث عن طرف آخر يجد عنده حاجته، ويمكن أن يجعله يسلك السبل المحرمة إليه، من هنا جاء حث الرسول، صلى الله عليه وسلم، للزوج في الحديث المذكور أعلاه على الحذر من تجاهل حقوق أهله، وأن لا تشغله العبادات عن القيام بحقوقه تجاه زوجته؛ حتى لا يقع أحدهما أو كلاهما فيما حرم الله.

أعاذنا الله من شرور الفواحش، ما ظهر منها وما بطن، وإلى لقاء تابع مع حلقة أخرى لتحريم الخيانة الزوجية من لدن الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم عليه، وعلى آله الأطهار، وأزواجه الطيبات، وصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.



الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يحرم الخيانة الزوجية

الحلقة الرابعة والأخيرة

عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه، أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (... وفي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ؟ قالوا: يا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَيَّتِي أَحَدُنَا شَهَوْتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قال: أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَّانَ عَلَيْهِ فِيهَا وَزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرًا).⁽¹⁾

ورد في شرح النووي على صحيح مسلم أن البضع في قوله: (وفي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ) هو بضم الباء، ويطلق على الجماع، ويطلق على الفرج نفسه، وكلاهما تصح إرادته هنا. وفي هذا دليل على أن المباحات تصير طاعات بالنيات الصادقات، فالجماع يكون عبادة إذا نوي به قضاء حق الزوج من قبل شريكه الشرعي، ومعاشرته بالمعروف، الذي أمر الله تعالى به، أو طلب ولد صالح، أو إعفاف نفسه، أو إعفاف زوج، ومنعهما جميعاً من النظر إلى حرام، أو الفكر فيه، أو الهم به، أو غير ذلك من المقاصد الصالحة.⁽²⁾

أهمية ممارسة الجنس مع الزوج الشرعي

في الحلقة السابقة من سلسلة حلقات تحريم الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم للخيانة الزوجية، تم التعرض لجانب من سبل الوقاية من الوقوع في شبك رذيلة تلك الخيانة، من خلال التركيز على حث الزوج الذي يقع نظره على ما يعجبه من طرف آخر غير شريكه الشرعي في علاقة عاطفية أو جنسية، على اللجوء إلى ممارسة الحب والجنس مع زوجته؛ سعياً إلى الامتناع عن التعلق بأطراف غير شرعيين من جهة أحد الزوجين. وتواصلًا مع العرض المشار إليه، تأتي هذه الحلقة التي يتصدرها البيان النبوي الرائع في تقديره لمقام الزوج الذي يمارس الجنس مع زوجته الشرعي، على سنة الله ورسوله، صلى

1- صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف.

2- صحيح مسلم بشرح النووي، 92/7.

الله عليه وسلم، فهي الممارسة المأجورة التي يثاب فاعلها، بخلاف الممارسة المأزورة التي يعاقب مقترفها، فالأول يثاب بأجر الله، الذي يشير إليه حديث الرسول، صلى الله عليه وسلم، المذكور أعلاه، إضافة إلى المنافع الأخرى التي يكتسبها صاحب الممارسة الجنسية المشروعة، فيريح أعصابه ونفسه، ويلبي حاجاته الطبيعية والغرائزية، بسبيل مشروع نظيف، ومأمون صحياً واجتماعياً وخلقياً، وهو ينتظر جراء هذه الممارسة النسل الذين هم زينة الحياة الدنيا، فيساهم بذلك في المحافظة على التناسل والوجود البشري، ويخدم الإنسانية برمتها بهذه المساهمة التي تتضافر مع أشباهها في إعمار الكون والحياة، من خلال إمدادهما بأبرز عناصرهما، وهو الإنسان، ولولا هذا التناسل لانقرض البشر، ولما بقي للحياة دونهم معنى بالنسبة إلى هذا الصنف من الخلق، ومن عجيب الأمور ومفارقاتها أن المرأة تتباهى بحملها من زواج شرعي، ويبارك لها الأقارب والأصدقاء به، وتتم مراحلها برعاية أهلها وزوجها وخواصها، بينما الحمل الذي ينتج عن الممارسة الأخرى الآثمة إنما يتوارى أصحاب العلاقة به من عاره، وبخاصة المرأة التي تحمله في أحشائها، فتحاول التخلص منه قبل تمام تكوينه، وفي كثير من الحالات يرمى به في الأزقة والشوارع، إن كتب له البقاء في رحم التي حملت به سفاحاً، وهنا تتراكم الآثام والخطايا، وتتعدد صور الإجرام، التي تتقاطع مع أعمال الجاهلية زمن الانحطاط، حين كانت تقتل البنت المولودة بسبب جنسها الأنثوي، ويقتل الولد خشية أن يطعم مع والديه، ويشاركهما في متطلبات الإنفاق، والله تعالى بكّت أصحاب هذه الأفعال المشينة أيما تبكيت، ففي الوأد يقول سبحانه وتعالى: {وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ}. (1)

ويقول سبحانه وتعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا}. (2)

1- التكوير: 9-8.

2- الإسراء: 31.

والرسول، صلى الله عليه وسلم، أدرج جريمة قتل الأبناء ضمن قائمة كبائر الذنوب، فعن عبد الله، رضي الله عنه، قال: (سَأَلْتُ أَوْ سُئِلَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ الذَّنْبِ عِنْدَ اللَّهِ أَكْبَرُ؟ قَالَ: أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلْقَكَ، قُلْتَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشِيَةً أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ، قُلْتَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ، قَالَ: وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ}.)⁽¹⁾

والعقلاء الذين يأخذون بمقتضى التحريم الإسلامي للوآء، وقتل الأبناء، لا يقبلون بالدعوة إلى تسهيل إجهاض الزانيات بقصد التهوين من فظاعة الفاحشة، وخلق بيئات قابلة للمخادنة والمعاشرة الجنسية، خارج نطاق منظومة الزواج الشرعي، تحت مظلات متعددة ومختلفة.

استثناء الأزواج من لزوم حفظ الفروج

ورد الحث على حفظ الفروج في سور قرآنية كريمة عدة، منها: سورتا المؤمنون والماعراج، اللتان تكررت فيهما الإشادة بالحفاظين لفروجهم إلا على أزواجهم، مع إبراز وصف الاعتداء للذين يبتغون متعة الفروج خارج نطاق الأزواج، فقال تعالى في سورة المؤمنون: {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ}.)⁽²⁾

وأثنى الله تعالى على المصلين في سورة الماعراج الذين من بين صفاتهم الرئيسة والبارزة أنهم يحفظون فروجهم إلا على أزواجهم.

ومما اشتركت فيه سورتا المؤمنون والماعراج، تكرار النص على مدح الذين هم لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ، باستثناء ما يكون من الزوج تجاه شريكه في الزواج، فلا لوم ولا عتب ولا ذم لممارسة المعاشرة الحميمة بينهما، إلا أن الذم يلحق بالمعتدين الذين يمارسون

1- صحيح البخاري، كتاب النفسير، باب قوله: {والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر}.

2- المؤمنون: 7-5.

المعاشرة الجنسية ومقدماتها مع غير الأزواج، ففي السورتين آيات ثلاث تدل على هذا المعنى بنفس اللفظ، وذلك في الآيات من 5-7 من سورة المؤمنون، و29-31 من سورة المعارج.

فممارسة الجنس بين الأزواج والارتباط العاطفي بينهم، من الأمور التي فطر الله الناس عليها، ولا تبديل لخلق الله، من هنا؛ يرفض الإسلام اتخاذ الرهينة سبيلاً بين المسلمين، ويحث في المقابل على الزواج، فيقول صلى الله عليه وسلم: (يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ؛ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ).⁽¹⁾

وحديث الثلاثة رهط الذي جاء في صحيح البخاري، تحت باب التَّزْوِجِ فِي النِّكَاحِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ}، يدل بوضوح على هذا الحث، فعن أنس بن مالك، رضي الله عنه، يقول: (جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، يسألون عن عبادة النبي، صلى الله عليه وسلم، فلما أُخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي، صلى الله عليه وسلم، قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه، وما تأخر؟ قال أحدهم: أما أنا؛ فَإِنِّي أَصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء، فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ؛ إِنِّي لَأَخْشَاكُمُ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمُ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي، فَلَيْسَ مِنِّي).⁽²⁾

وفي الحديث الصحيح عن سعد بن أبي وقاص، قال: (رَدَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى عُمَانَ بْنِ مَطْعُونِ التَّبْتَلِيِّ، وَلَوْ أَدِنَ لَهُ لَأَخْتَصِمْنَا).⁽³⁾

1- صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر أحصن للفرج، وهل يتزوج من لا أرب له في النكاح.

2- صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب التزويج في النكاح.

3- صحيح مسلم، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، ووجد مؤنة، واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم.

فلا يعقل أن يمنع الناس من ممارسة الجنس والشغف الشديد بجمب الجنس الآخر، وقد خلقوا بطبيعة قابلة لذلك، بل متعلقة به، من هنا؛ كانت إيجابية الإسلام في تشريعه الزواج، بل والحث عليه، إلى جانب تحريم تلبية الدوافع الفطرية للحاجات الجنسية والعاطفية مع الجنس الآخر بطرق غيره؛ لأن الإباحية الجنسية تدمر الصحة البدنية والنفسية للأفراد وتهدم البناء الأخلاقي، وتخلط الأنساب، وتهتك أستر خصوصيات الناس التي يحرص كل سوي منهم على الاستحواذ عليها، دون اطلاع أو مشاركة من آخرين، من هنا؛ تكون الخيانة الزوجية سبيلاً محرماً؛ لتعارضها مع كثير من المبادئ، والقيم السوية والفطرية، التي جبل الناس عليها.

الصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ

لا يتفق كل الناس على قبول الخيانة الزوجية منهجاً وسبيلاً متبعاً، بل يحرص كثير منهم على الوفاء لأزواجهم-شركائهم الشرعيين- فلا يمارسون الجنس، ولا يقيمون العلاقات العاطفية الخاصة إلا معهم، منتهجين سبيل الاستعفاف، بخلاف منهج الفاحشة المتمثلة في الزنى ومقدماته، حيث نهى الله تعالى في قرآنه الكريم عن قربه، ووصفه بالسبيل السيئ، فقال تعالى: {وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا} (1).

وفي مقابل هذا التبشيع الواصف للزنى بأقبح الخصائص، وأقدر السمات، فإن الله تعالى أثنى على المحافظين على عفتهم وطهرهم، في ظل حضور أصحاب العلاقة من البشر أو غيابهم؛ لأنهم يستحضرون دائماً خشية الله، والخوف من عقابه، ويحرصون على رضاه سبحانه، ففي النساء المحافظات على هذا النهج القويم، يقول تعالى: {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ...} (2)، فالله تعالى أطلق على هذا الصنف من النساء وصف الصالحات، وعدَّ من صفاتهن، أنهن قَانِتَاتٌ، حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ

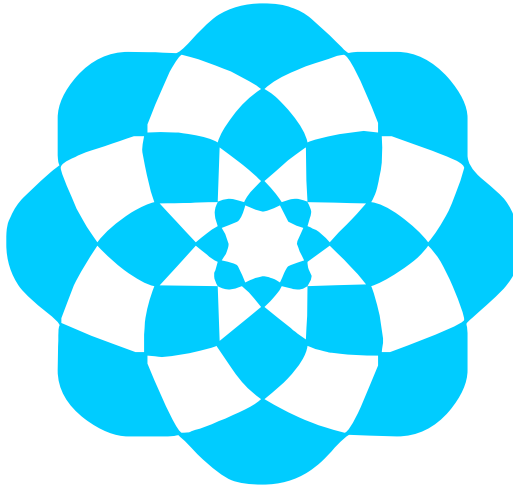
1- الإسراء: 32.

2- النساء: 34.

اللَّهُ، ومعنى **{فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ}**: أي النساء الصالحات في دينهن مطيعات لأزواجهن، أو مطيعات لله في حق أزواجهن، **{حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ}** أي تحفظ كل ما غاب عن علم زوجها، فيدخل في ذلك صيانة نفسها، وحفظ ماله وبيته، وحفظ أسراره، **{بِمَا حَفِظَ اللَّهُ}** أي بحفظ الله ورعايته، أو بأمره للنساء أن يُطَعْنَ الزوج ويحفظنه، فما مصدرية، أو بمعنى الذي. (1)

سائلين الله العلي القدير أن ينفع بما ورد من توجيهات قرآنية ونبوية في هذه الحلقة وسالفاتها كل حريص وحريصة على النجاة في الآخرة، والعيش في الدنيا تحت مظلة الحرص على إرضاء الله، والخوف من عقابه سبحانه، ففيما ورد ذكرى عسى أن ينتفع بها من كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد.

أعاننا الله تعالى العزيز الغفار لنكون من الصالحين القانتين، رجالاً ونساء، الذين يجلون ما أحل الله ويأتونه، محتسبين أجر الله ورضاه سبحانه وتعالى، ومن خشيتهم لله أنهم يجرمون ما حرم الله ورسوله الأسوة، صلى الله وسلم عليه، وعلى آله الأطهار، وأزواجه الطيبات، وصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.



الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يخلع امرأة من زوجها برضاها

عن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، أَنَّ امْرَأَةً ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ أَتَتْ النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: (يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ مَا أَعْتَبُ عَلَيْهِ فِي خُلُقٍ، وَلَا دِينٍ، وَلَا كَيْفِيٍّ أَكْرَهُ الْكُفْرَ فِي الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَتُرَدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيثَهُ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اقْبَلِ الْحَدِيثَ، وَطَلِّقِيهَا تَطْلِيقًا.)⁽¹⁾

يدل هذا الحديث الشريف على حكم الشرع الحنيف في الخلع، الذي كثر الحديث عنه في الآونة الأخيرة، حيث عرضت امرأة من نساء الصحابة على النبي، صلى الله عليه وسلم، أنها ترغب في الانفصال عن زوجها، دون أن تذكر طعناً في شخصه، أو سلوكه معها، أو تقصيره تجاهها، غير أنها أفصحت عن موقفها السليبي من استمرار ارتباطها به، كونها غير متوافقة معه، أو غير راضية عن استمرار العيش بصحبته، أو لأي سبب آخر يرجع إلى موقف شخصي لديها، يعبر عن كرهه، أو عدم رضا من بقاء زواجهما، والملاحظ أن هذه المرأة كانت صادقة مع نفسها، وزوجها، وربها، ورسول الله، صلى الله عليه وسلم، فلم تختلق الأسباب لتطعن بزوجه، أو لتبرر طلبها الانفصال عنه، ولم تضخم المبررات، ولم تتعرض لتفاصيل العيوب التي دفعتها لهذا الموقف الصعب، وإنما طلبت الانفصال عن زوجها دون الانتقاص من قدره، ودون أن تعيب سلوكه، وأشارت بشجاعة إلى دوافعها الشخصية لهذا الطلب، مع تأهب لدفع ما سياتر على ذلك من ثمن مادي، وكانت هذه المرأة صادقة مع نفسها كذلك، من ناحية رفضها مواصلة العيش مع زوج لا تحبه، كما تفعل بعض النساء اللواتي لا يتورعن عن أكل لحم زوجها عن طريق استغابته في مجالس الأقارب، والسخرية منه أمام الأبعد، أو افتعال النكد أمامه، واستقباله بالتنغيص،

1- صحيح البخاري، كتاب الطلاق، باب الخلع وكيفية الطلاق فيه.

وتوديعه بالكدر، وبعضهن تذهب إلى عشق الأخلاء من وراء ظهره، ويصل ببعضهن الحد إلى معاشرة العشاق، وبيع الأجساد والأعراض على فراش الزوجية أو غيره، بسبب كره الزوج أو عدم الانسجام معه، مما يوقع في كبائر الذنوب، ويجر الويل على الفاعلين، والدمار على أسرهم، ويجلب الفساد الوخيم إلى مجتمعهم ونسلهم.

مفهوم المخالعة ومشروعيتها

معنى الخلع في اللغة: ورد في لسان العرب أن خلع الشيء يخلعه خلعاً واختلعه: كنزعه، إلا أن في الخلع مهلة، وسوى بعضهم بين الخلع والنزع. وخلع امرأته خلعاً بالضم، وخلعاً فاختلعت، وخلعته: أزالها عن نفسه، وطلقها على بذل منها له، فهي خالعة، والاسم الخلعة. وقال أبو منصور: خلع امرأته وخلعها إذا افتدت منه بماله، فطلقها وأبانها من نفسه، وسمي ذلك الفراق خلعاً؛ لأن الله تعالى جعل النساء لباساً للرجال، والرجال لباساً لهن، فقال: {هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ} ⁽¹⁾؛ فإذا افتدت المرأة بمال تعطيه لزوجها ليبينها منه فأجابها إلى ذلك، فقد بانت منه، وخلع كل واحد منهما لباس صاحبه، والاسم من كل ذلك الخُلْعُ، والمصدر الخُلْعُ. ⁽²⁾

والخلع في الشرع: إزالة الزوجية بما تعطيه المرأة من المال، وهو في إزالة الزوجية بضم الخاء، وإزالة غيرها بفتحها، كما اختص إزالة قيد النكاح بالطلاق، وفي غيره بالإطلاق.

وتكاد تفسيرات الفقهاء تجمع على أن المخالعة مصطلح يعبر عن طلاق يتم بتراضي الزوجين، تدفع فيه المرأة مبلغاً من المال لزوجها ليقوم بتطليقها.

فالأصل أن الخلع يتم برضا الزوجين، وأنه يكون بطلب من المرأة، مع استعدادها أن تبذل مالاً للزوج، حتى يوافق على فك عرى الزوجية بينهما بالطلاق البائن بينونة صغرى، وللمخالعة ضوابط في تراثنا الفقهي وأحكام، فجاء في الإنصاف للمرداوي: وإذا

1- البقرة: 187.

2- لسان العرب، ابن منظور، 130/5.

كانت المرأة مبغضة للرجل، وتحشى أن لا تقيم حدود الله في حقه، فلا بأس أن تفتدي نفسها منه، فيباح للزوجة ذلك. وأما الزوج؛ فيستحب له الإجابة إليه⁽¹⁾، وفي كتاب "الاختيار لتعليل المختار" ضمن كتاب الطلاق، ورد أن الخلع: "هو أن تفتدي المرأة نفسها بمال ليخلعها به، فإذا فعلا لزمها المال، ووقعت تطليقة بائنة، ويكره أن يأخذ منها شيئاً إن كان هو الناشز، وإن كانت هي الناشزة، كره له أن يأخذ أكثر مما أعطاه، وإن أخذ منها أكثر مما أعطاه حل له، وكذلك إن طلقها على مال فقبلت، وقع الطلاق بائناً ويلزمها المال بالتزامها، وما صلح مهراً، صلح بدلاً في الخلع..."⁽²⁾.

وبالنسبة إلى أدلة مشروعية الخلع، فمنها قوله تعالى: { ... وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ }⁽³⁾، والحديث الصحيح المذكور آنفاً بشأن امرأة ثابت بن قيس وزوجها. ويدل قوله تعالى: { وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا }⁽⁴⁾. على كراهة أن يأخذ الزوج من امرأته شيئاً في الخلع إن كان هو الناشز.

الطلاق والمخالعة حل لمشكلات زوجية مستعصية

يأتي الحديث عن الخلع في ظل ما يثار بين الحين والآخر من مسائل تتعلق بالطلاق، وقضايا تخص حقوق كل من الزوجين في الزواج وبعد الطلاق، ومن المؤكد أن الإسلام الحنيف يهدف إلى إقامة علاقة شرعية بين الزوجين، تقوم على أساس من الود والرحمة، فالله تعالى يقول: { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ

1- الإنصاف للمرداوي: 382/8.

2- الاختيار لتعليل المختار، كتاب الطلاق، باب الخلع، 3/ 204.

3- البقرة، 229.

4- النساء: 20.

بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ⁽¹⁾، وبالزواج تتحقق المعاشرة المشروعة بين الزوجين، وينتج عن ذلك غالباً التناسل الذي يحفظ استمرارية البقاء البشري، والله تعالى يحث على مراعاة الإحسان والمعروف حال قيام الزوجية، وكذلك عند الانفصال عنها، فيقول تعالى: {الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ...}⁽²⁾.
وقد بانَت الحكمة ساطعة في موقف الرسول، صلى الله عليه وسلم، من طلب هذه المرأة، بغض النظر عن اسمها، فلم يعنفها، ولم يطل مناقشتها، ولم يتركها وحالها، بل سعى لإخراجها منه في جو يسوده الإحسان، ويعمه العدل والإنصاف، فسأل عما دفعه الزوج لها، فقالت حديقة، وقبلت أن تردها إليه حال موافقته على طلاقها منه، فاستدعى الرسول، صلى الله عليه وسلم، الزوج، ووجهه لقبول عرض الانفصال المقدم من قبل امرأته مقابل أن ترد عليه حديقته التي سبق أن قدمها لها مهراً لزوجها، فرضي الزوج بالعرض الذي تقدمت به امرأته، تحت رعاية الرسول، صلى الله عليه وسلم، وإشرافه، ومراقبته، وتوجيهه.

درس لكل زوجين

يستنتج من هذا الحديث الشريف درس لكل زوجين؛ من صنفى المعادلة؛ من الرجال والنساء على حد سواء، يفقهان من خلاله أن الشرع الحنيف لا يُكره أياً منهما على البدء بأي مشروع زواج أصلاً، ولا يجبران على الالتزام بمواصلة رحلة زواج يكرهانها، أو يرغب أحدهما في الانفكاك عنها، فالزواج يؤتي ثماره الخيرة حين تسوده المودة، والرحمة، وحسن العشرة، والإحسان، والزواج المحفوف بالكره والبغض يدمر شرط استمراره أكثر مما يعمر، وشرعنا الإسلامي يبني الأحكام على غلبة الخير والنفع، أو غلبة الشر والضرر، فعند غلبة الخير تكون الإباحة، وعند غلبة الشر يكون التحريم، ففي سياق تحريم الخمر والميسر يقول تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ

1- الروم: 21.

2- البقرة: 229.

وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ⁽¹⁾، وهكذا بالنسبة إلى الزواج الذي يأخذ فيه أحد الزوجين موقفاً صارماً من حسم مصيره، وقطع الوصال مع صاحبه، بلخلع أو الطلاق، فمن الأولى والأجدر أن يبحث له عن مخرج منصف وعادل من هذا المأزق، فهو زواج يعتريه بعض الفشل في التواصل بين طرفيه بل ركنيه لإنقاذه، أو العجز عن المحافظة على حال الود المفترض المتبادل بينهما، أو حين يتولد شعور بتدني مستوى الانسجام بينهما، أو غير ذلك من الأسباب والمسوغات التي آلت بهما أو بأحدهما إلى طلب الانفصال عن الآخر، مع التذكير بأن الحديث الشريف الذي بين أيدينا أعطى امرأة ثابت بن قيس، ويعطي المرأة في كل زمان الحق الكامل في طلب الانفصال عن زوجها عن طريق المخالعة؛ لأسباب دفعتها لتصر على هذا الطلب المزعج في ظاهره، لكنه يسير باتجاه اتخاذ قرار صعب بارتكاب أخف الضررين استناداً إلى ما هو مقرر في القواعد الفقهية المعتمدة، والمفاهيم الثابتة للنصوص الشرعية.

وحين يعطي الإسلام المرأة حق الانفصال عن زوج تكرهه، ولا يعيب عليها طلب ذلك، فإنه يحذر من أن تتخذ النساء هذا المنحى في الموقف من الزواج منهجاً دون مبررات حقيقية؛ لأن التوجه إلى فك عرى الزواج بسبب الملل من رتابة الحياة الزوجية والسامة من بعض روتينها، يؤدي إلى أن يصبح الوضع صعباً ومعقداً، ويجلب ذلك الضرر للأزواج، وأولادهم، وأسرهم، ومجتمعهم.

وفقنا الله تعالى في حياتنا الأسرية ومعاشنا العام إلى العمل بهديه والسير على نهج نبيه، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله الأطهار، وأزواجه الطيبات، وصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم يأخذ العفو ويأمر بالمعروف

الحلقة الأولى

عن عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، قال: (أمر الله نبيه، صلى الله عليه وسلم، أن يأخذ العفو من أخلاق الناس).⁽¹⁾

أورد الإمام البخاري هذا الحديث الشريف في صحيحه تحت باب {خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ}⁽²⁾، وفيه أن العرف المعروف. وفي الصحيح نفسه ضمن كتاب النفقات، ورد تفسير لفظ العفو بالفضل، وذلك ضمن عنوان باب فَضْلِ النَّفَقَةِ عَلَى الْأَهْلِ وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ}⁽³⁾، وفيه أن الحسن قال: (العفو الفضل).⁽⁴⁾

وفي عمدة القاري أن الله تعالى أمر نبيه، صلى الله عليه وسلم، بثلاثة أشياء؛ الأخذ بالعفو، والأمر بالعرف، والإعراض عن الجاهلين، وروى الطبري عن مجاهد خذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تجسس عليهم. وقال ابن الزبير ما أنزل الله تعالى هذه الآية إلا في أخلاق الناس، وعن ابن عباس والضحاك والسدي خذ العفو من أموال المسلمين، وهو الفضل، وقال ابن جرير: أمر بذلك قبل نزول الزكاة، وقال ابن الجوزي: صدقة كانت تؤخذ قبل الزكاة، ثم نسخت بها، وقيل هذا أمر من الله تعالى لنبيه، صلى الله عليه وسلم، بالعفو عن المشركين، وترك الغلظة عليهم، وذلك قبل فرض القتال، وقوله: {وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} أي عن أبي جهل وأصحابه، وقال ابن زيد: نسختها آية السيف، وقيل ليست بمنسوخة، إنما أمر بلحتمال من ظلم.

1- صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: {خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين}.

2- الأعراف: 199.

3- البقرة: 219 - 220.

4- صحيح البخاري، كتاب النفقات، باب فضل النفقة على الأهل.

والعُرفُ المأمور به في الآية الكريمة هو المَعْرُوفُ، ومن المعروف صلة الرحم، وإعطاء من حرم، والعفو عمن ظلم، وقال ابن الجوزي: العرف والمعروف ما عرف من طاعة الله عز وجل، وقال الثعلبي: العرف والمعروف والعارفة كل خصلة حميدة. وقال عطاء الأمر بالعرف بلا إله إلا الله. (1)

عفو الله

وصف الله نفسه بالعفو في عدد من الآيات القرآنية، فقال تعالى: {فَأُولَٰئِكَ عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا} (2)، ولما بين الله للمؤمنين فضل اتصافهم بالعفو وسلوكهم دربه، عقب بالتأكيد على اتصافه سبحانه بالعفو، فقال تعالى: {إِن تَبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوِّ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا} (3).

فالعفو عن المسيء من شيم الكرام، والله المثل الأعلى، والصفات العلاء، والأسماء الحسنی، وقد تكرر الإفصاح عن العفو الإلهي عن خطايا الخلق وتجاوزاتهم، فعفا سبحانه عن قوم موسى، ولم يستأصلهم بالعذاب البئيس، فقد اتخذوا العجل بعد أن جاءتهم البيئات، فقال تعالى: {يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنِ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا} (4)، وورد مثل هذا التعقيب على هذا الانحراف العقائدي والتعبد الذي اقترفه بنو إسرائيل خلال اتخاذهم العجل، فقال تعالى: {وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ* ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (5).

1- عمدة القاري، 242/18.

2- النساء: 99.

3- النساء: 149.

4- النساء: 153.

5- البقرة: 52-51.

وذكر الله عفوهُ عن أهل الكتاب لإخفائهم معلومات أوردتها الله لهم في الكتب السماوية، التي أنزلها عليهم ليعملوا بها، فقال تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ} (1).

وبعد ذكر مسألة تتعلق بانتصار الله لمن بغى عليه من المؤمنين، عقب الله تعالى على ذلك بقوله سبحانه: {إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوءٌ غَفُورٌ} فقال تعالى: {ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوءٌ غَفُورٌ} (2).

والله يعفو عن مرتكبي السيئات والخطايا، مهما بلغ حجمها وكان نوعها، فقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} (3).

ويعفو سبحانه عن كثير من مسببات عقاب خلقه على ما اقترفت أيديهم من الذنوب، حيث يقول تعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} (4).

وتعقياً على المظاهرة من النساء، ذكر الله عفوهُ، إشعاراً بتجاوزه عن افتراء إلحاق الزوجة بالأم، فكل منهما لها خصوصيتها المختلفة عن الأخرى، فالأم ولدتها، وتحرم عليه على التأييد، أما الزوجة فيجوز أن يتمتع بها في إطار الضوابط الشرعية، إذ يقول تعالى: {الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مَنْ نُسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوءٌ غَفُورٌ} (5).

عفو الرسول صلى الله عليه وسلم

ورد في عون المعبود، قول مجاهد: أمر الله نبيه الكريم محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، بأخذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم يعني من غير تجسس، وذلك مثل قبول الاعتذار منهم، وترك البحث عن الأشياء. (6)

1- المائدة: 15.

2- الحج: 60.

3- الشورى: 25.

4- الشورى: 30.

5- المجادلة: 2.

6- عون المعبود، 100/13.

ومواقف الرسول، صلى الله عليه وسلم، الممتزجة بالعضو عن المسيئين كثيرة لا تعد ولا تحصى، ومن أشهرها عفوه عن أهل قريش الذين ناصبوه العدا، وتسيبوا في هجرته من بلده وعن أهله، فلما تهيأت الظروف، وأمد الله بنصره المؤزر، فدخل مكة فاتحاً، وقد اجتمع أهل قريش في المسجد، فقال لهم: (ما ترون أني صانع بكم؟ قالوا: خيراً؛ أخ كريم وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء، قال الشيخ: وإنما أطلقهم بالأمان الأول الذي عقده على شرط قبولهم، فلما قبلوه قال: أنتم الطلقاء؛ يعني بالأمان الأول، والله أعلم.)⁽¹⁾

ولما جاء جبريل، عليه السلام، إلى الرسول، صلى الله عليه وسلم، يخبره أن الله وضع ملك الجبال تحت أمره، وأشعره هذا الملك بأنه على استعداد ليطبق على كفار مكة الأخشيين، غير أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، رد عليه بما يعبر عن عفوه ورحمته، فعن ابن شهاب قال حدثني عروة أن عائشة، رضي الله عنها، زوج النبي، صلى الله عليه وسلم، حدثته أنها قالت للنبي، صلى الله عليه وسلم: (هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة؛ إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال، فسلم علي، ثم قال: يا محمد؛ فقال ذلك فيما شئت؛ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشيين، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئاً.)⁽²⁾

والرسول، صلى الله عليه وسلم، يتماشى بهذه المواقف المتسمة بالعضو والصفح مع المقولة السائلة، التي تفيد بأن أفضل العفو هو ما يكون عند المقدرة، وقد ورد في الأثر عن الإمام العادل عمر بن عبد العزيز نص على هذا، فعن سعيد بن سويد أن عمر بن عبد

1- سنن البيهقي الكبرى، 118/9.

2- صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء، فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه.

العزیز صلی بهم الجمعة، ثم جلس وعليه قميص مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه، فقال له رجل: (يا أمير المؤمنين؛ إن الله قد أعطاك، فلو لبست، فنكس ملياً، ثم رفع رأسه فقال: أفضل القصد عند الجدة، وأفضل العفو عند المقدرة).⁽¹⁾

ومكانة الرسول، صلى الله عليه وسلم، لم تمنعه من ممارسة العفو عن الذين يتجاوزون اللياقة وحدود الأدب مع مقامه الكريم، فعن أبي سعيد الخدري قال: (بينما النبي، صلى الله عليه وسلم، يقسم ذات يوم قسماً، فقال ذو الخويصرة، رجل من بني تميم: يا رسول الله؛ عدل، قال: ويلك من يعدل إذا لم أعدل؟ فقال عمر: ائذن لي فلاضرب عنقه، قال: لا إن له أصحاباً يحقروا أحداكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين كمرق السهم من الرمية، ينظر إلى نصليه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رصافه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نضيه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى قلذه فلا يوجد فيه شيء، سبق الفرث والدم، يخرجون على حين فرقة من الناس، آيتهم رجل إحدى يديه مثل ثدي المرأة، أو مثل البضعة تدر، قال أبو سعيد: أشهد لسمعه من النبي، صلى الله عليه وسلم، وأشهد أنني كنت مع علي حين قاتلهم، فالتمس في القتلى، فأتي به على النعت الذي نعت النبي، صلى الله عليه وسلم).⁽²⁾

تحلي الصحابة بخلق العفو

عن عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما، قال: (قدم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر، فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس بن حصن، وكان من النفر الذين يدينهم عمر، وكان القراء أصحاب مجلس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شباناً، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي؛ هل لك وجه عند هذا الأمير فتستأذن لي عليه؟ قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: فأستأذن لعيينة، فلما دخل قال: يا ابن الخطاب؛ والله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل، فعضب عمر حتى هم بأن يقع به، فقال الحر: يا أمير المؤمنين؛ إن الله تعالى

1- حلية الأولياء، 261/5.

2- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ما جاء في قول الرجل ويلك.

قال لِنَبِيِّهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ}، وَإِنَّ هَذَا مِنْ الْجَاهِلِينَ، فَوَاللَّهِ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلَاهَا عَلَيْهِ، وَكَانَ وَقَافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ. (1)

وفي أعقاب حادثة الإفك، غضب أبو بكر الصديق على أحد مروجيها، واسمه مسطح ابن أثانة، وكان، رضي الله عنه، ينفق عليه، ويمده بالعون قبل ذلك، فحلف أن يقطع ذلك عنه، فنزل فيه قوله تعالى: {وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}. (2)

وضمن حديث الإفك الذي يرويه البخاري في صحيحه: (... وكان الذي يَتَكَلَّمُ فِيهِ مِسْطَحٌ، وَحَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ، وَالْمُنَافِقُ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ أَبِيٍّ، وَهُوَ الَّذِي كَانَ يَسْتَوْشِيهِ وَيَجْمَعُهُ، وَهُوَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ هُوَ وَحَمْنَةُ، قَالَتْ: فَحَلَفَ أَبُو بَكْرٍ أَنْ لَا يَنْفَعَ مِسْطَحًا بِنَافِعَةٍ أَبَدًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ: {وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ} إِلَى آخِرِ الْآيَةِ يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ، وَالسَّعَةَ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ، يَعْنِي مِسْطَحًا إِلَى قَوْلِهِ {أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} حَتَّى قَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَى؛ وَاللَّهُ يَا رَبَّنَا، إِنَّا لَنَجِبُ أَنْ تَغْفِرَ لَنَا، وَعَادَ لَهُ بِمَا كَانَ يَصْنَعُ}. (3)

فهذا عرض موجز لما تيسر من نصوص شرعية، ومواقف كريمة، تبرز مكانة العفو، ومدى العناية القرآنية والنبوية به، وما اتسمت به مواقف السلف الصالح بشأنه، وإلى لقاء قادم لاستعراض ما يتيسر من حديث وبيان حول هذا الخلق الكريم، الذي يحتاجه الناس في علاقاتهم بعامه، والمسلمون فيما بينهم بخاصة، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه، ومن تبعه ووالاه بإحسان إلى يوم الدين.

1- صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

2- النور: 22.

3- صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: {إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا}.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يأخذ العفو ويأمر بالمعروف

الحلقة الثانية

عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: (ما نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وما زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وما تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ).⁽¹⁾

يتعرض الرسول، صلى الله عليه وسلم، في حديثه الشريف هذا إلى بعض ثمار العفو وآثاره، فهو يجلب لصاحبه العز الرباني، ويذكر الإمام النووي وجهين لزيادة صاحب العفو عزاً، أحدهما أنه على ظاهره، وأن من عُرِفَ بالعفو والصفح ساد وعظم في القلوب، وزاد عزه وإكرامه، والثاني أن المراد أجره في الآخرة وعزه هناك.⁽²⁾

مفهوم العفو الوارد ذكره في القرآن الكريم

استُخِدمَ لفظ العفو في عدد من الآيات القرآنية، وكان معناه يتحدد بناء على السياق الذي ورد فيه، فجاء في التسهيل لعلوم التنزيل، أن لفظ عفا له أربعة معانٍ؛ عفا عن الذنب، أي صفح عنه، وعفا أسقط حقه، ومنه {إِلَّا أَنْ يَعْفُونََ أَوْ يَعْفُوا} ⁽³⁾، وعفا القوم كثروا، ومنه: {حَتَّىٰ عَفَّوْا} ⁽⁴⁾، وعفا المنزل إذا درس، وعفو له ثلاث معانٍ؛ العفو عن الذنب، والإسقاط، والسهل من غير كلفة، ومنه: {مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ} ⁽⁵⁾ ⁽⁶⁾.

1- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع.

2- صحيح مسلم بشرح النووي، 16/141.

3- البقرة: 237.

4- الأعراف: 95.

5- البقرة: 219.

6- التسهيل لعلوم التنزيل، 1/23.

ومن شواهد هذه المعاني ما جاء في إنفاق العفو الوارد في قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} (1)، أي أنفقوا العفو، وهو الفاضل عن الحاجة، ولا تنفقوا ما تحتاجون إليه وتضيعوا أنفسكم.

وفي أضواء البيان أن المراد بالعفو في قوله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوُ} هو الزائد على قدر الحاجة التي لا بد منها على أصح التفسيرات، وهو مذهب الجمهور. (2)

وجاء الحث على العفو عند الطلاق، فقال تعالى: {وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَرْصَةً فَيَصِفْ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (3).

والعفو هنا بمعنى الإسقاط، أي: للمطلقات قبل الدخول نصف الصداق إلا أن يسقطنه، وإنما يجوز إسقاط المرأة إذا كانت مالكة أمر نفسها، أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح. (4)

وفي التفسير الكبير أن المعنى إلا أن يعفون المطلقات عن أزواجهن، فلا يطالبنهم بنصف المهر، وتقول المرأة ما رأني ولا خدمته، ولا استمتع بي، فكيف أخذ منه شيئاً؟ أما قوله تعالى: {أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ}، فالمقصود به الولي على الراجح، والله أعلم.

1- البقرة: 219.

2- أضواء البيان، 10/1.

3- البقرة: 237.

4- التسهيل لعلوم التنزيل، 85/1.

وقوله تعالى: {وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} خطاب للرجال والنساء جميعاً، إلا أن الغلبة للذكور إذا اجتمعوا مع الإناث، ومعنى الآية عفو بعضكم عن بعض أقرب إلى حصول معنى التقوى، وإنما كان العفو أقرب للتقوى لوجهين؛ الأول: أن من سحح بترك حقه فهو محسن، ومن كان محسناً فقد استحق الثواب، ومن استحق الثواب نفى بذلك الثواب ما هو دونه من العقاب وأزاله، والثاني: أن هذا الصنع يدعوه إلى ترك الظلم الذي هو التقوى في الحقيقة؛ لأن من سحح بحقه وهو له معرض تقرباً إلى ربه كان أبعد من أن يظلم غيره، ويأخذ ما ليس له بحق.⁽¹⁾

وقال الزجاج: (معناه لا إثم عليكم في أن تهب المرأة للزوج مهرها، أو يهب الزوج للمرأة تمام المهر إذا طلقها قبل الدخول).⁽²⁾

واستخدم لفظ العفو للدلالة على الكثرة، فقال تعالى: {ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَعْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}.⁽³⁾

{حَتَّىٰ عَفَوْا} أي كثروا ونموا في أنفسهم وأموالهم⁽⁴⁾، فمعنى عَفَوْا هنا أي كثروا، وكثرت أموالهم وأولادهم.⁽⁵⁾

والله عفو غفور، يعفو عن المذنبين، فلا يعاجلهم بالعقوبة، ويغفر ذنوبهم فيزيلها، ويزيل آثارها عنهم، فهذا وصف الله المستقر اللازم الذاتي، ومعاملته لعباده في جميع الأوقات بالعفو والمغفرة، فينبغي لكم أيها المظلومون المجني عليهم أن تعفوا وتصفحوا وتغفروا، ليعاملكم الله كما تعاملون عباده، فمن عفا وأصلح فأجره على الله.⁽⁶⁾

1- التفسير الكبير، 6/121-124.

2- التفسير الكبير، 10/45.

3- الأعراف: 95.

4- التسهيل لعلوم التنزيل، 2/39.

5- أضواء البيان، 1/10.

6- تفسير السعدي، 1/543.

وأثنى الله على أهل العفو، فذكرهم بهذه الصفة الحمودة، في سياق الثناء والمدح، فقال تعالى: {الَّذِينَ يَنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} (1)، ويدخل في العفو عن الناس العفو عن كل من أساء إليك بقول أو فعل، والعفو أبلغ من الكظم؛ لأن العفو ترك المؤاخظة مع السماحة عن المسيء، وهذا إنما يكون ممن تحلى بالأخلاق الجميلة، وتخلى عن الأخلاق الرذيلة، وممن تاجر مع الله، وعفا عن عباد الله؛ رحمة بهم وإحساناً إليهم، وكراهة لحصول الشر عليهم، وليعفو الله عنه، ويكون أجره على ربه الكريم لا على العبد الفقير. (2)

الحث على العفو والصفح

ورد الحث على العفو في التوجيهات القرآنية والنبوية، فيحث الله تعالى الأزواج والآباء على العفو والصفح في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}. (3)

عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال في هذه الآية: (هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة، فأرادوا أن يأتوا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فلما أتوا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وفقهوا في الدين، أرادوا أن يعاقبوه، فأنزل الله عز وجل: {يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم}). (4)

وحث الله المؤمنين على العفو والصفح، فقال تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}. (5)

1- آل عمران: 134.

2- تفسير السعدي، 1/148.

3- التغابن: 14.

4- المعجم الكبير، 11/275.

5- البقرة: 109.

جاء في تفسير أبي السعود: (أن العفو ترك المؤاخنة والعقوبة، والصفح ترك الشرب والتأنيب).⁽¹⁾

وفي تفسير السمرقندي أن المسلمين لما أصابتهم الحنة يوم أحد، قالت اليهود لعمار ابن ياسر وحذيفة بن اليمان: قد أصابكم ما أصابكم، فارجعوا إلى ديننا، فهو خير لكم، فنزلت هذه الآية: {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ}، يعني يريد كثيراً من أهل الكتاب، ويتمنون لو يردونكم، يعني يصدونكم عن التوحيد من بعد إيمانكم ويردونكم كفاراً إلى الكفر، ثم أخبر أن هذا القول لم يكن منهم على وجه النصيحة، ولكن هذا القول كان حسداً منهم من بعد ما تبين لهم ما في التوراة أنه الحق، يعني أن دين محمد، صلى الله عليه وسلم، هو الحق فاعفوا واصفحوا، أي اتركوهم وأعرضوا عنهم حتى يأتي الله بأمره، يعني الأمر بالقتال.⁽²⁾

سعد بن عبادة يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم العفو والصفح عن زعيم المنافقين

عن أسامة بن زيد، رضي الله عنهما: (أخبره أن النبي، صلى الله عليه وسلم، ركب على حمار على إكاف، على قطيفة فدكية⁽³⁾، وأردف أسامة وراءه، يعود سعد بن عبادة قبل وقعة بدر، فسار حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن أبي بن سلول، وذلك قبل أن يسلم عبد الله، وفي المجلس أخلط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود، وفي المجلس عبد الله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة، خمر عبد الله بن أبي أنفه بردائه، قال: لا تعبروا علينا، فسلم النبي، صلى الله عليه وسلم، ووقف ونزل، فدعاهم إلى الله، فقرأ عليهم القرآن، فقال له عبد الله بن أبي: يا أيها المرء؛ إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقاً، فلا تؤذنا به في مجالسنا، وأرجع إلى رحلك، فمن جاءك فاقصص عليه، قال ابن رواحة: بلى يا رسول الله؛ فأغشنا به في مجالسنا، فإننا نحب ذلك، فاستب

1- تفسير أبي السعود، 146/1.

2- تفسير السمرقندي، 110/1.

3- والمقصود بر (قطيفة) دثار مخمل، جمعها قطائف وقطف، و(فدكية) منسوبة إلى فدك بلدة معروفة على مرحلتين أو ثلاث من المدينة.

الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْيَهُودُ، حَتَّى كَادُوا يَتَشَاوَرُونَ، فَلَمْ يَزَلِ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى سَكَتُوا، فَرَكَبَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، دَابَّتَهُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، فَقَالَ لَهُ: أَيُّ سَعْدٍ أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالَ أَبُو حُبَابٍ، يُرِيدُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي، قَالَ سَعْدٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ اعْفُ عَنْهُ وَاصْفَحْ، فَلَقَدْ أَعْطَاكَ اللَّهُ مَا أَعْطَاكَ، وَلَقَدْ اجْتَمَعَ أَهْلُ هَذِهِ الْبَحْرَةِ عَلَى أَنْ يَتَوَجَّهَ فَيَعْصِبُوهُ، فَلَمَّا رَدَّ ذَلِكَ بِالْحَقِّ الَّذِي أَعْطَاكَ، شَرِقَ بِذَلِكَ، فَذَلِكَ الَّذِي فَعَلَ بِهِ مَا رَأَيْتَ).⁽¹⁾

فعلى الرغم من تجاوز رأس النفاق عبد الله بن أبي حدود اللياقة والذوق، في رده على الرسول، صلى الله عليه وسلم، إلا أن سعد بن عبادة، رضي الله عنه، أشار على الرسول، صلى الله عليه وسلم، بالصفح والعفو عنه؛ انطلاقاً من إيمانه بمكارم أخلاق الرسول، صلى الله عليه وسلم، وأنها يمكن أن تستوعب مثل هذا التجاوز من الجاهلين.

فضل العفو عن القصاص

عن ابن عباس، رضي الله عنهما: (كان في بني إسرائيل القصاص، ولم تكن فيهم الدية، فقال الله تعالى لهذه الأمة {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرِّ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ} فَالْعَفْوُ أَنْ يَقْبَلَ الدِّيَةَ فِي الْعَمْدِ، فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ، وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ، يَتَّبِعُ بِالْمَعْرُوفِ، وَيُؤَدِّي بِإِحْسَانٍ، {ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ} مِمَّا كُتِبَ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ {فَمَنْ اعْتَدَى بِعَدَاكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ} قَتَلَ بَعْدَ قَبُولِ الدِّيَةِ).⁽²⁾

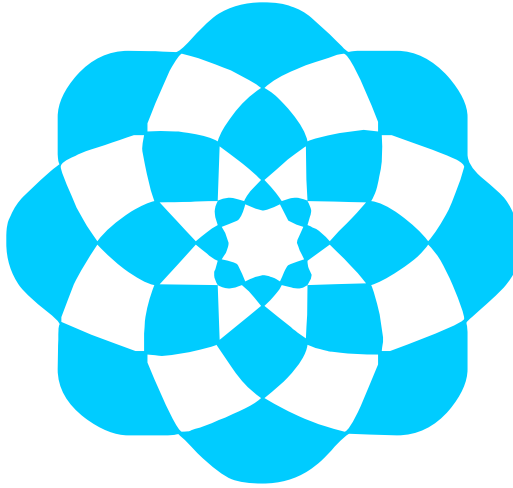
وعن أنس، رضي الله عنه: (أَنَّ الرَّبِيعَ وَهِيَ ابْنَةُ النَّضْرِ كَسَرَتْ ثِيَابَ جَارِيَةٍ، فَطَلَبُوا الْأَرْضَ، وَطَلَبُوا الْعَفْوَ، فَأَبَوْا، فَأَتَا النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَمَرَهُمْ بِالْقِصَاصِ، فَقَالَ أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ: أَتُكْسِرُ ثِيَابَ الرَّبِيعِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَا تُكْسِرُ

1- صحيح البخاري، كتاب المرضى، باب عيادة المريض راكباً وماشيّاً وردفاً على الحمار.

2- صحيح البخاري، كتاب النفسير، باب {يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر - إلى قوله - عذاب أليم}.

تُنِيَّتْهَا، فَقَالَ: يَا أَنَسُ؛ كِتَابُ اللَّهِ الْقِصَاصُ، فَرَضِيَ الْقَوْمُ وَعَفَوْا، فَقَالَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةٍ.⁽¹⁾

هدانا الله لنكون من أهل العفو والصفح، عسى الله تعالى أن يزيدنا بذلك عِزًّا،
وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه
بإحسان إلى يوم الدين.



1- صحيح البخاري، كتاب الصلح، باب الصلح في المدينة.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم وذوي الاحتياجات الخاصة

عن مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: (رَأَى سَعْدٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ لَهُ فَضْلاً عَلَى مَنْ دُونَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعْفَائِكُمْ؟) (1).

جاء في عمدة القاري، أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، أخبر بأنهم لا ينصرون إلا بالضعفاء والصالحين في كل شيء، عملاً بإطلاق الكلام، وقال المهلب: إنما أراد صلى الله عليه وسلم بهذا القول لسعدٍ، الحض على التواضع، ونفي الكبر، والزهو على قلوب المؤمنين، وأخبر صلى الله عليه وسلم أنه بدعائهم ينصرون ويرزقون. (2).

وفي نظر كثير من الناس أن ذوي الاحتياجات الخاصة يعتبرون من شريحة الضعفاء؛ بسبب ما يعانون من إعاقة، وإن كان بعضهم يثبت حضوراً قوياً في واقعه وحياته، ويترك بصمات واسعة ونافعة في عصره وللأجيال من بعده، حيث إن عدداً لا يستهان به من علماء المسلمين وأفذاذهم كانوا مبتلين بنوع من أنواع الإعاقة الجسدية أو أكثر، وما زال الناس عالة على علمهم وتراثهم، الذي أبقوه من ورائهم.

وإذا ما وضعت الإعاقة في ميزان الإيمان بالخلق الإلهي، والتنزيل القرآني، فالمعاقون جزء من الوجود الذي خلقه الله تعالى، وصوره كيف يشاء، إذ يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ} (3)، والإنسان سواء من ذوي الاحتياجات الخاصة أم من غيرهم مشمول بخلق الإنسان من ضعف، وعودته إلى ضعف، مصداقاً لقوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ

1- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب.

2- عمدة القاري، 179/14.

3- الانفطار: 8-6.

{الْقَدِيرُ}⁽¹⁾، وجنس الإنسان خلقه الله في أحسن تقويم وفق معيار الله وتقديره سبحانه، فقال تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}⁽²⁾، وأحسن تقويم شامل لخلق الإنسان حساً ومعنى؛ أي شكلاً وصورة وإنسانية⁽³⁾. ولا تنتقص الإعاقة من حسن التقويم؛ إذ العبرة الأهم والأبرز للمعاني والقيم والمبادئ، بدليل أن الله بين أن الإنسان بعد حسن التقويم يعود إلى أسفل سافلين، باستثناء المؤمنين الذين يعملون الصالحات، فقال تعالى في الآية التالية من سورة التين: {ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ* إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ}⁽⁴⁾، ويؤكد الرسول، صلى الله عليه وسلم، في سنته النبوية على جانب تعاضد المؤمنين وتكافلهم على اختلاف أحوالهم وظروفهم؛ ليعين قويهم ضعيفهم، وسويهم صاحب الحاجة منهم، فعن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ، تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى).⁽⁵⁾

بيان أجر المبلى بالإعاقة

ليس من ضمانات لأحد من الخلق أن يوجد على الدنيا سليم الجسد، ولا توجد لازمة لأن يبقى المرء معافى في بدنه من العاهات، مهما توافرت له سبل الوقاية منها، ولو أخذ بكل أسباب النجاة من الإصابة بها، فالمعافى في بدنه يحمد الله، والمبلى يصبر ويحتسب، ولا يستسلم للنوازل، ما دام مؤمناً، فعن صُهَيْبٍ قَالَ: (قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ دَاكٌ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ).⁽⁶⁾

1- الروم: 54.

2- التين: 4.

3- أضواء البيان، 5/9.

4- التين: 5-6.

5- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم.

6- صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير.

وفي القرآن الكريم ما يدل على سنة الابتلاء العام للخلق، إذ يقول تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ دَائِقَةُ الْمَوْتِ وَبَلُّوكم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} (1).

وللابتلاء بالإعاقه أو الحاجة الخاصة أنواع وأشكال، فقد يكون بعين أو بالاثنتين، أو برجل أو بالاثنتين، وقد يكون في اليدين، أو في سمع، أو عقل، أو غير ذلك من صور الإعاقه وأشكالها، وفي السنة النبوية ما يواسي أصحاب الإعاقه من خلال وعدهم بلجنة إن صبروا واحتسبوا ولم يتأفوا، ولم يشكوا خالقهم لأحد من خلقه، فعن عبد الله قال: (دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ يُوعَكُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعَكًا شَدِيدًا، قَالَ: أَجَلٌ إِنِّي أُوْعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ، قُلْتُ: ذَلِكَ بَأَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ، قَالَ: أَجَلٌ ذَلِكَ، كَذَلِكَ مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَدَى شَوْكَةٍ فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا سَيِّئَاتِهِ، كَمَا تَحْطُ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا). (2).

وفي أجر الصابر على الإصابة بعمى العينين، يروي أنس بن مالك، رضي الله عنه، فيقول: (سمعت النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: إِنَّ اللَّهَ قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ فَصَبَرَ، عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الْجَنَّةَ، يُرِيدُ عَيْنَيْهِ) (3)، وفي الصبر على أشكال أخرى من الإصابات البدنية، يروي عطاء بن أبي رباح، قال: (قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء، أتت النبي، صلى الله عليه وسلم، فقالت: إني أصرع، وإني أتكشَّفُ، فادعُ الله لي، قال: إن شئتِ صبرتِ ولكِ الجنة، وإن شئتِ دعوتِ الله أن يعافيك، فقالت: أصبر، فقالت: إني أتكشَّفُ فادعُ الله أن لا أتكشَّفُ، فدعا لها... وعن عطاء أنه رأى أم زفر تلك امرأة سوداء على ستر الكعبة). (4).

1- الأنبياء: 35.

2- صحيح البخاري، كتاب المرضى، باب أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأول فالأول.

3- صحيح البخاري، كتاب المرضى، باب فضل من ذهب بصره.

4- صحيح البخاري، كتاب المرضى، باب فضل من يصرع من الريح.

موقف مفعم بالعبر

جاء في كتب تفسير القرآن الكريم أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، كان مشغولاً بدعوة صناديد قريش، فأتاه ابن أم مكتوم، وهو رجل أعمى، وقال: أقرني يا رسول الله، وعلمني مما علمك الله، وكرر ذلك فلم يتفق ذلك وما هو مشغول به صلى الله عليه وسلم، وما يرجوه مما هو أعظم، فعبس، وتولى عنه منصرفاً لما هو مشغول به.⁽¹⁾

فنزّل في هذه الحادثة قرآناً يتلى على مر الزمان، حتى إن السورة القرآنية التي تضمنت الآيات التي نزلت تعقب على تلك الحادثة نسبت إلى فعل {عَبَسَ} الذي بدئت به؛ تعبيراً عن جانب مهم منها، فقال تعالى: {عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنْ اسْتَعْجَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَا يَزَكَّى * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى * كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ * فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ}.⁽²⁾

وورد في أضواء البيان أنه بالنسبة إلى وصف عبد الله بن أم مكتوم بالأعمى، وهو لقب يكرهه الناس، والله تعالى يقول: {وَلَا تَتَّبِعُوا بِالْأَلْقَابِ} ⁽³⁾، يجيب بعض العلماء بأن التعبير بلفظ الأعمى هنا للإشعار بعذره في الإقدام على قطع كلام الرسول، صلى الله عليه وسلم؛ لأنه لو كان يرى ما هو مشغول به مع صناديد الكفار لما قطع كلامه، وذلك يبرر المعاتبة لما حصل من عدم مراعاة حالة عمه، وعليه يكون ذكره بهذا الوصف من باب التعريض بغيره من أولئك الصناديد، وسادة القوم، وكأنه يقول لهم: {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}.⁽⁴⁾

1- أضواء البيان: 430/8.

2- عبس: 16-1.

3- الحجرات: 11.

4- الحج: 46.

مع التنبيه إلى جواز ذكر مثل هذه الأوصاف إذا كانت للتعريف لا للتنقيص، فيقال الأعمى والأعور والأعرج للتعريف في غرض سليم دون تنقيص.

ثم إن العبوسة تعني تقطيب الجبين، وهذه حركة مرئية لا مسموعة، والحال أن هذا أعمى لا يرى تلك الحركة، فكأنه لم يلق إساءة منه صلى الله عليه وسلم، مع التنبيه إلى أن تقطيب الجبين، وانسلاط أسارير الوجه لحزن أو فرح يكاد يكون جبلياً، مما كان منه صلى الله عليه وسلم، فهو من باب الجبلية تقريباً، كأن المثير له غرض عام من خصوص الرسالة ومهمتها.⁽¹⁾

دمج ذوي الاحتياجات الخاصة في الحياة العامة

يحرص الإسلام على دمج ذوي الاحتياجات الخاصة في الحياة العامة، على مختلف مستوياتها وجوانبها، فلم تمنع حال ابن أم مكتوم، من احترام شأنه، وتقدير مكانته، بدليل توليته إمارة المدينة مرتين خلال غياب الرسول، صلى الله عليه وسلم، عنها، يصلي بهم وهو أعمى⁽²⁾، وكان يمارس رفع الأذان في المدينة المنورة، وينقاد لأذانه المسلمون في صلاتهم وصيامهم، فعن عائشة، رضي الله عنها، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: (إِنَّ بِلَالَاً يُؤَدِّنُ لَيْلِ، فَكُلُّوا، وَأَشْرَبُوا، حَتَّى يُؤَدِّنَ ابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ).⁽³⁾

ولم يمنع هذا الدمج من مراعاة ظروف ذوي الاحتياجات الخاصة وأحوالهم، فالله تعالى لم يضيق عليهم، ورفع الحرج والإثم عنهم فيما لا يطيقون، فقال تعالى: {لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَعدُّهُ عَدَاباً أَلِيماً}⁽⁴⁾، وفي الذين كانوا يتحرزون من الاندماج مع ذوي الاحتياجات الخاصة، فيتخرجون عن مؤاكلتهم، فأنزل الله

1- أضواء البيان، 430/8-431.

2- الأحاديث المختارة، 91/7.

3- صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب الأذان قبل الفجر.

4- الفتح: 17.

جل شأنه في قرآنه الكريم ما يبعد هذا الحرج، ويزيل وجوده، فقال تعالى: {لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً...} (1)، وفي التفسير الكبير أن الأكثرين قالوا: إن القوم كانوا يحظرون الأكل مع هؤلاء الثلاثة، وهم: الأعمى والأعرج والمريض، وفي هذه المنازل، فالله تعالى رفع ذلك الحظر وأزاله. (2)

احترام كرامة المعاق

يحرم الإسلام السخرية من الآخرين، وتعييهم على سبيل اللمز، والتنازب بالألقاب، سواء أصدر هذا السلوك الشائن تجاه أصحاب الاحتياجات الخاصة أم غيرهم، فالله تعالى يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءِ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} (3).

فخالق الناس هو الله، ولا يليق بمؤمن أن يعيب خلق الله، الذي أكد سبحانه وتعالى على أن الناس خلقوا من أصل واحد، وأن التفاضل بينهم يكون للتقوى، وليس للصور والأشكال، فيقول تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} (4).

ويؤكد الرسول، صلى الله عليه وسلم، في بعض روايات السيرة والسنة النبوية هذا المعنى، فعن عبد الله بن مسعود قال: (أَنَّهُ كَانَ يَجْتَنِي سِوَاكَ مِنَ الْأَرَاكِ، وَكَانَ دَقِيقَ

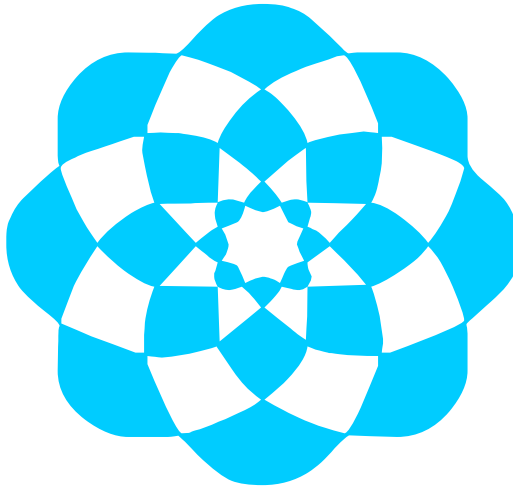
1- النور: 61.

2- التفسير الكبير، 31/24.

3- الحجرات: 11.

4- الحجرات: 13.

السَّاقِينَ، فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَكْفُؤُهُ، فَضَحِكَ الْقَوْمُ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مِمَّ تَضْحَكُونَ؟ قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، مِنْ دِقَّةِ سَاقِيهِ، فَقَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ⁽¹⁾، فالإسلام ينظر إلى ذوي الاحتياجات الخاصة على أنهم أشخاص فاعلون منتجون وفق وسعهم وطاقاتهم لصالح أنفسهم وأهلهم ومجتمعاتهم، وهم معززون مكرمون، مكاتبتهم محفوظة، ولهم الأجر والثوبة على حسن صبرهم، وتسليمهم بقضاء الله وقدره من غير استسلام للضعف والإعاقة، فقوة إيمانهم وعزائمهم تدفعهم إلى خوض غمار المعالي دائماً؛ ليسطروا صفحات مشرقة في وقائع المجد وأحداث التاريخ، فهنيئاً لهم مكاتبتهم عند الله ورسوله والصلحين من الناس، وجزاهم الله خيراً على صبرهم واجتهادهم، وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا الأكرم محمد بن عبد الله، وعلى آله الأطهار، وأزواجه الطيبات، وصحابته الغر الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.



1- مسند أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن مسعود، وقال شعيب الأرنؤوط: صحيح لغيره.

الفصل السابع

نظام حكم

297	يوطد العلاقة السليمة بين المواطن والجهات المسؤولة	49.
303	يجبر عن أثره الحكام والسلاطين واستشارهم	50.

الرسول الأُسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يوطد العلاقة السليمة بين المواطن والجهات المسؤولة

عن عبد الرحمن بن شِمَاسَةَ، رضي الله عنه، قال: (أَتَيْتُ عَائِشَةَ أَسْأَلُهَا عَنْ شَيْءٍ، فَقَالَتْ: مِمَّنْ أَنْتَ؟ فَقُلْتُ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ، فَقَالَتْ: كَيْفَ كَانَ صَاحِبِكُمْ لَكُمْ فِي غَزَاتِكُمْ هَذِهِ؟ فَقَالَ: مَا نَقَمْنَا مِنْهُ شَيْئًا إِنْ كَانَ لَيَمُوتُ لِلرَّجُلِ مِنْنا الْبَعِيرُ، فَيُعْطِيهِ الْبَعِيرَ، وَالْعَبْدُ فَيُعْطِيهِ الْعَبْدَ، وَيَحْتَاجُ إِلَى النَّفَقَةِ، فَيُعْطِيهِ النَّفَقَةَ، فَقَالَتْ: أَمَا إِنَّهُ لَا يَمْنَعُنِي الَّذِي فَعَلَ فِي مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ أَخِي أَنْ أُخْبِرَكَ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ فِي بَيْتِي هَذَا: اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ، فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أُمَّتِي شَيْئًا فَفَرَّقَ بِهِمْ، فَارْفُقْ بِهِ).⁽¹⁾

في هذا الحديث الشريف يدعو الرسول، صلى الله عليه وسلم، الله عز وجل أن يرفق بالوالي الذي يحسن إلى رعيته، كما يدعو سبحانه أن يعاقب الذي يشق على رعيته، وتتضمن هذه الرواية الصحيحة ما يدل على اهتمام أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، بفحص مدى التزام المسؤول بتقديم الخدمة المناسبة للناس والمطلوبة لهم.

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يشير في حديثه هذا إلى عمق الصلة بين توفيق الله ورحمته، أو غضبه وسخطه، وبين سلوك المسؤولين مع من استرعاهم الله ولاية أمرهم، وسياسة شأنهم، فالمسؤول الظالم المضطهد يختلف عن العادل المنصف الرحيم برعاياه، من هنا كان دعاء النبي، صلى الله عليه وسلم، بالرفق للمسؤول الذي يتحسس آلام رعيته، ويتفحص مشكلاتها، ويعمل جهده على حلها، وإيجاد السبل التي تساعد على رفع المعاناة عن أتباعه، ومسألة هذا الربط ليست بالأمر الثانوي، وإنما هي مسألة مصير، ونهاية مطاف، فالذي قدم الإحسان فيها يجد الإحسان يحفه، والتوفيق يلازمه، والعناية الربانية ترعاه، بخلاف الذي أساء

1- صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم.

وتخبط في أحابيل الظلم، ورتع في الغش والقهر لمن استرعه الله أمرهم، فما أقبح نهايته! وما أصعب مصيره! ومع ما كان للناس من عبر في تاريخ الأقدمين الذين اشتهرت أخبار نهاياتهم الوخيمة، فإن الله يجدد للناس مشاهد معاصرة ليأخذوا منها العبر والعظات، فالله يؤتي الملك من يشاء، وينزعه من يشاء، مصداقاً لقوله سبحانه وتعالى: **{ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }**⁽¹⁾، فهذه حقيقة ربانية، تجلت معالمها، وظهرت آثارها في واقع الناس قديماً وحديثاً، فإتاء المناصب الرفيعة ونزاعها من أصحابها أمر متعلق بالمشيئة الإلهية، التي تعبر عن مدى التوفيق الرباني للمسؤول في كثير من الأحيان، فالذي يتربع على عرش المسؤولية بطريقة شرعية، ويعمل بما يرضي الله فيها، يختلف حاله عن الذي قنص المسؤولية بطريقة غير مشروعة، وعن الذي خضع لأهوائه، وانقاد لمصلحه بما يغضب الله، والفرق بين الحالين واضح، فالذي يرضي الله يجد عونه سبحانه، والذي يسخطه، يزلزل الله الأرض تحت قدميه، أو يسحقه من على وجه البسيطة، بصورة من الصور التي تقشع لها الأبدان، ويهتز لها الوجدان.

ولو أن أهل العالم العربي أخذوا بالتوجيهات النبوية التي تنظم العلاقة بين الراعي ورعيته، لما كانت هناك حاجة لأن تنتفض جماهير ضد ولادة أمرها، لكن الحاصل أن الناس في بعض دول هذا العالم خرجوا عن صمتهم بسبب معاناتهم من ويلات سلاطينهم، وحنقهم على انحرافهم وفساد شأنهم، وتكبدهم مشاق العيش ومِحْنَه وشظفه، فظهروا إزاء ذلك كحمم بركانية، أو زلازل كونية، هزت الصخور العاتية، وهددت وجود المتسلطين على الرقاب، فهوت عروش، وأخرى تنتظر، وانكسرت شوكة الظلم وصناديده، في جو عبر ظاهره عن كره شديد لظلام الظلم، الذي وجد على خلاف ما جاء به ديننا الحنيف؛ من حث على العدل بين أفراد الرعية وفتاتها، وإشادة بمقام المسؤول العادل، كما جاء في قول رسول الله، صلى الله عليه وسلم: **{ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَىٰ مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ، عَنِ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ**

1- آل عمران: 26.

وجل، وَكَلَّمْنَا يَدَيْهِ يَمِينًا، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ، وَأَهْلِيهِمْ، وَمَا وَلَّوْا⁽¹⁾، فهنيئاً لمن عدل من ولاة الأمور وطوبى لهم، وسحقاً لمن ظلم الناس واضطهدهم وقهرهم.

التحذير من عاقبة استبداد المسؤولين وظلمهم

حذر الرسول، صلى الله عليه وسلم، ولاة الأمور من تجاوز الحق والعدل خلال قيامهم بأداء الواجبات المنوطة بهم تجاه رعاياهم، ووصف الرسول، صلى الله عليه وسلم، هذا التجاوز بالغش، كما جاء في الحديث الصحيح، أن عُبَيْدَ اللَّهِ بن زِيَادٍ عَادَ مَعْقِلَ بن يَسَارِ المَزَنِيِّ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، فَقَالَ مَعْقِلٌ: (إِنِّي مُحَدِّثُكَ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ لِي حَيَاةً مَا حَدَّثْتُكَ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ، وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ)⁽²⁾، فعاقبة غش الرعية وخيمة، كيف لا؟! وقد باء الغاش لرعيته بالحرمان من الجنة.

ومن أشكال غش الرعية من قبل ولاة أمورها، قيامهم بسلب أموالها ونهب خيراتها، مخالفين بذلك تحذير الرسول، صلى الله عليه وسلم، من عاقبة سلب الأموال العامة، ونهب خيرات الأمة، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: (قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ذَاتَ يَوْمٍ فَذَكَرَ الْغُلُولَ، فَعَظَّمَهُ وَعَظَّمَ أَمْرَهُ، ثُمَّ قَالَ: لَا أَلْفِينَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ⁽³⁾)، يقول: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَغْنِي؟ فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ. لَا أَلْفِينَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ⁽⁴⁾)، يقول: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَغْنِي؟ فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ. لَا أَلْفِينَ شاةً لَهَا نُغَاءٌ⁽⁵⁾)، يقول: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَغْنِي؟ فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ. لَا أَلْفِينَ

1- صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم.

2- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب استحقات الوالي الغاش لرعيته النار.

3- (رُغَاءٌ): صوت البعير.

4- (حَمْحَمَةٌ): صوت الفرس دون الصهيل.

5- (نُغَاءٌ): صوت الشاة.

أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ نَفْسٌ لَهَا صِيَاحٌ⁽¹⁾، فيقول: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَغْنَيْتَنِي؟ فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئاً، قَدْ أَبْلَغْتُكَ. لَا أَلْفِينَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ⁽²⁾ تَخْفِقُ، فيقول: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَغْنَيْتَنِي؟ فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئاً، قَدْ أَبْلَغْتُكَ. لَا أَلْفِينَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ⁽³⁾، فيقول: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَغْنَيْتَنِي؟ فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئاً، قَدْ أَبْلَغْتُكَ⁽⁴⁾، والمعنى أن كل شيء يغله الغل يجيء يوم القيامة حاملاً له؛ ليفتضح به على رؤوس الأشهاد، سواء أكان هذا المغلول حيواناً، أم إنساناً، أم ثياباً، أم ذهباً وفضة⁽⁵⁾، فهذه الأمثلة التي ضربها الرسول، صلى الله عليه وسلم، في حديثه هذا لبعض صور الغلول وأفعال النهب والاختلاس، تبين بؤس الحال الذي سيكون عليه المختلس والناهب للأموال العامة، التي تمكنت يده بطريقة أو بأخرى من نهبها، أو التنفذ بالتصرف فيها على غير الوجه المشروع، وفي غير ما خصصت له.

وفي مقابل هذا الانحراف في سلوك الأمراء، فإن الناس يزدادون حقداً عليهم، كيف لا يحنقون منهم؟ وهم يلمسون صباح مساء الطفرة في ثراء بعض المسؤولين، ويشاهدون الترف والبذخ في سلوك عيالهم، في الوقت الذي تعاني فيه جماهير الناس مرارة الجوع، وقسوة الحرمان، من أبسط احتياجات عيشهم ومتطلبات صحتهم وتعليمهم وغذائهم.

وجوب طاعة المسؤول بالمعروف

في مقابل بيان واجبات المسؤول تجاه رعيته، وتحذيره من التقصير في أداء رسالته، والتخويف من عاقبة خيانة الأمانة التي استرعاه الله إياها، أو هيأ له سبيل حفظها، فإن الرسول، صلى الله عليه وسلم، أوجب على الرعية أن تطيع أمر راعيها، حتى تستقيم الأمور، وتجري شؤون الحياة العامة على الوجه السليم، فعن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن رسول

1- (صِيَاحٌ): صوت الإنسان.

2- (رِقَاعٌ): جمع رقعة والمراد بها هنا الثياب.

3- (صَامِتٌ): الصامت من المال الذهب والفضة.

4- صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب غلظ تحريم الغلول.

5- فتح الباري، 318/9.

اللَّهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: (مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي).⁽¹⁾

وطاعة المسؤول من قبل رعيته ليست مزاجية، ولا انتقائية، ولا تطوعية، وإنما هي من أهم الواجبات، تلزم في الأحوال كلها إذا اجتنبت المعاصي والآثام، فعن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (عَلَيْكَ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِي عُسْرِكَ وَيُسْرِكَ، وَمَنْشَطِكَ وَمَكْرَهِكَ، وَأَثَرَةَ عَلَيْكَ)⁽²⁾.⁽³⁾

وعن ابن عمر، رضي الله عنهما، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أَنَّهُ قَالَ: (عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ؛ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ).⁽⁴⁾

فطاعة المسؤول واجبة بغض النظر عن جنسه، ولونه، وحزبه، واسمه، ومكان سكنه، أو ولادته، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، أمر بطاعة المسؤول الشرعي، مهما كانت أوصافه البدنية أو خصائصه الجغرافية، فعن أبي ذر، رضي الله عنه، قال: (إِنَّ خَلِيلِي أَوْصَانِي أَنْ أَسْمَعَ وَأَطِيعَ، وَإِنْ كَانَ عَبْدًا مُجَدَّعَ الْأَطْرَافِ)⁽⁵⁾، فطاعة ولي الأمر تجب ما حكم بين الناس بما أنزل الله، وأقام فيهم العدل والإنصاف، وشملهم بالرحمة والرفق، بغض النظر عن لونه، وجنسه، وشكله، ولقبه، وعمره.

هذا هو الإسلام

المتدبر في الأسس التي أرساها الله تبارك وتعالى، ورسوله الكريم، صلى الله عليه وسلم، في مجال توطيد العلاقة السليمة بين المواطن والجهات المسؤولة، يجد توازناً بين الحق والواجب، فللمسؤول على الرعية حق الطاعة بالمعروف، وحق النصح والمناصرة والمؤازرة

1- صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية.

2-(وَأَثَرَةَ عَلَيْكَ): وهي الاستنثار والاختصاص بأمور الدنيا عليكم، أي: اسمعوا وأطيعوا وإن اختلفت الأمراء بالدنيا، ولم يوصلوكم حقاكم مما عندهم.

3- صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية.

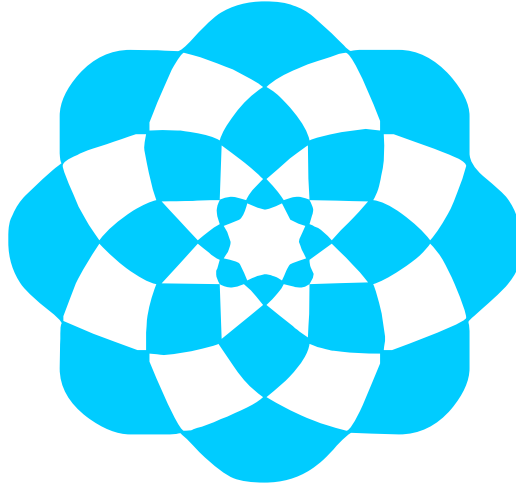
4- صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية.

5- صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية.

بالمعروف أيضاً، وفق معايير الإسلام ومبادئه وقيمه وأحكامه، وفي المقابل؛ فإن على المسؤول واجب نصح الرعية، والتعفف عن اختلاس مالها العام، أو الاستحواذ على الامتيازات دونها من غير حق مشروع، كما أن الناس ينتظرون من المسؤولين عنهم أن يعملوا جهدهم على تيسير أمور حياتهم، وتأمين متطلبات عيشتهم، وتوفير فرص العمل لهم، حتى لا يكونون عالة على غيرهم، وحتى يستطيعوا أن يؤدوا أدوارهم الإيجابية في الحياة، وبناء مجد أمتهم، وتحقيق آمالها السامية.

أما حين يحدث الخلل في مراعاة التقيد بهذه الأسس سواء من قبل الراعي أم الرعية، فستحدث الفوضى، وسيضطرب الشأن، وتهتز فرائص الثقة بين الطرفين، وستعم البلاد فوضى عاصفة، تهدد أمن المجتمع ووجود أبنائه ومصالحهم، لسبب مهم، يعود لاضطراب في معايير الانضباط بحدود الحقوق والواجبات بين الراعي والرعية.

هدانا الله رعاة ورعية للعمل بهدي كتابه، وسنة نبيه الكريم، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.



الرسول الأُسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يخبر عن أثره الحكام والولاة واستنثارهم

يقول النبي، صلى الله عليه وسلم: (... سَتَرُونَ بَعْدِي أَثْرَةً، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي).⁽¹⁾
تعرضنا في فصل سابق لفضل الإيثار، وهنا يأتي الإخبار عن الأثره والاستنثار، وشتان ما بين الإيثار وفضله، وبين الأثره وقبحها وسوئها، والفرق بينهما أن الإيثار يعني في أبسط مفاهيمه تقديم ما يحبه المرء للآخرين مع حاجته إليه، على خلاف الأثره؛ التي هي المبالغة في حب النفس، وتفضيلها على الآخرين، وفي فتح الباري أن الأثره هي الانفراد بالشيء المشترك دون من يشركه فيه، والمعنى أنه يستأثر عليهم بما لهم فيه اشتراك في الاستحقاق. وقال أبو عبيد: معناه يفضل نفسه عليكم في الشيء⁽²⁾، فالأثره صفة ذميمة نهى عنها النبي، صلى الله عليه وسلم، بعكس الإيثار الذي ينال صاحبه الفضل العظيم، والمقام الكريم، {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ* إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}⁽³⁾، والرسول، صلى الله عليه وسلم، يخبر في الحديث الذي بين أيدينا أن الأثره ستوجد في واقع المسلمين، ويذكر النووي في شرحه على صحيح مسلم أن هذا الإخبار من معجزات النبوة، وقد وقع هذا الإخبار متكرراً.⁽⁴⁾

وفي فتح الباري، أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، بقوله: (سَتَرُونَ بَعْدِي أَثْرَةً) يشير إلى ما وقع من استنثار بالأموال والتفضيل في العطاء وغير ذلك.⁽⁵⁾

1- صحيح البخاري، كتاب المساقاة، باب القطائع.

2- فتح الباري، 8/ 52.

3- الشعراء: 88-89.

4- صحيح مسلم بشرح النووي، 12/ 232.

5- فتح الباري، 5/ 48.

معالجة الأثرة وكيفية مواجهتها والتعامل معها

لم يكتف الرسول، صلى الله عليه وسلم، بالإخبار عن ظهور الأثرة، بل أرشد إلى كيفية معالجتها والتعامل معها حال وجودها بينهم، وفي واقعهم، ففي الحديث المذكور أعلاه، يوجه الرسول، صلى الله عليه وسلم، المسلمين إلى مواجهة الأثرة التي ستظهر بينهم بالصبر في مواجهة الأثرة، قائلاً: **(فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي)**، وفي عمدة القاري أن الاستئثار للحظ الدنيوي إنما يقع بعده صلى الله عليه وسلم، وأمرهم عند وقوع ذلك بالصبر.⁽¹⁾

وبالإضافة إلى الصبر في مواجهة الأثرة، فإن الرسول، صلى الله عليه وسلم، يوجه المسلمين إلى المحافظة على حدود معينة من العلاقة بينهم وبين المستأثرين من السلاطين، ففي الحديث الصحيح عن عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: **(قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّكُمْ سَتَرُونَ بَعْدِي أَثْرَةً وَأُمُورًا تُتَكْرَمُ بِهَا، قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: أَدُوا إِلَيْهِمْ حَقَّهُمْ، وَسَلُّوا اللَّهَ حَقَّكُمْ)**.⁽²⁾

فالأثرة الأكبر تكون في الحكم والملك والسيادة العامة على الناس، ومعلوم أن الإسلام حدد حقوقاً وواجبات متبادلة بين الأمير والسلطان من ناحية، وبين الناس الذين يتولون شأنهم العام من ناحية أخرى، فعلى الأمير أن يحكم الناس بما أنزل الله ويسوسهم بالعدل والمساواة، وأن يشاورهم في الأمر، إلى ما هنالك من الواجبات الشرعية، وعلى الرعية أن تسمع له، وتطيع أمره في غير معصية الله، فإذا ما وجد الناس من الأمراء استئثاراً، وسعياً للحكم العضوض، فسيكون حالهم صعباً، ومن أنجع الأساليب التي يرشدنا إليها النبي، صلى الله عليه وسلم، في التعاطي مع مثل هذه الأحوال، أن يصبر المسلمون على ما ينجم عن هذا الخلل الأميري والسلطاني، وأن يؤديوا ما عليهم من واجب تجاه أمرائهم من ناحية السمع والطاعة في غير المعاصي والآثام، وأن يسألوا الله تعالى حقهم.

1- عمدة القاري، 24 / 180.

2- صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: سترون بعدي أموراً تنكرونها.

وفي عمدة القاري للعيني، عن الداودي أن الذي عليه العلماء في أمراء الجور أنه إن قدر على خلعه بغير فتنة ولا ظلم وجب، وإلا فالواجب الصبر، وعن بعضهم أنه لا يجوز عقد الولاية لفاسق ابتداءً، فإن أحدث جوراً بعد أن كان عدلاً اختلفوا في جواز الخروج عليه، والصحيح المنع إلا أن يكفر، فيجب الخروج عليه.⁽¹⁾

وعن أنس بن مالك، أنَّ الرسول، صلى الله عليه وسلم، جمع الأنصار، بعد أن ناقشه بعض منهم في توزيع فيء هَوَازِن، وكان مما قاله لهم: (...إِنَّكُمْ سَتَرُونَ بَعْدِي أُثْرَةً شَدِيدَةً، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْا اللَّهَ تَعَالَى وَرَسُولَهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى الْحَوْضِ، قَالَ أَنَسٌ: فَلَمْ نَصْبِرْ).⁽²⁾

وفي هذا الحديث وصف لتلك الأثرة بالشدة، في إشارة إلى حاجة من يتلى في معاشتها إلى الصبر، لذلك قال صلى الله عليه وسلم: (فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْا عَلَيَّ عَلَى الْحَوْضِ) أي اصبروا حتى تموتوا، فإنكم ستجدوني عند الحوض يوم القيامة، فيحصل لكم الانتصاف ممن ظلمكم، والثواب الجزيل على الصبر.⁽³⁾

السمع والطاعة في حال الأثرة وغيره

يؤكد الرسول، صلى الله عليه وسلم، على واجب أفراد المسلمين وجماعتهم تجاه طاعة ولي أمرهم، حتى يغرّدوا جميعاً في سرب مصالح دينهم وأوطانهم ووجودهم، وحتى لا يقع التشرذم بينهم، فلا يصلح أن تكون التبعية للسلطان مزاجية، وإنما يجب أن تنقاد بمعايير الشرع وأحكامه ومبادئه، وإلا صار لكل حزب دولة، ولكل عائلة نظام حكم، ولوقع التنافر بين فئات المسلمين وجماعاتهم، فاقترضوا الواجب انقياد جميع أفراد الأمة وفئاتها بالطاعة لأمرهم الشرعي، وإن اختلفوا معه في الاجتهاد والمواقف والقناعات، فطاعة السلطان الشرعي واجبة في مختلف الظروف والأحوال، عدا عن حال فرضه الكفر

1- عمدة القاري، 24 / 179.

2- صحيح البخاري، كتاب الخمس، باب ما كان للنبي، صلى الله عليه وسلم، يعطي المولفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه.

3- فتح الباري، 8 / 52.

عليهم، فعن جُنَادَةَ بن أَبِي أُمَيَّةَ قال: (دَخَلْنَا عَلَى عُبَادَةَ بن الصَّامِتِ، وَهُوَ مَرِيضٌ، قُلْنَا: أَصْلَحَكَ اللهُ؛ حَدَّثَ بِحَدِيثٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهِ سَمِعْتَهُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: دَعَانَا النَّبِيُّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَبَايَعَنَاهُ، فَقَالَ: فِيمَا أَحَدَ عَلَيْنَا أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا، وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا، وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةَ عَلَيْنَا، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ، إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ).⁽¹⁾

ويرى النووي أن هذا الحديث الشريف يحث على السمع والطاعة، وإن كان المتولي ظالماً عسوفاً، فيعطى حقه من الطاعة، ولا يخرج عليه، ولا يجلع، بل يتضرع إلى الله تعالى في كشف أذاه ودفع شره وإصلاحه. والمراد بالأثرة هنا استثثار الأمرء بأموال بيت المال. والله أعلم.⁽²⁾

وفي عمدة القاري أن قوله: (وَأَثَرَةَ عَلَيْنَا) أي استثثار الأمرء بحظوظهم واختصاصهم إياها بأنفسهم، وحاصل الكلام أن طواعيتهم لمن يتولى عليهم لا يتوقف على إيصالهم حقوقهم، بل عليهم الطاعة، ولو منعهم حقهم. وقوله: (وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ) عطف على قوله أن بايعنا، والمراد بالأمر الملك والإمارة. وقوله: إلا أن تروا كفراً؛ أي بايعنا قائلاً: إلا أن تروا منهم منكراً محققاً تعلمونه من قواعد الإسلام، إذ عند ذلك تجوز المنازعة بالإنكار عليهم. وعن النووي أن المراد بالكفر هنا المعاصي، وقال الكرمانبي: الظاهر أن الكفر على ظاهره، والمراد من النزاع القتال.

وقوله بَوَاحًا: أي ظاهراً بادياً من قولهم باح بالشيء، يباح به بوحاً، وبواحاً إذا أذاعه وأظهره. وقوله بُرْهَانٌ: أي نص آية، أو خبر صحيح لا يحتمل التأويل.⁽³⁾

1- صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: سزون بعدي أموراً تنكرونها.

2- صحيح مسلم بشرح النووي، 12 / 232.

3- عمدة القاري، 24 / 179.

خاتمة

لقد أخبر الرسول، صلى الله عليه وسلم، في الأحاديث التي ذكرت آنفاً عن ظاهرة الأثرة التي ستكون آفة بين المسلمين، وتركز تفسير العلماء للأثرة على ما يقع من الأمراء من استئثار بالأموال والمصالح والنفوذ، ووجه عليه الصلاة والسلام المسلمين إلى كيفية التعاطي مع الأحوال التي تظهر فيها أثره السلاطين، مبيناً أهمية الصبر والمحافظة على السمع والطاعة في غير معصية، مع المحافظة كذلك على توطيد الصلة بالله تعالى وبالطاعة والعبادة، وسؤاله سبحانه أن يعين في إخراج الناس من كربهم، وتهيئة السبل لهم للحصول على حقوقهم المشروعة، وهذا التوجيه قد يغيب فهمه الدقيق عن مُندفع في تعامله مع ظروف أثره الحكام، فتجده يقول ويفعل دون حكمة وضوابط، مما قد يجرح عليه وعلى الأمة مصائب الشقاق والنزاع والتشردم، ويغيب الفهم الدقيق كذلك عن أهل النفاق الذين يجاملون السلاطين في باطلهم وأثرتهم، دون أن يقوموا بواجب نصحتهم، وإبلاغهم كلمة الحق بالوسائل والأساليب المشروعة والمنضبطة بأصول الحكمة والموعظة الحسنة، والأخنة بالنصح السديد المخلص الواجب للراعي على الرعية، وفق منظور الإسلام الحنيف المُستقى من الهدي القرآني والتوجيهات النبوية، وسيرة السلف الصالح من المسلمين.

هدانا الله تعالى حكماً ومحكوماً وللتغلب على الأثرة والاستئثار، بالأساليب المشروعة، لنعيش في كنف العدل والإنصاف، وحب الخير وتقديمه للآخرين كما نحب ونحرص عليه لأنفسنا، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

فهرس الكتاب

الرقم	الرسول الأُسوة ﷺ	الصفحة
الفصل الأول عقيدة		
1.	ﷺ يبشر مَنْ آثر الآخرة	5
2.	ﷺ يكرر تمني الشهادة في سبيل الله	12
3.	ﷺ يُحدِّث عن بعض آيات الله الباهرة في إسرائه	18
4.	ﷺ كفاه الله المستهزئين	23
الفصل الثاني ذكرى مولد الرسول ﷺ وهجرته		
5.	ﷺ ومضات من خصائصه في ذكرى مولده	30
6.	ﷺ يربط الهجرة بالامتثال لأمر الله وحسن جزائه	36
الفصل الثالث عبادات		
7.	ﷺ يحدث عن المواقيت الزمانية لرمضان والصيام	43
8.	ﷺ يحدث على الإبراد في شِبْلةِ الحَرِّ (ح 1)	49
9.	ﷺ يحدث على الإبراد في شِبْلةِ الحَرِّ (ح 2)	54
10.	ﷺ يحدث على الإبراد في شِبْلةِ الحَرِّ (ح 3)	59
11.	ﷺ هديه في صدقة الفطر وعيده	65
12.	ﷺ يحدث على التزود للحج	70
13.	ﷺ يصف فضل العشر الأولى من شهر ذي الحجة	76
14.	ﷺ وقوله: إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيدًا وَهَذَا عِيدُنَا	80
15.	ﷺ يصوم في السفر ويفطر	86

الفصل الرابع جهاد وأسرى

93	ونصر الله العزيز وفتحه المبين	.16
99	يحث الأمة على القيام بواجبها نحو الانتصار لقدسها وأقصاها	.17
105	ومشاركة المرأة في أداء الواجبات العسكرية	.18
109	يحذر من عواقب احتلال الأرض ظلماً	.19
115	يحث على رعاية ذوي الشهداء والأسرى ويحذر من خيانتهم	.20

الفصل الخامس مناهج وقيم

123	يبين فضل التفقه في الدين	.21
129	يعلمنا الإيثار ويبين فضله (ح 1)	.22
135	يعلمنا الإيثار ويبين فضله (ح 2)	.23
141	يتمثل حسن الخلق ويدعو إلى التحلي به	.24
148	يحث على صيام الجوارح عن اقتراح الآثام والمنكرات (ح1)	.25
155	يحث على صيام الجوارح عن اقتراح الآثام والمنكرات (ح2)	.26
161	ينهى عن الظلم ويحذر من عواقبه الوخيمة وينتصر للمظلوم	.27
169	يحذر من آفة الخذلان	.28
176	يحنو على اليتيم	.29
183	يشيد بثبات المبتلى وصبره ويبلسم جراحه	.30
188	يؤكد على حرمة دماء الأبرياء	.31
195	يحذر من النميمة	.32
200	العبد الشكور	.33
206	يحذر المحامين والخصوم والقضاة من تجاوز الحق	.34
211	يحذر من سلب المال العام واختلاسه	.35

الفصل السادس اجتماعيات		
217	﴿يرفق بالأبناء ويحسن رعايتهم﴾	.36
224	﴿يعلمنا طلب الخلف من الله في المصيبة﴾	.37
229	﴿يبشر الأمهات الصابرات﴾	.38
235	﴿يسط إجراءات الزواج ويحث عليه (ح1)﴾	.39
241	﴿يسط إجراءات الزواج ويحث عليه (ح2)﴾	.40
247	﴿يحرم الخيانة الزوجية (ح1)﴾	.41
253	﴿يحرم الخيانة الزوجية (ح2)﴾	.42
259	﴿يحرم الخيانة الزوجية (ح3)﴾	.43
265	﴿يحرم الخيانة الزوجية (ح4)﴾	.44
271	﴿يخلع امرأة من زوجها برضاها﴾	.45
276	﴿يأخذ العفو ويأمر بالمعروف (ح1)﴾	.46
282	﴿يأخذ العفو ويأمر بالمعروف (ح2)﴾	.47
289	﴿وذوي الاحتياجات الخاصة﴾	.48
الفصل السابع نظام حكم		
297	﴿يوطد العلاقة السليمة بين المواطن والجهات المسؤولة﴾	.49
303	﴿ينجبر عن أثرة الحكام والسلاطين واستنثارهم﴾	.50